





تجليد

دار الفكر

بيروت - المزرعة









# أَحَبُّ الْخَلَفَاءِ الْأَمْوِيِّينَ

تأليف

عبد الرزاق حميدة

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الثنى

٣٠

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)





# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

يطيب لكثير من الناس أن يقرءوا أدب العصر الأموي ، وأن يستمتعوا بما فيه من آثار قيمة في الشعر والخطابة ، وما ظهر في آخره من رسائل هي أقرب إلى الأدب الرفيع منها إلى أي شيء آخر ، وقد يطيب لهم أن يروا هذا الأدب مشغولا بالسياسة والحزبية من غير أن يخرج ذلك - في أكثر حالاته - عن أن يكون أدبا خالصا ، ويجدون لذة في قراءة الشعر السياسي الذي يؤيد بني أمية ويستظل بظلمهم ، أو يشيد بمبادئ الخوارج وصفاتهم ، أو يرثي للشيعة وما حل بهم . ويعجبهم في هذا الشعر الأموي أن تجمع القصيدة أكثر من فن ، وتنتقل بالقارئ من غرض إلى غرض ، فتجمع بين الغزل والهجاء . أو تخلط بين الوصف والمدح ، أو تشوب السياسة بالعصية مثلا ، ويجدون في هذا التنويع خفة وجدة يبعدان السأم .

وقد يقرأ القارئ نقائض جرير والفرزدق والآخرين فيجد أنواعا من الهجاء ، فيها إقذاع وإسفاف ، ولكنه يسيغ أكثرها ، ويجد فيها جمالا ورقة ، أو جزالة وقوة ، فينسى إسفاف هؤلاء الشعراء ، ويرى نفسه مرغما على الإعجاب بهم والتسليم بمقدرتهم .

والأمر كذلك في شعر الغزل العذري والغزل العاثر ، وفي شعر المدح الصادق وشعر الخمر والعصيات .



وقد روى لنا هذا الأدب في كتب الأخبار والنقد والتراجم ، كالأغانى والكامل ، والأمالى ، وطبقات الشعراء ، ووفيات الأعيان ، والعقد . وأصحاب هذه السكتب من الأدباء الذين يتخيرون ، ويُسقطون ما لا يرضيهم ، ويعرضون ما يروونه في ثوب جميل من الأدب ، تزينه المقدمات أو التعليقات ، وتجمله أساليبهم . إذ يروون هذه المقطوعة من الشعر قصة جميلة ، ولتلك الأبيات خبراً لطيفاً ، ولهذا الخبر الأدب حديثاً طريفاً .

ويزيد القارىء إعجاباً واستمئاعاً أن السكتب التى روت أخبار الأدب الأمور كثيرة الانتقال من موضوع إلى موضوع ، والاستطراد من خبر إلى خبر ، وهذه الطريقة اللطيفة فى التأليف يندفع القارىء فى تتبع هذا الأدب وأخباره فى تلك السكتب ، من غير أن يسرى إلى نفسه شيء من الملل ، وينصرف عن أن يعنى بتحقيق هذه الأخبار أو بنقد ذلك الأدب .

\*\*\*

على أن من الناس من لا يستسلم لهذا الأدب ولا للسكتب التى روت أخباره ، ويحاول أن يقف مفكراً عند اختلاف الروايات أو النقد ، فى كتاب واحد أو فى كتب متعددة . فيعز عليه أن يكون قارئاً فقط ، ويأبى إلا أن يكون ناقداً يعيب ما يراه معيباً ، ويطعن فى خبر أو رواية تبدو عليهما آثار الصنعة أو التكلف أو البعد عن المعقول ، ويحاول أن يحقق صحتها أو أن يتبين فيهما شيئاً من صفات الأديب ونفسه ، وأن يطبق قواعد النقد ، ويخرج من هذا بدراسة قد تنتهى إلى آراء تغير فكرة الناس عن هذا الأدب ، أو تكشف كثيراً من أسرارهم ، كأن يبحث عن أثر النسب الوضع فى شعر جرير ، والحسب الرفيع فى شعر الفرزدق ، والرق فى مدح نصيب .

وقد يجد فى اختلاف الروايات باعثاً على البحث فى الرواية والرواة فى ذلك العصر - وقد كان بعيداً عن أن يكون عصر تدوين لقلة السكتب وأدوات الكتابة ، وحرص المسلمون على ألا يكتبوا مع القرآن شيئاً



خوف اللبس - وقد يحمله هذا البحث على الكلام في منزلة الرواية وفي رواجها في ذلك العصر ، لما كان يراه الناس في الراوى من محدث بالأدب الحى اللذيذ ، ينتقل من موضوع إلى موضوع ، ويجيب إذا سئل ، ويروى ما يطرب ويعجب ، ويحدث بالأخبار الطريفة ؛ وقد يشترك في السياسة برواية أخبار أو أشعار تنصر فريقا ، أو تهدم مذهبا ، أو تدفع اتهاما . وقد يحمله على التفكير في الرواة وأخلاقهم وتكسبهم بالرواية ، وفي مبلغ الدقة في الأدب والأخبار التى تروى عن طريق الحفظ والمشافهة . فيرى أن هذه الروايات ليست دقيقة دقة الأدب المسطور ، مهما حرص أصحابها على الأمانة في النقل فقد تخونهم حوافظهم ، ويلتبس عليهم بعض الأخبار والأشعار فينسبونها إلى غير أصحابها ، أو ينسوا بعضها ، أو يزيدوا فيها . وقد يقرأ أنه كانت لمعاوية قرية وأن بعض الشعراء تغزل فيها . لكنه يرى أن درجة القرابة فيها خلاف ، فهى أخته في بعض الروايات ، وهى بنته في رواية أخرى ، والشاعر الذى تغزل فيها هو أبو دهب الجهمي في رواية ، وهو عبد الرحمن ابن حسان في رواية أخرى ؛ ويرى شعر الغزل فيها مختلفا كذلك . وقد تزيد حيرته واضطرابه إذا كان حال الرواة مستورا ، وليس فى الشعر ما يرجح رواية على رواية .

على أن هذا البحث الذى يحمل القارىء نفسه عليه ، يحلو لبعض الناس أن يقوم به ؛ ليكشف عن الحق ، أو ليحمل غيره على مساعدته فى الكشف عنه . ويروح مسرورا مطمئنا إذا وفق إلى شىء من الصواب .

\*\*\*

لم يقتصر رواة الأدب فى العصر الأموى على نصوصه من شعر وخطابة ، بل أضافوا إلى ذلك كثيرا من الأخبار التى تزيد وضوحا وقوة ، فرووا المناسبات التى قيل فيها ، والظروف التى أحاطت بإنشاده ، والخلفاء والولاة والأعيان الذين أحاطوه بعنايتهم لمنفعته أو لذاته ، أو سخطوا على أصحابه



لأنه لا يرضى أذواقهم ، أولا يوافق سياستهم . وقل أن يذكر في هذا العصر شعر أو خطابة أو خبر من غير أن يكون له صلة بهؤلاء الخلفاء والولاة والأعيان . ولكن تاريخ الأدب آخر هؤلاء عن مرتبتهم . وتحدث عن أثرهم في الأدب عرضا مع أنهم أصحاب التوجيه العظيم للأدب والأدباء . فحاولت في هذا الكتاب أن أتحدث عن الخلفاء الأمويين وأشهر ولايتهم من ناحيتين : ناحية إنتاجهم الأدبي وأكثره خطابة ، وناحية تأثيرهم في الأدب وبخاصة في الشعر الأموي . وإذا كانت الخطابة في عصرهم قد بلغت الذروة فقد كانوا السابقين إلى ذرا المنابر . وإذا كان الشعر قد نما مناحي خاصة في عصرهم أشهرها الغزل والسياسة والهجاء فقد كانوا الآخذين بزمام الشعراء إلى هذه النواحي . ومن أجل هذا كان التاريخ السياسي في عصرهم لازما للكشف عن العوامل التي وجهت الأدب وأثرت في الأدباء .

وقد رأيت أن أكثر خلفاء بني أمية كانوا من مدرسة معاوية التي بينا صفاتها في ص ١٠٥ وما بعدها ، ولم يخالفها قليلا إلا خلفاء اللهو وهم يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد ابنه . وكان عمر بن عبد العزيز أمة وحده . فجاء ترتيبهم في الكتاب مخالفا قليلا لترتيبهم في الخلافة (١) ، وكان أثر بعضهم في الأدب ضعيفا كمعاوية الثاني ، ويزيد الثالث ، فلم نذكر شيئا عنهم ، أما مروان بن محمد آخر خلفائهم فقد استكتب عبد الحميد بن يحيى فغلبت شهرته على شهرة خليفته . وألحقت بالخلفاء أكثر ولايتهم أدبا ،

#### (١) ترتيب الخلفاء الأمويين :

- |                                   |                                              |
|-----------------------------------|----------------------------------------------|
| ١ — معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠) | ٧ — سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩)            |
| ٢ — يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٣)      | ٨ — عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١)             |
| ٣ — معاوية الثاني (٦٤ - ٦٤)       | ٩ — يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥)            |
| ٤ — مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥)      | ١٠ — هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥)           |
| ٥ — عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦)  | ١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٣٦) |
| ٦ — الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦) | ١٢ — يزيد بن الوليد الأول (١٢٦ - ١٢٦)        |
|                                   | ١٣ — مروان بن محمد بن عبد الملك (١٣٢ - ١٣٢)  |

وتوجيهها للأدباء ، وقد كنت أود أن تصل إلينا آثار القوم كاملة عسى أن نجد في أدبهم السياسي مذهبهم الأصلية ، وأفكارهم المتأثرة بنظام الحكم عند الفرس والرومان وغيرهما من الأمم التي خضعت لحكمهم . وقد رأينا من ذلك في الأدب الملكي آراء تشبه أن تكون نظرية الحق المقدس<sup>(١)</sup> التي تقول إن الحكام يستمدون سلطانهم من الله لا من الشعوب ، وبهذا لا يسألون أمامهم عما يفعلون .

وفي هذا العصر أخبار طريفة ، وفيه آثار أدبية خالدة كخطبة زياد البترام ، وخطبة الحجاج عندما ولي العراق ، ووصية عبد الحميد بن يحيى إلى الأدباء وغيرها . وفيه الوفادات والمجالس الأدبية والاجوبة والمحاورات ، وكنت أود أن تتسع صفحات الكتاب لكل هذه الآثار ، ولكن كل موضوع من هذه يحتاج إلى كتاب ، فأشرت إلى مصادرها في ذيل الصفحات . وعسى أن يكون فيه ما أردت من الفائدة .

المؤلف

عبد الرزاق حميد

القاهرة

١٢ رجب سنة ١٣٦٨ هـ

١٠ مايو سنة ١٩٤٩ م

(١) فجر الاسلام ص ١٣٢



أما المراجع فقد ذكر أكثرها في الهامش . ومن الكتب التي انتفعت بها

(١) أصول النقد الأدبي للأستاذ الشايب

(٢) حديث الأربعاء ١ - ٢ للدكتور طه حسين

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ

(٥) الحيوان للجاحظ من ١ - ٤

(٦) تاريخ أدب العرب للرافعي ١ - ٣

(٧) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ١

(٨) في الأدب الإسلامي للأستاذ خلف الله

ومن المراجع الأنجليزية

1) Medieval Islam - Von Grunebaum

2) Literary History of the Arabs - Nicholson.

3) Persia - Browne

4) History of the Theatre - Freedley

ووقعت بعض أخطاء مطبعية وهذا صواب أهمها :

|                     |                           |
|---------------------|---------------------------|
| ١٦ - ١٧ - الله      | ٧٢ - ١ - وكثيرا           |
| ١٧ - ٤ - منهما      | ٧٥ - ١٦ - لا إله إلا الله |
| ٢٢ - ٢٢ - إلا زما   | ٩٧ - ٣ - الواضعين         |
| ٤٠ - ١٨ - ألا تبق   | ١٥٢ - ١٨ - تغلب           |
| ٤٩ - ١٤ - لعفو غفور | ١٩٤ - ١٨ - الردع          |
| ٥٣ - ٨ - اثنا عشر   | ٢٠٠ - ٩ - حسدت            |
| ٦٥ - ٨ - بن عبادة   | ٢٣١ - ١٣ - وكان عارفا     |

# طرق دراسة الأدب

## دراسة النصوص لذاتها

من الطبيعي في دراسة الأدب أن نتصل به ، وأن نعرفه قراءة أو سماعاً وحفظاً ، وأن نقف بعد هذه المعرفة وقفات ، تطول أو تقصر ، بحسب النص الأدبي الذي نقرؤه ، ومدى رغبتنا في البحث عن صفاته ، ومبلغ الصلة بينه وبين قائله ، والظروف التي نشأ في كنفها ، والعوامل التي أوجت به ، وما يتضمنه من المعاني التي أوحى بها إلى الأديب ، فعبّر عنها في ألفاظ وعبارات تشير إلى عواطف هذا القائل وشعوره ، وتكشف عن إحساسه وذاته وخياله وفكره ، وتنقل كل ذلك إلى القارئ فتثير في نفسه عواطف ومشاعر ، وتستهيء عقله وشعوره وقلبه ، بل قد تغلبه على عقله فينساه ، وتصرفه عن تفكيره فيميل معها حيثما مالت ، ويخضع لسحر بيانها ، وجمال خيالها ، ودقة تصويرها ، ويتذوق فيها الأدب الخالص ، والفن الجميل .

وإن أسلوب الأديب — أو ألفاظه وعباراته التي يؤلفها تأليفاً خاصاً — هو أول ما يلاحظنا من أدبه ، ولسكننا لانستطيع أن نجرد هذا الأسلوب عما يتضمنه من صور النفس والخيال والفكر والعاطفة والشعور التي تكمن وراءه ، وتؤلف معه أدباً خاصاً ، فيه ذاتية الأديب التي انفرد بها ، أو الصفات العامة التي اشترك فيها مع غيره من الأدباء ، بمن ساروا على نهجه ، وتأثروا بمثل ما تأثر به .

فاذا قرأنا نصاً أدبياً ، ووقفنا عنده وقفة خاصة به ، وجب أن نغني به عناية مستقلة ، نبحث فيها عن الموضوع الذي يدور حوله الأدب ، ومدى تأثيره في نفس قائله ، والوحي الذي هبط على الأديب من هذا الموضوع فأثار نفسه وحملها على القول . ووجب أن نغني كذلك بالأسلوب الذي تخيره الأديب للتعبير عن شعوره الخاص به . ثم ننتقل إلى الصلة بين



الموضوع والأسلوب ، ونجاح الأديب في التأليف بينهما ، كأن يختار الأسلوب السهل الهادىء لوصاف الطبيعة الجميلة كالورود الباسمة ، والأشجار الجارية ، والريخ الرخاء ، والشمس المشرقة . أو للتعبير عن العواطف الرزينة الهادئة ، كالشكوى والرجاء والاستعطاف . أو أن يختار الأسلوب القوى الفخم لوصاف الطبيعة الجبارة ، كالرياح العاتية والبحار الهائجة ، والشمس اللائحة . أو للعواطف الشائرة كالحب المبرح ، واليأس القاتل ، والثورة النفسية الجارحة ، والتهديد والوعيد ، والحروب ومواقعها وشبه ذلك . فإذا فعل هذا فقد نجح نجاحاً كبيراً .

ومن الواضح أن هذه الوقفات عند الأسلوب لبحث خصائصه ، وتعرف الصلة بينه وبين موضوعه ونفس قائله ، ليست وقفات متعاقبة في كل حين كما تعاقبت في هذه السطور ، فإنها قد تكون في آن واحد ، وقد تتعاقب إذا أردت الوقوف عند كل منهما اختياراً ، وانتقلت إلى ما يليه إذا فرغت منه ، وإنما نفعل ذلك عند دراسته المقصودة ، لا عند القراءة الممتعة . فأجول بذهنى وذوقى فى الأسلوب ، لبيان ما ينطوى عليه من الخصائص ، وما يتضمنه من المعاني ، وما يثيره فى نفسى من الانفعال والاحساس ، ولبيان مقدرته على تصوير نفس صاحبه وعواطفه ، وما أثار خياله ونبهه عبقريته وتدور فى نفسى أشياء كثيرة تتصل بهذا الأدب كشخصية الأديب فى أدبه ، وآثار البيئة فيه ، وفعل الثقافة والزمن فى معانيه وغير ذلك مما يمر بذهنى عند قراءة نص أدبى أعنى به لدرسه ونقده .

وقد أقف وقفات خاصة ، لأبحث عن مدى الانسجام بين أجزاء هذا النص الأدبى ، ومقدار خضوعه للقواعد العامة التى يتصل بها . فإذا كان شعراً مثلاً عرجت على ما فيه من خصائص الشعر وأصوله . وإذا كان مسرحية نظرت إلى مدى التناسق بين فصولها ، أو نواحي القوة والضعف فى رسم شخصياتها وحوادثها ، ونجاحها فى الوصول بالقارىء أو السامع إلى الغاية



التي ألفت من أجلها ، وكيف راعى صاحبها أصول المسرحيات ، أو خرج على هذه الأصول ، فكان في ذلك مجدداً أو منحرفاً عن الصواب . وإذا كان مقالا رجعت إلى أصول المقالة ، أو رواية رجعت إلى قواعدها ، وهكذا . إذا قرأ الناقد الاثر الأدبي لهذه الغاية ، ووقف عنده وقفة الناقد استطاع أن يبين قيمته الأدبية ، معتمداً على ذوقه الخاص ، ومستعيناً بقواعد النقد العامة . فاذا قرأ أو سمع قول مجنون ليلي .

يا صاحبي ألمّا بي بمنزلة قد مر دهر عليها أيّما حين  
إني أرى رجعات الحب تقتلني وكان في بدنها ما كان يكفيني  
لاخير في الحب ليست فيه قارعة كأن صاحبها في نزع موتون (١)  
ألقى من اليأس تارات فتقتلني وللرجاء بشاشات فتحييني (٢)

ووقف عند البيت الأخير ظهرت له صورة واضحة قوية من فعل اليأس والرجاء وهما يتناوبان نفس الشاعر ، فيقتله اليأس كلما عاوده ، ويحييه الرجاء إذا أشرق في خواطره ، وليس في حاجة إلى أن يبين قوة الاضطراب الواضح في معاودة اليأس والرجاء للشاعر ، وحيرته بينهما مما يوضحه لفظ « ألقى » و « تارات » و « بشاشات » . فاذا رجع قليلا إلى نفس القائل ملح من خلال الأسلوب اضطرابها وانفعالها ، وشدة ما تلقى من اليأس كلما عاودها فقتلها ، ولمح سرورها وبشاشتها كلما عاودها الرجاء فأحياها . وبتبين مبلغ هذه الشدة من اليأس حتى يبلغ درجة القتل ، ومبلغ السرور والبشاشة من الرجاء الذي يحيي هذه النفس . ويخيل إليه أنها تلقى من هذا اليأس والرجاء عنتا وإرهاقا . ولو دام يأسها لاستراحت ، ويحسبها في حالة الرجاء والبشاشة تخشى معاودة اليأس ، فتختلط البشاشة بالآلم ، وتم عما تخفى وراءها من الخوف والفرع . ولو أنه رجع إلى قائله وعرف أنه كان عاشقا قتلته الحب ، وسار به

(١) الموتون : المضروب على الوثين ، وهو عرق معلق بنياط القلب

(٢) التارات : جمع تارة ؛ ومعناها المعاودة والتردد حيناً بعد حين .



الحديث في الآفاق ، تبين أنه كان يلقي هذا اليأس والرجاء في الحب ، وأنه كان يطمع في اجتماع شمله بمن يهوى فتحول الظروف دون الاجتماع أو اللقاء ، فيسكتفي من هذا بالرجاء ، وقد لا يتحقق هذا الرجاء .

فدراسة هذا النص تظهر مقدار مافيه من قوة التعبير ، ومقدار مافيه من الدلالة على المعاني التي يمكن أن يفهمها القارئ منه ، ثم تكشف عن نفس القائل ، ومدى حيرتها بين اليأس والرجاء ، وما يفعله كل منهما بها من قتل أو إحياء . ثم تزداد وضوحاً إذا عرف الموضوع كما تقدم .

وهذه هي أولى مراحل الدراسة الأدبية ، نلجأ إليها قبل كل شيء لبيان القيمة الذاتية للادب ، وتعريف الناس بأوجه القوة والضعف فيه ، من ناحية الأسلوب وجماله ، والفكرة ووضوحها ، والعاطفة وقوتها ، والنفس وتصويرها ، وامتلأ النص الأدبي بكل هذه المعاني ، ونقلها إلى القراء مصبوغة بصبغة القائل .

وهذه مرحلة في النقد والتحليل أبعد من مرحلة القارئ الذي يقرأ ليستمتع ، وليشارك الأديب عواطفه وشعوره أو شيئاً شبيهاً بهما من غير أن يتكلف ما وراء ذلك من التحليل والنقد .

### النص المستقل

ولو قرأ الآن تمام :

إن الربيع أثرُ الزمان      لو كان ذا رُوح وذا جثمان<sup>(١)</sup>  
مُصَوِّراً في صورة الإنسان      لكان بساما من الفتيان  
بُوركت من وقت ومن أوان      فالأرض نشوى من ثرى نشوان  
تحتالُ في مُفَوِّفِ الألوان      في زهر كالحدق الرّوانى

(١) الأثر بضمّتين : ماء الوجه ورويقه ، وقد قرأ ( أثر ) بفتحّتين : ومعناه : أنه الذي ذكره وخبره أو ( أثر ) أفضل تفضيل : بعد وفتح . يروى : ربّما ، أنه المصطفى من الأزمان عند الناس ، أو أنه مصطفى بالجمال والبهجة .



لم يجد في نفسه حاجة إلى معرفة الطرف الذي قيل فيه ، فذلك واضح من الشعر ، يصف فيه الربيع . ووجد نقده مقصورا على هذه القطعة الأدبية الرقيقة ، التي جاءت في صورة الرجز ، وليس فيها تكلف رؤية ولا أيه العجاج ، ولا إغرابها مثلا ، وهي تصف الربيع على قصرها وصفا جميلا يغني كل شطر منه عن قصائد ، وفيها من المعاني العامة ما يوحى إلى القارىء بالتفصيل . فالشطر الأول من هذا الوصف « إن الربيع أثر الزمان » موجز ، ولكن كلمة « أثر » تشير إلى أنه خير الأوقات ، والقارىء يدرك من ذلك أنه أحسن الأيام ، ثم يدرك أنه كذلك لجمال الدنيا فيه ، وتفتح الأزهار ، واعتدال الليل والنهار ، وحلاوة النسيم ، وعذوبة المياه ، وغناء الأطيوار ، وابتسام الدنيا بعد عبوس الشتاء ، ورقة الشمس قبل حلول الصيف . وذلك كله مستفاد من لفظ واحد هو « أثر » وإذا نظرت إلى قوله « لكان بساما من الفتيان » لأدركت ما فيها من معنى الشباب والنضارة والمرح ، والخلو من العبوس والتجهم كما يكون الشباب عادة . ولما جاء بكلمة « بسام » لكيلا يترك فرصة لمعترض يقول إن الشباب قد يعبس ويتجهم . وتعبيره عن الأرض بأنها « نشوى » يحمل كل معاني السرور والمرح كذلك . وقد جعلها — وهي الأرض — ذات حس وإدراك وعواطف ، فجعلها نشوى من هذا الثرى المنتشى بما فوقه من مظاهر الجمال الذي خلعه الربيع على الدنيا ، وزاد في هذا الخيال فجعلها تختال في هذه الألوان الجميلة التي تسكسوها ، كما تختال الغادة في ثياب الزينة الزاهية ، أو أن هذا الثرى نشوان بما شرب من ماء أطربه ، فدبت فيه الحياة وانتقلت منه إلى النبات فانتشى كذلك ، وبدت عليه مظاهر الابتهاج . وتشبيه الزهر بالاحداق الناضرة تشبيه دقيق واطيف ، فان النظرات تعبر عن معنى الجمال ، وتبعث في قلوب الناظرين محبة وسجرا ، وكأن هذا الزهر يخاطب من يراه بلغة العيون القوية الجذابة .



## حاجة النص إلى علم بظرفه وإشاراته

على أن من الأدب ما يحتاج في فهمه إلى معرفة قائله وظروفه وبيئته، ليم  
فهمه على حقيقته، وليستطيع الناقد أن يقدره قدره. فاذا قرأ قول الفرزدق:  
لعمري لئن قيّدت نفسي لطالما      سعت وأوضعت<sup>(١)</sup> المطية للجهل  
ثلاثين عاماً ما أرى من عماية<sup>(٢)</sup>      إذا برّقت، إلا أشد لها رحلى  
أتنى أحاديث البعيث ودونه      زروء فشامات العقيق من الرمل<sup>(٣)</sup>  
فقلت: أظن ابن الخبيثة أنى      شغلت عن الرامى السكنانة بالنبل ؟  
فإن يك قيدي كان نذراً نذرته      فما بي عن أحساب قومي من شغل  
فهذه الآيات وحدها، على قوتها، تخفى كثيراً من الظروف التي توقف  
عليها فهم المعنى. وليس الشاعر مطالباً أن يشرح هذه الظروف، ولا أن  
يفسر هذه الملابسات، فذلك من عمل الناقد. ولهذا القيد الذي قيد الفرزدق  
نفسه به قصة. فقد روى أنه كان لا يحفظ القرآن، ولا يعرف القراءة  
والكتابة، وأنه كان حج وعاهد الله بين الباب والمقام ألا يهجو أحداً أبداً،  
وأن يقيد نفسه ولا يفك قيده حتى يحفظ القرآن، وأسرف جرير في هجاء  
نساء بني مجاشع، فأتى الفرزدق وقلن له: قبح الله قيديك! فقد هتك جرير  
عورات نسائك، فقال هذه القصيدة. وفيها الإشارة إلى قصة القيد. أما  
إشارته إلى ضلاله وجهالته، فذلك أنه كان معروفاً، بالفسق وكان جرير يهجو  
بذلك (ويقال إنه تاب في آخر عمره) وله أبيات يذكر فيها أنه كان مع  
امرأتين في المدينة في بيتهما ثم أنزلناه من ثمانين قامة، وأنهما خافتا عندما  
استوت رجلاه في الأرض فأمرهما أن يرفعا الحبال التي نزل بها من عندهما.  
وقال:

هما دلتاني من ثمانين قامة      كما انقض باز أقيم الريش كاسره

(١) أوضع المطية للجهل: أسرها وحملها إليه. (٢) العماية: الجبال

(٣) زروء: (ماء لبن مجاشع في طريق الحاج من السكوة) • شامات: آثار تخالف  
لون الأرض.



أما البعيث فهو رجل من مجاشع قبيلة الفرزدق . وكان يهاجى جرير أمعه . وابن الخبيثة هو جرير . وأما قول الفرزدق : شغلت عن الرامى الكنانة بالنبل : فيذكر أبو عبيدة تفسيره في النقاأص (١) . فيقول إن رجلا من فزارة وآخر من بنى أسد التقياء ، وكان مع الفزاري كنانة جديدة ، ومع الأسدي كنانة رثة ، فطمع الأسدي في كنانة صاحبه ، فاحتمل لذلك بأن راهنه على الرمي ، ونصب الأسدي كنانته ، فجعل الفزاري يرميها ويصيبها حتى نفذت أسهمه ، ونصب الفزاري كنانته الجديدة فلم يهتم الأسدي بها ، وسدد سهمه نحو الفزاري فقتله وأخذ الكنانة . هذا ما يذكره أبو عبيدة ، ومراد الفرزدق أنه لم يغفل عن جرير كما غفل الفزاري عن الأسدي الذي كان يرمى الكنانة بالنبل إذ وجه الأسدي إليه سهمها فقتله .

أليس من الواضح إذن أن فهم الأدب يتوقف أحيانا على فهم الظروف والأشارات والمواطن التي ترد فيه ؟ لهذا كانت حاجة الأديب الناقد إلى الثقافة المتنوعة أشد من حاجة غيره ، أما ضرورة اتساع ثقافته الخاصة المتعلقة بالأدب ، والمتصلة به من قريب ، كأساليب اللغة وقواعدها ، وبلاغتها وتاريخها ، والاحاطة بأدبها وفقها ، فذلك أمر مسلم . وأما ثقافته العامة المتصلة ببيئة الأدب ، وتاريخ الأمة ، وطبيعة الاجتماع البشري ، والنظم الاقتصادية والسياسية ، ونشأة العلوم وتطورها ، وتأثير الأمم بعضها في بعض ، وأزمان هذا التأثير ونواحيه ، فيكفي فيها القدر الذي يعين على فهم الأدب ، وأسباب تحوله واتجاهه . كما أنه لا يستغنى عن فهم النفس الإنسانية والامام بالدراسات المتعلقة بها ، لأن أدب الأديب صورة من نفسه ، وقد عنى علماء النفس ، بغرائز الإنسان ونوازعه وطباعه ، وما يؤثر فيها في أحوالها المختلفة ، ووصلوا إلى نتائج قيمة تفيد ناقد الأديب في نقده . وإذا كان من المستحيل أن يحيط إنسان بكل هذه المعارف تفصيلا ، فمن الممكن أن يصل إلى نتائج الأبحاث التي يقوم بها العلماء ، كل في ناحية تخصصه ، ويستفيد من



هذه النتائج في فهم الأدب ونقده ، والوصول إلى أحكام قيمة (١) .

### التحقيق الأدبي :

يقصد بالتحقيق الأدبي البحث وراء الآثار الأدبية ، وللتأكد من صحتها ، ونسبتها إلى قائلها ، وإلى العصور التي قيلت فيها ، ومن أن هؤلاء الأدباء الذين تنسب إليهم قد عاشوا حقاً في العصور التي ينتسبون إليها ، أو أنهم من عمل الخيال والاختراع .

ولهذا التحقيق قيمته ؛ فهو يعيننا على الوصول إلى النص الصحيح ، فيكون تقديرنا له تقديراً صحيحاً . فإذا روى نص بروايتين مختلفتين إحداهما أدق من الأخرى وكانت هذه أضعف من الناحية الأدبية وصلنا عن طريقها إلى الحكم بضعف النص وعيب قائله ، وإن كان الثاني الثاني أجمل ، لأن الغرض هو الوصول إلى الحق . كي نقدر الأدباء قدرهم ، كل بحسب إجادته .

وقد تروى القطعة الأدبية منسوبة إلى قائلين ، وليس من المعقول أن تكون من عملهما معاً ، فقد روى أن الآيات الآتية من قول عمران بن حطان من شعراء الخوارج في العصر الأموي (٢) ونسبت كذلك إلى السيد الحيري من العصر العباسي الأول وهي :

أيها المادحُ العبادَ ليُعطَى    إن الله ما بأيدي العباد  
فاسأل الله ما طلبت إليهم    وارجُ نفع المنزّل العواد  
لا تقل للجواد ما ليس فيه    وتسمّي البخيل باسم الجواد  
ويقال إن عمران بن حطان مر بالفرزدق وهو ينشد ، وكان يتهمه أنه يقول للاستجداء فيكذب ، فقال فيه هذه الآيات . وقد نسبت هذه

(١) (في الادب الجاهلي) للدكتور طه حسين بك بحث اوسم في حاجة الناقد الى هذه الثقافة الخاصة والعامّة .

(٢) أغاني ج ٧ ص ٥ طبعة الساسي



الأيام أيضاً للسيد الحيرى ، وقد وقف على بشار وهو ينشد الشعر . أنا  
أنا فأرجح نسبتها إلى عمران بن حطان الخارجي ؛ لأنها بخلائق الخوارج  
وصفاتهم أشبه . لكن التحقيق يقتضى زيادة على هذا ، معرفة الرواة الذين  
نسبوا إليها إلى كل منها ، والبحث فى أمانة كل منهم وحفظه ، وفى مذهبه . أهو  
من الخوارج أم من الشيعة أم محايد ؛ فإن ذلك يرجح النسبة بعض الشيء  
ويرجحها كذلك شبه النص بقائله ، وأخلاقه ، وأسلوبه ، وخياله ، ومعانيه ،  
وغير ذلك من خصائصه .

### شبه النص بعصره وبيئته

وقد ينسب أدب إلى بيئات أو عصور ، فإن كان شيئاً بها سلمنا بنسبته  
وإن خالفها دعا ذلك إلى الشك فى نسبته ونفيناها عن العصر أو البيئة التى  
ينسب إليها ، وإن بقيت له قيمته الأدبية ، لكنه لا يعتد به فى الحديث  
عن أدب ذلك العصر أو تلك البيئة ، فلو أن قصيدة فيها وصف الأهرام  
نسبت إلى عصر بنى أمية لوقفنا منها موقف الشك ، إذ لم نسمع بذكر  
للأهرام فى الشعر إلى من عهد المتنبي ، فإذا نسبت هذه القصيدة إلى جرير  
زاد ذلك من الطعن فيها ؛ فلم يثبت أن جريراً قدم مصر . وليست الأهرام  
مما عرفه جرير فى الشام أو العراق أو الحجاز .

### اعتماد التحقيق على الناحية الشكلية :

وقد ننصرف فى التحقيق الأدب عن ذلك كله ، إلى الناحية الشكلية ، فلو  
أن بيتاً من المستطيل<sup>(١)</sup> الذى نشأ فى العصر العباسى أو موشحاً من  
الموشحات<sup>(٢)</sup> التى ظهرت فى الأندلس ، أو فى العراق - على يد ابن المعتز -

(١) بحر مولى عباسى : وهو مقلوب الطويل ، وزنه مفاعيلن فعولان : أربع مرات

ومثاله : لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أجور أدير الصدى منه على مسك وعنبر

(٢) نوع من الشعر له طريقة خاصة فى وزنه وقوافيه ، ويوضعه قول ابن المعتز الذى يقال

إنه هو أول من اخترعه ؛



كما يقال - ونسب هذا البيت أو الموشح إلى جرير أو جميل أو غيرهما من شعراء العصر الأموي، طعن ذلك في صحة نسبته، إلا إذا قامت الأدلة الأخرى القوية على عكس ذلك، وأثبت بحث آخر أن هذا البحر أو هذا الموشح قد عرف من عهد بني أمية.

وقد نبهت في الألفاظ والتراكيب - ونحن نعرف تاريخ ظهور عدد منها في اللغة العربية - فإذا كانت هذه في شعر منسوب إلى عصر لم تعرف فيه هذه الألفاظ أو التراكيب، حملنا ذلك على أن نقف منها موقف الشك ونظنها من عمل الواضعين، كاستعمال الألفاظ الإسلامية بمعانيها المستحدثة في الإسلام، في شعر ينسب إلى الجاهلية مثلا، أو ظهور شعر فيه تراكيب من هذا النوع الذي عرف في العصر العباسي يحمل طابع الحضارة وأثر العلوم اليونانية، ثم نسبته إلى صدر الإسلام مثلا.

ووسائل تحقيق هذه النصوص قد تحتاج إلى عمل أكثر مما قدمت الإشارة إليه، وبخاصة في العصور التي كان الأدب ينقل فيها رواية وحفظا. أما عصور التدوين التي سجل فيها الأدب في كتب أو دواوين مخطوطة أو مطبوعة، فقد يختلف أمر تحقيقها عما سبق كأن نقارن النسخ المطبوعة والمخطوطة ونحكم الذوق والعقل إذا اختلفت. ولا شك في أن الدقة في

أيها الساق إليك المشتى قد دعوناك وإن لم تسم

ونديم همت في غرتيه

وبشرب الراح من راحتيه

كلما استبغظ من سكرته

جذب الزرق إليه واتسكا وسقاني أرباب في أربع

ما لم يني عشت بالنظر

أن كرت بعدك ضوء الفم

وإذا ما شئت فاسمع خبري

عشت هيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعض ممي



الأدب المسطور أوفر منها في الأدب الذي تناقلته الحواظ أزماناً فنسبت بعضه أو حرفت فيه ، أو قدمت وأخرت ، أو زادت ، أو نسبته إلى غير قائله .

وقد عني كثير من الرواة والمؤلفين في الأدب العربي بتحقيق هذه النصوص . كما عنيوا بتحقيق الأخبار ، فخدموا العلم بذلك خدمة عظيمة ، ومهدوا الطريق لمن بعدهم من المحققين كي يتموا ما بدأه هؤلاء ، وما زال هذا التحقيق قائماً إلى الآن .

وقد يتجاوز التحقيق الأدب ، إلى الأخبار أو الحكايات التي تتعلق بهذا الأدب لتفسيره أو بيان ظروفه ، وهذه جديرة أيضاً بالتأكد من صحتها إذ أنها تلقى ضوءاً على الأدب قد يحتاج إليه الأديب الناقد بعد ذلك . وقد يكون من الخير أن نتحقق من وجود الأدباء أيضاً ، ونستوثق من أنهم كانوا أشخاصاً عاشوا في أزمان خاصة ، وبيئات خاصة ، أو أنهم لم يعيشوا أصلاً ، ولم يكن لهم وجود . ومن هذه الشخصيات الأدبية بعض العشاق في العصر الأموي كشخصية مجنون ليلى ، فقد دار حولها أخبار كثيرة في الأغاني ، بعضها ثبت وجوده وبعضها ينكره ، وبعضها يسميه البحري بن الجعد ، وبعضها يسميه الأقرع بن معاذ ، وبعضها يسميه مهدي بن الملوح ، وبعضها يقول إن الشعر المنسوب إليه كله مولد عليه ، أو منسوب إلى آخرين ، أو بعضه من عمل الوضاع ، أو مروى لغيره من الشعراء . وأخباره قد اضطرب فيها الرواة واختلفوا ، كما اضطربوا في اسمه وفي جنونه واختلفوا ،

يقف المحققون أمام هذا التناقض فيحكمون العقل ، ويستعينون على ذلك باختلاف الروايات ، ويجرحون بعضها ويعدلون البعض الآخر ، ويخلصون من ذلك بنتائج قيمته (١) ، وقد يقارنون أخباره بأخبار غيره ، كقيس بن ذريح ، وكثير عزة ، وجميل بن معمر ، ولكنهم إن



استطاعوا أن ينكروا وجود هؤلاء الشعراء العشاق ، فلن يستطيعوا أن ينكروا رقة الشعر الذى نسب اليهم ، ولا جمال القصص الذى يدور حول أكثرهم ، مما كان مادة دسمة للمؤلفين المسرحيين والروائيين بعدهم ، وبخاصة فى هذا العصر الحديث . ولا يستطيعون أن ينكروا أن الذين اخترعوا هذه الشخصيات العاشقة أو وضعوا هذه الأشعار ، أو تخيلوا هذا القصص ، كانوا على علم واسع بالبيئة البدوية فى الخجاز ، وعلى علم واسع بعادات القبائل وأحوالها الاجتماعية ، فحاولوا أن يكون شعرهم وقصصهم وأخبارهم صورة صادقة أو قريبة من الصدق . ولا حرج على مؤرخى الأدب وناقديه إذا اعتبروه مثالا للعصور التى نسب إليها ، مع شئ من التحفظ والاحتياط . ولم يقتصر اختراع الأشعار والقصص والأخبار ونسبتها إلى هؤلاء العشاق ، ولا إلى العصر الجاهلى أو صدر الاسلام ولا إلى العرب وخدمهم ولم تكن غاية هؤلاء المخترعين أن يتكسبوا دائما ، ولا أن يرضوا بعض الطوائف ولا أن يخدموا العلم ، وإنما كانت لهم هذه الأغراض وأغراض أخرى . وبعضهم قد اعترف بما وضعه من أخبار وأشعار ، كخلف الأحمر ، الذى قبل إنه نسك فى آخر أيامه ، وأنبا أهل الكوفة بما صنع فأبوا تصديقه ، وقيل فى حماد إنه أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، وكان غير موثوق به ، ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الأشعار (٢) .

وإذا كان بعض هؤلاء الرواة الوضاعين قد اعترف بما دسه على أولئك الشعراء القدماء ، فقد بقى كثير منه لم يعلن عنه واضعوه ، ولم يكشف عنه التحقيق الأدبى بالرغم مما بذله المحققون قديما وحديثا .

### الجمع بين النقد والتحقيق

وإنه لمن الصعب على شخص واحد أن يكون محققا للأدب ، يعنى بالنصوص والأخبار التى تتعلق بها ، ويميز الصحيح من الزائف بكل الوسائل



اللازمة للتحقيق ، وأن يكون مع ذلك أديباً ناقداً ، يبين خصائص النصوص وقيمتها الأدبية ، وصلتها بنفس صاحبها ، ويستقرى أدب الأديب أو العصر أو المدرسة الأدبية ليتعرف مزاياها ، وغير ذلك مما يجب على الناقد الأدبي أن يقوم به ، فلا أقل من أن يستعين كل منهما بصاحبه وأن يحيط بمناهجه لشدة الاتصال بين عملهما وحاجة كل منهما إلى طرق الدراسة التي يتبعها الآخر وكثيراً ما يمتزج النقد بالتحقيق ، كأن يطعن الناقد في بعض ألفاظ النص لأنها ليست من العصر الذي روى فيه الشعر ، أو يأخذ على النص بعض المعاني التي جاءت بعد زمانه وهكذا .

إذا فرغ الناقد من النص الجزئي ، وجد أمامه طرقاً لمواصلة الدراسة متعددة ، يتخير واحدة منها ليلم عمله ، فاما أن يعنى بالآثار الأدبية التي قيلت في موضوع واحد أو التي يشملها فن واحد ، ودرس الأدب عندئذ على أنه فنون ، فيسأيرها منذ نشأتها ، ويعنى بآثار العصور والبيئات في تطورها وتنوعها . وإما أن يعنى بآثار أديب واحد ، فيدرس صفات أدبه ، ويبحث عن مزاياه الفنية ، واتجاه عبقريته كما يصورها أدبه ، وإما أن يعنى بعصر من العصور الأدبية ، فيدرس كتابه وشعره ، وما جد فيه من علوم وفنون ، وما أثر في أدبه ورجاله من مؤثرات ، ولكل من هؤلاء الباحثين وجهة ، ولكل من طرق البحث هذه اسم خاص بها ، ولكل منها مزاياها وعيوبها أيضاً . على أننا نود قبل أن تنتقل إلى بيان هذه الطرق أن نشير إلى اعتمادها جميعاً على المقارنات الأدبية اعتماداً كبيراً . وأول هذه الطرق التي أشرنا إليها هي .

#### ١ - دراسة الفنون الأدبية :

قد نعنى بدراسة فن من فنون الأدب في نثره وشعره ، أو في واحد منهما ، كأن ندرس الخطابة العربية في أزمنها المختلفة ، من عهد الجاهلية ،



ونسارها في صدر الاسلام والعهد الاموى ، ونرى ازدهارها فيه وفي العصر العباسى الاول ، ونشهد ضعفها في أواخر القرن الثالث المجرى ونومها حتى تفنق قليلا من سباتها في عهد الحروب الصليبية ، وتعود إلى رقدتها مرة أخرى ، حتى تستيقظ في العصر الحديث نشيطة قوية ، تغذيها الثورات الحديثة في عهد «عرائى» في مصر مثلا ، وتجد من عوامل البعث الحديث في هذا العصر ما يصل بها إلى درجة عظيمة من القوة والتطور ، وتنوع الموضوعات بتنوع الأغراض التي تستدعيها ، فنرى من هذه الدراسة أنها كانت في عصر الجاهلية ضرورة من ضرورات الحياة في أمة بدوية تمتعت بالحرية ، فأعربت عن آرائها بصراحة وقوة ، من غير أن تخشى بطش حاكم مستبد ، ولم تستطع أن تستغنى عنها بصحف أو منشورات ، تنقل آراءها إلى من تريد .

فلما جاء الاسلام كانت الحاجة إليها أقوى وأشد ، لعدم كفاية الشعر أو غنائه في القيام بأغراض الدعوة السكرية ، التي تنوعت وزادت زيادة عظيمة ، ولعدم شيوع الكتابة شيوعا يقلل من شأن الخطابة ، ثم نراها قد أصبحت فرضاً في بعض العبادات والشعائر كالجمعة والعيدين والحج . وزاها قد خضعت في مظاهرها وفي صفاتها للدين السكريم ، كما خضعت كذلك في أسلوبها ومنطقها له أيضا .

ثم استمرت في قوتها أيام بنى أمية وبنى العباس إلى أواخر القرن الثالث لم يغن عنها الشعر ولم تخملها الكتابة لاسباب تذكر بالتفصيل في تاريخها في ذلك الزمن .

فلما ضعفت اللسنة ، وقلت مقدرة القائمين بها بحكم مناصبهم ، واستعجم اللسان ، وشاعت الكتابة ، وأغنت المنشورات والرسائل والكتب ، تأخرت الخطابة ومنيت بشيء كثير من الضعف قضى عليها ، اللهم إلا في زما قصيرا في أيام الصليبيين ، وإن ظلت في كل ذلك رسما من رسوم الدين ، يقوم ببعضها خطباء المساجد تقليدا وتكلفا .



ولما نهضت البلاد العربية في العصور الحديثة نهضاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ، تهيأت الدواعي للخطابة ، ومرت الالسنه عليها ، واستعانت بها في الدعوة للإصلاح الاجتماعي ، والرقى السياسي والدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات ، في دور القضاء والمجالس النيابية والنوادي الثقافية والسياسية ، وبلغت في عصرنا هذا منزلة سامية .

إذا عيننا بالخطابة على هذا النحو أدركنا صورة صادقة لتطورها في الأدب العربي، وكانت دراستنا لها دراسة متصلة ، تمتاز بعرض الفن الواحد كله جملة وتفصيلا ، مع بيان أحوالها في مختلف عصورها ، وما كان لهذه العصور وظروفها من أثر في قوتها أو ضعفها . مع ما نضيفه إليها من دراسة متعلقة بالأسباب العامة ، التي تجعل للخطابة قيمة أدبية مستقلة ، كأن نبين امتيازها على الشعر بتحررها من قيوده ، وملاءمتها لظروف لا ينفع فيها الشعر ، ولا تغني الكتابة ، واتساعها لأغراض ومواقف ليست من طبيعتهما ، ثم اعتمادها في نجاحها على صوت قائلها وهيئته ، وإدراكه لنفسيات الجماهير الذين يخاطبهم بما يصلح لهم ، ويحملهم على أن يروا رأيه وأن يطيعوا قوله وحاجته إلى حضور البديهة ، ووفرة الأساليب ، وقوة الاستشهاد وهكذا . . .

وقد تتبع مثل هذه الطريقة في كتابة الرسائل أو في بعض فنون الشعر كالملاح أو الغزل أو شعر الخمر ، أو في تطور المسرحيات أو القصة من القديم إلى الآن .

غير أن هذه الطريقة تفصل الفن الأدبي عن غيره من الفنون التي نشأت معه في عصره ، والتي تأثرت بالمؤثرات العامة في الأدب حينئذ ، ويضطر مؤرخو الأدب ، على هذه الطريقة ، إلى تكرار هذه المؤثرات في كل فن يؤرخونه .

على أن الدراسة قد تسير من النص الواحد إلى غيره من النصوص



والآثار الأدبية التي تنسب إلى أديب واحد . وقد تسمى هذه الطريقة :

(٢) طريقة التراجم :

ونحن نسميها كذلك تجوزاً . فإننا نبدأ هنا من الآثار الأدبية للأديب ، ونعرف من المقارنات والنقد مميزات هذه الآثار ، ونحكم منها أحكاماً عامة على هذا الأديب ، ونصل إلى كثير من الحقائق المتصلة بشخصيته الأدبية ، ونلح في أدبه شخصيته الحقيقية ، ومذاهبه في الأدب ، وفي الحياة ، ونذكر ما مر به من تطورات في أدبه ، جعلته يختلف في بعض أحواله عن البعض الآخر كأن نتبين من دراستنا لابن قيس الرقيات أنه كان شاعراً يمدح آل الزبير لأنهم يمثلون سيادة قريش ، ثم يميل عنهم ، عندما أدبرت أيامهم وخشى على حياته فيتصل بعبد الملك ويمدحه ويمدح بني أمية . وكان نذكر من شعر الفرزدق روح الفخر التي غلبت على شعره من أوله إلى آخره ، كما نتبين في بعض قصائده شيئاً من مذهبه السياسي في التشيع لآل البيت ، ونقف على شيء من أخلاقه التي منها الفسق عن أمر الله ، حتى نفى من المدينة وحبس بسبب ذلك . ونعرف من أشعاره كذلك أنه كان لا يحفظ القرآن ثم قيد نفسه ليحفظه .

ونستطيع أن نتبين في شعره أنه كان راوية عالماً بالأخبار والأنساب وماثر الجاهلية ، كما في نقائضه مع جرير . وأنه كان قوى العبارة ، يؤثر الألفاظ الفخمة والتراكيب القوية ، وأنه كان يجارى أسلوب أهل الجاهلية في شعرهم ، ويكثر من الغريب في قوله ، ولا يبالى بالخروج على قواعد اللغة المألوفة ، سواء أَرْضَى رجال النحو أم أبوا ، وأنه كان يضطرب في نظمهِ أحياناً فيأتى بالمعقد المتداخل الذي يحتاج في فهمه إلى كثير من الصبر والعناء . ولكن هذه الطريقة في دراسة التراجم ، التي هي بالطريقة النقدية أشبه ، طريقة فيها كثير من النقص لأنها قد تؤدي إلى أحكام عن الأديب غير صحيحة ، فأدبه قد يكون نتيجة انفعال مؤقت . أو خيال كاذب . وليس أدب الأديب شيئاً مستقلاً عن تاريخه . لهذا وجب أن تكون دراسة التراجم



شاملة لأخبار الأدباء وأنسابهم ، وحالاتهم الخاصة والعامة ، وما كانوا عليه من فقر أو غنى ، ومن صحة أو مرض ، ومن جبن أو شجاعة ، ومن اضطراب أو هدوء في حياتهم بسبب صلاتهم بالناس ، ومخالفة مذاهبهم لما ألفوه أو موافقتهم لذلك ، وكيف كانت حياتهم في منازلهم ، وعلاقاتهم بالأسر والأعيان والحكام ، فان لذلك ولغيره تأثيراً في أدبهم .

ثم إن ثقافة الأديب وبيئته ودينه ذات أثر لا ينكر ، كما أن لأخلاقه ومزاجه وعصره ، توجيهها كبيراً له كذلك .

والإحاطة بذلك كله نافعة للأديب الناقد في أن يعطينا صورة صادقة لما يدرسه من التراجم والسير ، فإذا عرفنا أن الفرزدق قد نسك في آخر أيامه ، فكف عن قذف المحصنات ، فكان من ذلك شعره الذى يقول فيه .

أخاف وراء القبر إن لم يعافنى      أشد من القبر التهاباً وأضيقاً  
إذا جاءني يوم القيامة قائد      عنيف وسواق يسوق الفرزدقا  
لقد خاب من أولاد آدم من مشى      إلى النار مغلول القلادة موثقاً  
فهنا هذه الروح الجديدة في شعره .

ولو قرأنا ديوان جرير وجئنا إلى قوله (١) .

لعمري لقد أشجى تميها وهدها      على نكبات الدهر موت الفرزدق  
عشية راحوا للفراق بنعشه      إلى جدث في هوة الأرض معمق  
لقد غادروا في اللحد من كان ينتمى

إلى كل نجم في السماء محلق

لوقفنا موقف الشك من نسبة هذه الآيات إليه ، بعد أن عرفنا ما كان بينه وبين الفرزدق من اتصال الهجاء دهرًا طويلاً ، وقد نسبها الأغانى إلى شاعر يقال له أبو ليلى المجاشعي . وربما كانت هذه النسبة قوية ، لأن الفرزدق



من مجاشع أيضا . ولكن الأغاني لا يقتصر على ذلك بل يروى أن جريراً  
رثى الفرزدق ، ويروى في ذلك أن جريراً سمع بموت الفرزدق وهو بداره في  
في حجر ، وقيل في مجلس المهاجر بن عبد الله الكلبي باليمامة فقال :

مات الفرزدق بعد ما جدّ عتّه ليت الفرزدق كان عاش طويلاً  
فلما سمعه المهاجر قال له « بنس - لعمر الله - ما قلت في ابن عمك ،  
أتهجو ميتاً ؟ أما والله لو رثيته لكنت أكرم العرب وأشعرهم » فقال جرير  
إن رأى الأمير أن يكتمها على فإنها سوءة ! ثم أنشد .

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تعلت (١)  
هو الوافد المبهمون والرائق الثأى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت (٢)  
ثم بكى وقال : « أما والله أنى لأعلم أن قليل البقاء بعده ، ولقد كان  
نجماً واحداً ، وكل واحد منا مشغول بصاحبه ، وقلها مات ضد أو صديق  
إلا تبعه صاحبه » . ومات بعده بقليل . فاذا أضفت إلى ذلك أن جريراً كان  
يرثى نفسه في هذا الشعر قبل موتها ، وأن هذا الخبر المتعدد الروايات يتفق في  
جملته على أن جريراً رثى الفرزدق تبين أنه صحيح لا شك فيه . ولكنك  
ترجح هذا إذا عرفت أنه قالها عند اقتراب أجله ، فكأنه كان يرثى نفسه  
كما تقدم .

ونحن نعلم من التاريخ ، لامن الأدب ، أن اتجاه جرير والفرزدق والاختلاف  
إلى الهجاء لم يكن لدافع شخصي في جملته ، ولكن سيامة بنى أمية التي كانت  
تغري الشعراء بعضهم ببعض ، وتتجاوز عما في شعرهم من قذف وفحش ،  
هي السبب في تطاول الهجاء بينهم أعواماً .

ومن الحق أن دراسة تاريخ الأدب تلقى على أدبه ضوءاً قوياً يفسره  
ويبين قيمته ؛ إذ أن للأدب بواعث خارجية لا بد من معرفتها قبل  
دراسته .

(١) تعلت : تعلت المرأة تتعلّى برئت من سقم أو نفاس .

(٢) الثأى : آثار الجرح .



لكن في هذه الدراسة المعنية بآثار الأديب بعض الخطر . فالاقتصار على أدبه وحده ، ومحاولة فهمه فهما صحيحاً محاولة عابثة ، كما أن الاعتماد على تاريخه وإرجاع أدبه إليه ، والحكم على هذا الأدب في ضوء هذا التاريخ الخاص وحده ، حكم غير سليم تماماً . وسبب ذلك في الحالة الأولى أن من الأدباء من تتنير نفسه عند القول ، فيصدر عنها أدب يخالف ما عرفه من صفاتها في الحياة العامة . ومن هؤلاء كثير من شعراء الفخر الكاذب ، الذين يفخرون بالشجاعة ولا حظ لهم منها ، وبالكرم وأيديهم مغولة ، وبطيب العنصر وهم من الدهماء ، وبالورع والتقوى وهم مجاهرون بالمعاصي وهكذا . فهم إما أن يكونوا كاذبين يريدون أن ينسبوا إلى أنفسهم ما ليس من صفاتها ، وإما أن تكون هذه رغبات مكبوتة ، وأن نفوس هؤلاء الأدباء تود في خلوتها أن تفصح عما تتمنى أن يكون عليه صاحبها ، وحالت الظروف دونه ، وقد يكون للوضوح ذاته حكم على الأديب ، كشعر المناسبات أو مقالات المجاملة . وخوف العامة يؤثر في الأدب فلا يكون صورة من نفس قائله على حقيقتها ، فالذي يقول في مدح الرسول ﷺ وهو رقيق الإيمان قد يتكلف ، والذي يقول في الدفاع عن حزب أو مذهب وهو مقيد بنظام الحزبية قد يدافع عن غير إيمان بما يقول ، والذي يدعى لتكريم أو لرثاء عظيم في حفل عام ، قد يقول مجاملة قولاً لا يؤمن به .

فاذا درسنا جريراً من أدبه وجدنا نخره بآبائه يزيد على آبائه ، وإذا درسنا غزله وجدنا رقة ووجدنا ولوعة ، ولكنها لا تلائم ما عرف عن جرير في تاريخه ، فنحن لم نعرف عنه أنه كان محبا عاشقا ، ونحاول تعليل ذلك بأن هذا الغزل كغزل ابن أبي ربيعة ، أثر من آثار الشباب أو ذكراه أو بعض أمانى النفس ، وأن جريراً كان يتخيل هذا الحب فيجيد فيه هذه الأشعار ، وليس شيء كهذا غريباً في الأدب ، فإن لخيال الأدباء في الروايات والمسرحيات والشعر الغنائى أثراً أقوى من أثر الحقيقة ، وهم يستمدون



منه كثيرا من رسم الشخصيات وتصوير العواطف والمواقف والطباع ، وهو مظهر عبقريتهم وفنهم .

والعكس صحيح ؛ ففي تاريخ الفرزدق أنه كان جبانا ، وأنه كان قبيح الشكل فأين ذلك في شعره ؟ وجريز كان وضعيف الألب ، ويروى أن رجلا جاءه يوما فسأله : من أشعر الناس ؟ قال : « قم حتى أعرفك الجواب » . فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية ؛ وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها ، وجعل يمص ضرعها ، فصاح به : اخرج يا أبت ، فخرج شيخ دميم رث الهيئة ، وقد سال ابن العنز على لحيته ، فقال : أترى هذا ؟ قال نعم ، قال أو تعرفه ؟ قال لا ، قال : هذا أبى ، وإنه كان يشرب لبن العنز مخافة أن يسمع أحد صوت الحلب فيطلب منه لبنا . ثم قال : أشعر الناس من فخر بهذا الألب ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم . فأين أثر هذا الألب في جريز ؟ .

إذا كانت هذه القصة صحيحة فتدل على أن تاريخ الأديب ونسبه وأحواله قد لا تكون كل شيء في أدبه . فان جريز كان يفخر بأبيه ويتجاوز أباه هذا - في الفخر - إلى أجداده وعشيرته فيقول :

ألم تر أن مجد بني تميم      بناه الله يوم بني الجبالا

ويقول :

مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم      يا خزر تغلب من أب كائنا  
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة      لو شئت ساقىكم إلى قطينا

فالواجب يقضى بأن يتعاون تاريخ الأديب مع أدبه ، وينتفع الناقد بذلك فى الربط بينهما ، والاستعانة بهما معاً على تحليل النصوص وتقديرها ، وبيان الباعث على أدبه ومعانيه ومن داخل النفس وخارجها . وبذلك نستطيع أن نصل إلى الرأى الصحيح فى الصلة بين أدب الأديب ونفسه ، ومقدار صدقه فى التعبير عن آرائه ومذاهبه ، وتكلفه فى مجازاة الظروف ، أو إخلاصه لفننه من غير مجازاة لمؤثر خارجى .



وهذه الطريقة التي سميناهم التراجم، لأنها تعنى بكل أديب وحده وتجعل تاريخه وأدبه عماد بحثها ، تصل بنا إلى إحدى طريقتين أخريين في دراسة الأدب : إحداهما دراسة المدارس الأدبية ، والثانية دراسة عصور الأدب .

(٣) المدارس الأدبية :

إذا فرغنا من دراسة أديب وجدنا أنفسنا مضطرين إلى التفكير فيما قرأنا من قبل ، وفيمن درسنا من رجالات الأدب ، وأدركنا أن هناك تشابهاً بين أديب وآخر في شيء ما ، قد يصل في قوته إلى وضعهما في باب واحد يتشابهان فيه ويشبهان غيرهما . وقد نسمى ذلك كله مدرسة أدبية ، تبدأ بدءاً تاريخياً بأقدم هؤلاء الأدباء . ثم تنتقل إلى البحث في خصائص هذه المدرسة ، ومقدار التشابه بين أفرادها وتأثر اللاحق من رجالها بالسابق ، والاسباب التي وجهت أولئك الأدباء وجهة خاصة ، كالمدرسة البديعية في الشعر العربي التي بدأت بدءاً عملياً ببشار ، وسميت كذلك لعنايتها بالبديع والحرص عليه . وكانت في أول أمرها تجيء منه بالمستحسن العذب ، ثم أدركها التكلف فيما بعد ، ففسد الشعر في أواخرها . ولعلك لا تخرج واحداً من شعراء العصر العباسي الأول من هذه المدرسة . غير أن هناك من غلب عليهم هذا البديع كسلم بن الوليد وأبي تمام والبحثري وابن المعتز ، فجعلوا من مدرسة واحدة هي التي أشرنا إليها .

وإذا كان من مظاهر هذه المدرسة وجود المحسنات واضحة في أدبها ، فإن سبب ذلك التحسين يحتاج إلى بحث شيء آخر بجانب الأدب ، هو الخضارة وأثرها في الزينة وحسن المظهر ، حتى في الكلام . وقد تصل العناية بهذه الزينة إلى حد التكلف ، فتخرج عن أن تكون جمالا . ويرجع ذلك إلى مدى مبالغة أهل الحضرة في التزين ، وقد يكونون من المهارة بحيث يهذبون الأشياء تهذيباً يسر العين والأذن والقلب ، ولا ينبو عن الذوق ، فيزداد إعجاب الناس به ، كأعجابهم بأى شيء صححت زينته



وتم جماله، ترى ذلك في حديث أهل الحضارة وملابسهم وبيوتهم، كما تراه في أدبهم وفنونهم، فحديث أهل المدن أرق أنغاما، وملابسهم أزهى ألوانا وأكثر تنوعا، وفنونهم أكثر عدداً وتهذيباً. ولو طبقنا ذلك على مدرسة «البديع» في العصر العباسي لوجدنا القول صحيحاً، إذ كان للحضارة أثرها في هذا الأسلوب البديعي، مجارة للحياة العامة التي تأثرت بهذه الحضارة. كما أن تقدم الفرس في ميدان الأدب جعلهم — وهم ذوو حضارة سابقة — يؤثرن هذا الأدب البديعي الذي عرفوه عن لغتهم ذات الحضارة القديمة.

وقد تكون عناية الناقد وهو ينقد الأدب موجهة إلى نوع آخر من خصائص الأدباء كالتجويد في القول والعناية به، والعودة إليه بعد إنشائه لتهدئته وصقله، كمدرسة أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى وابنه كعب وراويته الخطيئة، ويعد منها النابغة الذبياني. وقد يذكر منها في العصر الأموي جميل وكثير، بل قد تتجاوز هذا العصر في الأدب العربي إلى عصر العباسيين، ومن شعرائها فيه مسلم بن الوليد وأبو تمام وابن المعتز ثم المتنبي<sup>(١)</sup> وهي مدرسة لها تلاميذ في العصر الحديث ومنهم حافظ إبراهيم.

وقد نعد في الأدب العربي مدارس أخرى عנית بفن من فنون الأدب واتخذت لها طريقة خاصة مشى فيها أفرادها جميعاً، وهي مدرسة عمر بن أبي ربيعة في الغزل، ومن رجالها العرجي والحارث بن خالد المخزومي، وكان هم هؤلاء وصف النساء والتشبيب بهن، والتعرض لهن في مناسك الحج، ووضع القصص عن لقاءهن والتبع بمجالسهن وغير ذلك، وإن لم يكن قد حدث فعلاً كل ما قالوه.

وتختلف هذه المدرسة عن مدرسة جميل؛ بأن الثانية كانت مدرسة العشق الصادق، والهلوى المبرح، وتعلق القلب بمحجوبة واحدة، تنصرف إليها

(١) هي بالحديث عن هذه المدرسة البيانية الدكتور طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي ص ٢٨٤ وما بعدها طبعة نائلة.



العاطفة كلها ، وتملك القلب من كل نواحيه ، فيصدر القول ممزوجاً بزفرات  
الوجد، وحرارة الشوق ، ولوعة الفراق . واشتهر من قصائدها قصيدة جميل :  
ألا ليت أيام الصفاء جديد      ودهراً تولى يابثين يعود  
وتائية كثير عزة :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا      قلو صيكا ثم ابكيا حيث حلت  
ويائمة مجنون ليلي :

تذكرت ليلي والسنين الخواليا      وأيام لانخشي على اللهو ناهيا  
ونونية عروة بن حزام :

خليلي من عليا هلال بن عامر      بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني  
وعينية قيس بن ذريح التي منها :

أقضى نهاري بالحديث وبأمني      ويجمعني والهـم بالليل جامع

فضلا عما اشتهر لهؤلاء ولغيرهم من المقطوعات الجميلة المؤثرة في وصف  
أحوال العشاق وذكريات العشاق ، وآلام الصبابة ، وغير ذلك . وإن بولغ  
في قصصهم أحيانا .

ومن تلاميذ هذه المدرسة أو تلك عدد كثير جداً من الشعراء في عصور  
الأدب العربي .

#### ٤ - الطريقة التاريخية أو عصور الأدب

١ - نسبة العصر إلى دولة أو أسرة حاكمة .

أما هذه الطريقة فتعني بتقسيم الأدب أقساماً ترتبط بعصور التاريخ ،  
وتنسب كل قسم إلى العصر الذي ظهر فيه ، فتنسب أدباً خاصاً قبل الإسلام  
إلى أهل الجاهلية ، فتسميه أدب الجاهلية ، وتجعل حده الفاصل دعوة محمد  
ابن عبد الله ﷺ إلى الهدى ودين الحق ، ثم تتدرج تدرجاً تاريخياً مع العصور  
فتختتم أدب صدر الإسلام بقيام معاوية ، وأدب بني أمية باستيلاء العباسيين  
على السلطان في الدولة الإسلامية ، وتستمر هكذا حتى تصل في تقسيم  
الأدب إلى النهضة الحديثة .



وهي ترجع في تقسيم الأدب هذه الأقسام الى قيام الدول بالحكم ، وتجمع كل أدباء ذلك العصر في دراسة واحدة ، تخرج منها بصفات عامة ، يتميز بها عصر عن آخر في أدبه وعلومه وحضارته ، كما يتميز عن غيره بقيام أسرة بالحكم يتناوبه أفرادها في الدولة . وتذكر كل ما يتصل بالأدب من المؤثرات فتعنى بالتاريخ السياسى كنظام الحكم الاستبدادى أو الشعبى « الديمقراطية » وتعنى بحروب الدولة الداخلية والخارجية ، وماشاع فيها من مذاهب سياسية أو دينية أو اقتصادية ، وما جد فيها من علوم وفنون اخترعها أبناءها أو نقلوها ، وما كانت عليه من الحضارة والرقى ، وتذكر تأثير ذلك كله في الأدب وتحاول أن ترجعه اليه .

ب - نسبته الى ملك عظيم .

بل ان من الأقسام ما ينسب الى ملك من الملوك ، لا الى دولة ، وذلك لطول أيامه ، أو لوضوح تأثيره في الحياة العامة كعصر بركايز فى اليونان ، وعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا ، والملكة اليزابث وفكتوريا فى انجلترا . ويمكن أن نجد من ذلك عصر الرشيد أو المأمون فى الأدب العربى ، وعصر محمد على أو اسماعيل أو الملك فؤاد أو فاروق فى الأدب الحديث . ولسكننا لم نعن الى الآن بهذا التقسيم فى الأدب العربى .

ج - نسبته الى أديب مشهور .

كما أن من الأدباء من تطغى شهرته على أقرانه فيخملهم ، وينسب اليه العصر كله كعصر شكسبير ، أو ملتون فى الأدب الانجليزى . وقد نجد فى الادب العربى أديبا كهؤلاء أخمل معاصريه وطغت شهرته عليهم كالمتنبى ويمكن أن نعتبره عصرأ وحده ، لسكننا لم نفعل ذلك الى الآن ، ونكتفى بالتاريخ له مع بيان الحالة العامة فى عصره ، ودراسته مع فنونها وأدبها ، كالسكتب التى ظهرت فى تاريخ المتنبى أو فى تاريخ أبى العلاء ، وتجاوزت ميدان الادب العربى ، والعصر الذى ظهر فيه كل منهما ، الى أشياء أخرى



قد لا تكون عربية أصلاً ، مثل تأثير الفلسفة اليونانية وحكمتها ، في المتنبي وأبي العلاء .

د - نسبته إلى حركة تاريخيه كبيرة .

وهناك من الحركات التاريخية ما يكون عاماً شاملاً ، مؤثراً في لغات وآداب متعددة ، مثل عصر النهضة الأوروبية الحديثة التي جاءت في أعقاب القرون الوسطى ، وبدأت في إيطاليا ، وتأخر ظهورها قليلاً أو كثيراً في فرنسا وألمانيا وإنجلترا ، وقد تركت هذه النهضة آثاراً واضحة في الأدب الأوربي بوجه عام من أهمها تقليد اليونان والرومان في أدبهم .

كما أن هناك من الحركات الدينية ، أو المذاهب السياسية والاقتصادية ، ما يغير وجه الحياة في أمة أو أمم ، ويسير الأدب في ركابه مؤيداً أو معارضاً وتظهر آثار تلك الحركات قوية واضحة فيه ، فينسب العصر الأدبي إلى هذه الحركات : فالاسلام وهو دين عام قد أثر في اللغات التي دخل بلادها وكانت له في أدبها آثار غنيمة من أهمها استخدام اللغة العربية وسيلة للتعبير بين الأدباء وغيرهم من أبناء تلك الأمم ، كما ترى عند الشعراء الأعاجم في عصر بني أمية وكثير من مشهورى الأدباء في عصر بني العباس ، وأثر تأثيراً عنيقاً في الأدب العربي ذاته مازال باقياً إلى الآن . ومن أهم آثاره عند ظهوره أن أخرج الشعر عن منزلته ، وقدم النثر ، وعمل على ظهور الكتابة وتقديمها ، فضلاً عن الموضوعات التي أوحى بها إلى الأدباء ، والصبغة التي صاغ بها عقول المفكرين وأساليب المنشئين إلى الآن .

وكان للمسيحية آثار قوية أيضاً في الأدب الغربي وإن لم تمتح لغات تلك البلاد .

### ما يبرر هذا التقسيم التاريخي :

ولا شك أن لهذا التقسيم ما يبرره ، فالتاريخ بأحداثه العظيمة وما فيه من حروب أو سلام ومن اختلاط أمة بأمة ، وقيام دولة على أساس سياسي أو ديني ، يطبع الأدب طبعاً خاصاً متأثراً بهذا التاريخ ، يؤثر في الأدباء



تأثير أعاما فيكون أكثرهم ضرورة للعصر الذي يعيش فيه ، متأثراً به من قريب أو بعيد ، فيسجل أحداثه ويروى تاريخه ، وينشئ أدبه مستمداً معانيه وخياله مما يدور حوله من الحوادث والظروف ، فالأدب الحى القوى يجب أن يكون متأثراً بما يجرى حول الأديب . ثم تبدو صفات الأديب الخاصة من خلال هذه الصفات العامة ، موضحة شخصيته ، مميزة له عن غيره من معاصريه ، فإذا كان أدباء بنى أمية قد تأثروا جميعاً بالتاريخ السياسى فقد بقيت لكل منهم شخصيته التى زأها فى أدبه ، فقد كان أكثرهم يمدح بنى أمية ، ولكن جريراً يخالف الأخطل فى معانيه وفى أسلوبه ، وكان الفرزدق يعنى بنفسه وآبائه ، وبلهوه وعيبه ، وبالدفاع عن نفسه أمام هجمات جرير وهجمات النحويين . وفى شعر كل من هؤلاء الثلاثة الفحول ، الأخطل وجرير والفرزدق ، فخر بأصله . ولكن جريراً فى هجائه للفرزدق يخالف هجاءه للأخطل متخذاً من نصرانية الأخطل ومن شربه الخمر ومن تردده على القساوسة والكهناس ، هو وأمهاته ، وسيلة للهجاء ، ويكثر من المعانى التى يستمدها من ذلك ، كقوله فيه :

قبحَ الإله وجوه تغلبَ إنها هانت على مرأسنا وسبالا (١)  
قبحَ الإله وجوه تغلبَ كلها شبحَ الحجيح (٢) وكبروا إهلالا  
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجرئيل وكذبوا ميكالاً

أما هجاؤه للفرزدق ولغيره فكان من نوع آخر . كان يقول فيه :

ألا قبح الله الفرزدق كلها أهل مصل للصلاة وكبرا  
فلا يقربن المروتين ولا الصفا ولا مسجد الله الحرام المطهرا  
فأنك لو تعطى الفرزدق درهما على دين نصرانية لتنصرا

ولعله يشير بذلك إلى رقة دين الفرزدق ، وإلى حادثته فى المدينة ، التى أشار إليها فى شعره ، فنفاه من أجلها مروان بن الحكم عن المدينة . وكثيراً ما اتخذ من فسق الفرزدق . ومن غدر بنى مجاشع بالزبير بن العوام ، رضى الله عنه

(١) جمع سبلة وهى الشارب . والمراسن الانوف

(٢) رفع الحجاج أيديهم بالدعاء



معاني يقلب فيها شعره ويحيد . فقال فيه . وأشار صراحة إلى حادثته بالمدينة :

يُوصِّلُ حبله إذا جن ليلة      ليرقى إلى جاراته بالسلام  
أتيت حدود الله مذ أنت يافع      وشبت فما ينهك شيب اللهازم <sup>(١)</sup>  
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا      مداخل رجس بالخبيثات عالم  
لقد كان إخراج الفرزدق عنكمو      طهوراً لما بين المصلح وواقم <sup>(٢)</sup>  
تدليت زن من ثماين قامة      وقصرت عن باع العلا والمكارم

ويقول في قوم الفرزدق، وقد نزل بهم الزبير بن العوام بعد وقعة الجمل، ثم غدروا به وقتلوه .

أجيران الزبير غررتموه      كأنكم الدلال والقهود <sup>(٣)</sup>  
ويقول :

فبعداً لقوم أجاروا الزبير      وأما الزبير فلا يبعد

وسكت بنو أمية على هذا الهجاء لأن سياستهم كانت تنفع به ، إذ ينصرف الشعراء إلى ما يذنبهم وينسون بنى أمية . وتثور عصبية قبلية بسبب هذا التهاجي الذي تجاوز الشعراء إلى قبائلهم وقديمها ، في الجاهلية والاسلام ، ولهذا أثره في توجيه الشعراء .

واعل سياسة بنى أمية كانت السبب ، أو من الأسباب القوية ، في ظهور شعر الغزل العابت في مكة والمدينة وكما سيأتى تفصيل ذلك في الكلام على شعر الغزل في الحجاز . كما أن التاريخ في عصر بنى أمية يلقى ضوءاً قوياً على خطبة الحجاج عندما ولى العراق ، وخطبة زياد أيضاً قبله ، وعلى شعر الخوارج في حروبهم مع بنى أمية ، وشعر الهاشمين في تعصبهم لشيعةهم من آل بيت الرسول .

(١) جم لهزمة وهى عظم نائى فى اللحن تحت الاذن .

(٢) حرة بالمدينة تنسب اليها وقعة الحرة بين يزيد والانصار .

(٣) الدلال : القنافة السكبيرة . القهود : صفار الغنم .



فتأثر الأدب بالعصر واضح في كل عصور الأدب وبلاده .

### تأثير الأدب في التاريخ :

وللأدب تأثير في التاريخ . وقد لانستثنى فنا من فنونه . فالخطابة السياسية كثيرا ماثير الجماهير فتغير نفوسهم ، وتدفعهم إلى إثورات تذهب ببعض النظم . والشعر أيضا له مثل هذا التأثير ، كما للصحافة والمسرح تأثيرهما ، وإنا لنذكر من ذلك رسالة عبد الحميد الكاتب التي بعث بها إلى أبي مسلم ، عند انهزام مروان بن محمد ، آخر خلفاء الأمويين ، أمام جيوش العباسيين فقالوا إنه لما كتبها قال لمروان بن محمد عنها : لو قرأها أبو مسلم لأفسدت تدبيره ، فلما وصلت إلى أبي مسلم مزقها قبل أن يقرأها ، خوفا من فعلها ، وقال البيت المشهور :

محا السيف أسطار البلاغة وانقح  
عليك ليوث للغاب من كل جانب  
فقد كان عبد الحميد يعرف أثر الرسالة لو قرأها أبو مسلم ، وخاف أبو مسلم هذا الأثر فزقها قبل أن يقرأها .

والتمهيد للانقلابات كثيرا ما يكون من فعل الأدب في نواحيه المختلفة فيغير وجه التاريخ ، ويهيء للتغيرات السياسية ، وقيام دولة مكان أخرى ، كما كانت كتابات فولتير وجان جاك روسو سببا من الأسباب التي هدمت الملكية في فرنسا ، وهيأت الأذهان للشورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر . وكذلك فعل الأدب واضح في إخماد الفتن وتسكين الثورات ، وبخاصة إذا وصل إلى قلوب الثائرين ولعب بأهوائهم .  
أفيقال بعد هذا إن تقسيم الأدب إلى عصور ودراسته على أساس هذه العصور التاريخية تقسيم معيب ؟

ما يؤخذ على هذا التقسيم التاريخي :

لعل ما يقصده أولئك العائبون هو أن العناية بتاريخ الأدب قد تصرف



الدراس عن الأدب نفسه ، وتحرم الطالب تذوقه ، وتكتفى بالأحكام العامة التي تعرضها عليه ، فتمثل الحالة العامة ، وتتجاهل تنوع الأدب ، بتنوع الأدباء ، وتباعد بينه وبين ما فيه من جمال وقوة وبلاغة ، ولا تعرض صوراً مختلفة من خيال الأدباء ، ومعانيهم وفنونهم فيها متعة وسرور للقارىء .

وإن عصور الأدب تجعل حداً فاصلاً بين أشياء متصلة ، وتفرق فرقا تاريخياً ، لا حقيقياً ، بين حركات ومذاهب متداخلة ، لا تجارى هذه العصور في أوائلها وأواخرها : فإن المقفع يذكر في تاريخ العصر العباسي مع أنه تلميذ عبد الحميد الكاتب الذي يعد في كتاب بنى أمية . وشار بن برد أدرك شعراء العصر الأموي ، وتأثر بهم إلى حد كبير ، لأنه عاصرهم طويلاً ، وقد قال عن نفسه إنه هاجى جريراً فلم يرد عليه ، ولو فعل جرير لكان بشار على الشأن ، كما يحكى بشار نفسه . وشعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام ولم يدخل الإيمان في قلوبهم كان تأثيرهم به قليلاً كالحطيئة ، فالحد الفاصل في تطور الأدب لا يتبع دائماً بدء هذه العصور أو نهايتها ، ولهذا كانت الأحكام الأدبية على العصور أحكاماً عامة ، فيها شيء من التجوز ، وبخاصة عند أوائلها ونهاياتها . لكن بعض الأدباء ، أو بعض نواحي الأدب ، قد تتأثر تأثيراً قوياً ، وتقطع الصلة بين الماضي والحاضر ، فيسكون التقسيم التابع للعصور واضحاً فيها . فمدح بنى أمية قد انتهى بقيام الدولة العباسية . وبعض شعراء الإسلام قد كف عن قول الشعر لما أذهله إعجاز القرآن ، ككبيد بن ربيعه من أصحاب المعلقات في الجاهلية ، حتى أنه لم يرو له إلا بيت واحد في الإسلام . وذلك واضح في الآداب التي تتأثر بالسياسة العامة للدولة ، فتحارب بعضها وتحتضن البعض الآخر مما يخالف مذهبها أو يؤيده . وليس من المعقول أن دولة دكتاتورية تسمح للأدب الديمقراطي أن ينتشر فيها . فقيام هذه الدولة نهاية لذلك الأدب وبدء لأدب جديد يتغنى بحكم الفرد ويشيد بفضله .

غير أن بعض أنواع الأدب لا يتصل بذلك الحكم ، فيستمر في تطوره



الطبيعى من غير أن يتأثر قائراً واضحاً به ، فشعر الغزل لا يتأثر بقيام دولة بنى العباس لأنه لاصلة له بالسياسة ، وإن تأثر فانما يكون تأثره من بعيد كأن يأخذ بعض المعانى التى أدى إليها تطور الحياة بسبب قيام هذه الدولة وعنايتها بترجمة أدب الفرس أو علوم اليونان . وكذلك أدب الوصف فانه لم يتغير جملة فى سنة ١٣٢ هـ عند سقوط بنى أمية ، ولكنه انتقل من وصف البادية بما فيها من نبات وحيوان وعادات وأخلاق ، إلى وصف القصور والأزهار والأخلاق الجديدة ، بفعل التطور الذى أدت إليه الحضارة العباسية .

### ضرورة هذه الطرق :

من هذا يبدو أن دراسة الأدب التى نريدها يجب أن تكون شاملة لكل هذه الطرق ، فندرس الادب نفسه ، وننقده نقداً صحيحاً ، ونستعين فى نقده ، وبيان جوده ورتبه ، بالذوق الادبى المذهب ، وبالعلم بأسرار اللغة التى ظهر فيها ، وبالنفس الانسانية وحالاتها ، وبالظروف التى أنشأ فيها هذا الادب ، وبمقارنة الادباء أو الآداب أو فنونها .

ومن الطبيعى أن يكون فيها تخصص فى نواحى الأدب المختلفة ، فمعنى قوم بتحقيق نصوصه ، ورجاله ، وآخرون ببيان قواعد نقده وتقديره ، وغيرهم بفنونه وتطورها ، وأسباب ذلك . وغيرهم ببيان المدارس الأدبية ، أو الحركات الأدبية التى تظهر فى الأدب متأثرة بعوامل التأثير المختلفة ، ومعنى جماعة بتاريخه فى عصوره المختلفة . وفى هذا التنوع فى الدراسة فائدة للادب ولتاريخه عظيمة ، أما الاختصار على واحدة فتقصير لا يبرره إلا التعصب أو الهوى .

وقد ظهرت فى عصر بنى أمية آثار أدبية تعد من عيون الأدب العربى ، بل إن بعضها ليسمو إلى درجة الآثار العالمية الخالدة فى الأدب . فعلى من يريد أن يستمتع بالأدب أن يقرأها ، وأكبر ظنى أنه سيمكرر قراءتها ويستمتع بها كلما أعاد هذه القراءة ، لأنها من الأدب الخالد .



## في سبيل الملكية الوراثية

### النزاع بين علي ومعاوية

كان بنو أمية من أهل السيادة والشرف في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام تأخر أكثرهم عنه ، وتزعموا المعارضة السياسية والحربية في قريش قبل الهجرة وبعدها . فلما جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، دخل بنو أمية فيما دخل فيه عامة الناس ، وأسلم أبو سفيان بن حرب ولد معاوية في عام الفتح ، وأسلمت زوجته هند أم معاوية في ذلك العام أيضاً ، وأسلم معاوية في ذلك العام ، وعرفوا بفضلهم وبغنائهم في الإسلام كما عرفوا بذلك في الجاهلية . فاستعان بهم أبو بكر رضى الله عنه ، فولى يزيد بن أبى سفيان أحد الجيوش التي خرجت لفتح الشام ، وجعل له ولاية دمشق إذا فتحها ، ولما مات يزيد في طاعون عمواس سنة ١٧ هـ استعمل عمر أخاه معاوية على عمله مضافاً إلى ما كان له من قبل ، وكان عمر يعرف منه حسن السياسة وقوة التدبير والأمانة على صغر سنه .

وجمعت الشام كلها لمعاوية في أيام عثمان ، وكان ولاية أمصارها تحت أمره ، وما زال بها حتى استشهد عثمان رضى الله عنه .

وكان قتل عثمان سبباً في فتنة كبرى بين المسلمين ، فإنه كان رحمه الله باراً بأقاربه فاستطاعوا أن يصلوا إلى إمارة أكثر الولايات والجيوش الإسلامية في أيامه ، مع أنه لم تسكن لأكثرهم سابقة في الإسلام تجعله يتقدم المسلمين . وكان الحكم بن أبى العاص بن أمية كاتباً أو « أمين سر » لعثمان ابن عفان ، فكان هذا وأشياء أخرى سبباً في هذه الثورة التي أدت إلى قتله في داره سنة ٣٥ من الهجرة .



كانت الأمور التي أخذت على عثمان سبباً في تغير كثير من كبار الصحابة عليه ، ومنهم عائشة وطلحة والزبير ، ومنهم على كذلك . وكانوا ينصحون له ، ولكن بني أمية كانوا أقوى سلطاناً ، وكان لعثمان آراء وحجج يدافع بها عن نفسه لم تغن من أمر الله شيئاً ، ولم تقنع أولئك الصحابة ، ولا أولئك الثائرين ، فلما قتل ، وبويع على رضى الله عنه بالخلافة ، بدأ النزاع بينه وبين بني أمية ، وعلى رأسهم معاوية .

لم يبايع معاوية علياً ، واتهمه بالمشاركة في دم عثمان ، وأنه قصر في الدفاع عنه لهُوى في نفسه .

وكان عمل على رضى الله عنه أول ما ولى الخلافة سبباً في زيادة الثورة في نفوس بني أمية ، وعلى رأسهم معاوية ، فقد رأى أن يعزل جميع ولاة عثمان ، وذلك قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار . وقد حذره المغيرة بن شعبة عاقبه ذلك ، وحذره ابن عباس مثل ما حذره المغيرة ، فإن المغيرة قال له :

«إن لك على حق الطاعة والنصيحة ، وإن رأى اليوم تحرز به ما في غد ، وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غد ، أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود . استبدلت أو تركت» . قال : حتى أنظر ، فلما عاد إليه من الغد ، ورآه غير فاعل قال له : «إني أشرت عليك بالأمس برأى ، وأرى اليوم أن تبقى هؤلاء العمال . ثم خرج من عنده ودخل عليه ابن عباس . فقال له : رأيت المغيرة خرج من عندك ففهم جاءك ؟ فأخبره خبره بالأمس واليوم ، ونصيحته فيهما ، فقال له ابن عباس : أما أمس فقد نصحتك ، وأما اليوم فقد غشك . فقال له على ، ولم نصحنى ؟ قال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فنتي تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا . ويؤلبون عليك ، فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق . مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرأ عليك .



فقال علي : أما ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا ، وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان ، فوالله لا أولى أحداً منهم أبداً .

فلما أبى استماع النصيحة أبى ابن عباس أن يقبل ولايته على الشام بدلا من معاوية ، وقال له : معاوية رجل من بني أمية ، وهو ابن عم عثمان ، وعامله على الشام ، ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان ، وإن أدنى ما هو صانع بي أن يحبسني . فقال علي : ولم ؟ قال . لقراءة ما بيني وبينك ... ولكن اكتب إلى معاوية ، ففنه وعده . فأبى سيدنا علي .

ولعل له عذرا في خلع عمال عثمان ، فقد كانت الثورة بسبب هؤلاء العمال ، ولعل هذه الثورة قد منعت القصاص من قتلته عاجلا ، خوفا من أن تشور فتنة أخرى قد تذهب بحياته . وتعم البلاد .

#### مخالفة معاوية

عرف معاوية رأى علي فيه ، فأبى بيعته . واستعان بقرابته من عثمان ، وبكتاب زوجته « نائلة » الذي أرسلته إليه مع النعمان بن بشير تصف له فيه مقتل عثمان وصفا مؤثرا ، رقت فيه وأبلغت ، فإذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه ، وبقميص عثمان الذي قتل فيه مخضبا بالدم ممزقا ، وعقدت شعر لحيته في القميص ، فكان لهذا المنظر المؤثر فعل النار في قلوب أهل الشام ، فإن معاوية ، جمع الناس ، ونشر عليهم القميص ، وصعد المنبر وذكر ما صنعوه بعثمان ، فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم تزهر ، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه ، فأجابوا . وأبقى القميص كذلك زمانا .

#### وقعة الجمل

أما بيعة علي فلم تخضع له الناس ، فقد خرج عليه من بايعوه ، خرج طلحة والزبير وأخرجوا معهما عائشة ، وعدداً من الثائرين لقتل عثمان ، وذهبوا جميعاً إلى البصرة ، وتجمع من الفريقين عدد استعدوا لما تأتى به الظروف ،



ثم خرج على في أعقابهم . والتقى الفريقان ، واقتتلوا في «وقعة الجمل» وهزم أصحاب الجمل ، وقتل طلحة في المعركة ، وقتل الزبير وهو عائد إلى المدينة : علم بمسيره عمرو بن جرموز من مجاشع ، فاتبعه ، حتى إذا كان بوادي السباع غافله وقتله .

ولما انتهت المعركة بانتصار على ، زار عائشة في بيتها الذي نزلت فيه ، وأمر أن تجهز إلى المدينة . ولما جاء يوم رحيلها ودعها ، وخرج معها أميالا ، وسرح بنيه معها يوما . ثم أخذ البيعة على أهل البصرة ، وولى عليها عبد الله بن عباس ، وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبيه (١) .

لما فرغ على من وقعة الجمل خلا لمعاوية ، وانتقل من البصرة إلى السكوفة واتخذها مقراً لخلافته . وبدأت الرسل بينه وبين معاوية يدعوه إلى بيعته ، ولما لم تفلح الرسل اختصم إلى السيف ، واستعان معاوية بدهائه وأعوانه من الدهاة الذين ضمهم إلى جانبه كعمرو بن العاص ، وكان له من جند الشام خير عون على نجاحه في حربه ، فقد عاشروهم زمنا طويلا ، ومملك قلوبهم بحلمه وكرمه .

من هذا الوقت نسمع بأدب أموى قوى، فيه البيان السديد، والأسلوب الفصيح ، والحجة الباهرة ، والاستشهاد بالشعر، وروايته ، والايجاز البليغ ، بدأ على لسان معاوية في خطبه ، وفي رسائله ، إلى على ، وإلى ولاية على في الأمصار، يحاول أن يصرفهم عنه . ونسمع بدهاء معاوية وسياسته وحسن تأتية للأمور ، واتصافه بصفات الخليفة ، أو الملك اللبق ، الذى يحسن سياسة أمة فيضبط أمورها ، ويملك قلوب أكثرها ويرغم الساخطين منها على الرضا والسكوت .

(١) عرف فيما بعد بزياد بن أبى سفيان ، وكان له أثر كبير في سياسة العراق وبيعة يزيد وتحويل الخلافة إلى ملك ، وتمتيت ملك بنى أمية في العراق ، وكان له ذكر في الأدب عظيم ، واشتهرت خطبته البلاء ، وسوف نتحدث عنه فيما بعد .



## أثر النزاع في النشر :

### (١) في الرسائل

في هذه الفترة، فترة النزاع بين علي ومعاوية، ظهر هذا النوع من الأدب الذي أشرت إليه، وهو الرسائل المتبادلة بينهما، فقد أراد علي رضي الله عنه أن يدعو معاوية قبل أن يتقدم لحربه . فكتب إليه كتابا أرسله إليه مع جرير ابن عبد الله البجلي - من بجيلة - وهو :

«سلام عليك، أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام؛ لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بوعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا، وإن خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ما خرج عنه، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ماتولى، وأصله جهنم وساءت مصيرا (١)». وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون. فدخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إلى قبلك العافية. وقد أكرت في قتلة عثمان، فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك، ودخلت فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكت القوم إلى، حملتك وإياهم على كتاب الله. وأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن (٢)، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء (٣) الذين لا تحمل لهم الخلافة، ولا يدخلون في الشورى. وقد بعثت إليك وإلى من قبلك،

(١) مأخوذ من قوله تعالى في سورة النساء : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويقع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا . »

(٢) فهي محاولة منك أن تخدعني . كما يخدع الصبي ، وبخاصة أيام النظام ، لعنني الرضاع وقد يكون ذلك بأصغر الأمور فلا يجوز إلا على الصغير .

(٣) الذين عفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء



جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الايمان والهجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله .

فرد عليه معاوية :

من معاوية بن صخر ، إلى علي بن أبي طالب ، أما بعد ، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولـكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . ولعمري ما حجتك على كحجتك على طلحة والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أباعك . وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق ؛ لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام ، وأما شرفك في الإسلام ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعك من قريش فلست أدفعه .

هذان كتابان يمثلان — على الجملة — أسلوب علي كرم الله وجهه ، ومعاوية رضى الله عنه ، في الخصومة التي كانت بينهما . ونفسية كل منهما ، وأثر الظروف والحوادث في نفسه . أما علي كرم الله وجهه فهو مغضب حائق على هذا المخالف ، تبين هذا الغيظ والانفعال في الخروج شيئاً ما عن موضوع الخصومة أو عن صميمها ، وهو قوله له : « واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة » فإن معاوية لم يكن يطلب الخلافة لنفسه صراحة ، إلى ذلك الحين . ولعل علياً أحس منه بما كان يضمره ، فغاضه أن يكون هذا الذى ليست له سابقة في الإسلام طامعاً فيما ليس له أهلاً . ولعل هذا الغيظ قد عاد إلى نفسه عندما ذكر خروج طلحة والزبير بعد بيعتهما . وذلك واضح من أسلوب القرآن « حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » . فقد نزلت الآية كلها ، والآيات قبلها ، فى المناققين على ما تروى كتب التفسير ، وهذه الآية هى : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » : والاعتباس نفسه يوحى بثورته



النفسية عليهما ، مع التشنى - إن أردت - بما أصابهما .  
وهو يحرم معاوية أن يكون له رأى فى الخلافة بعد أن بايع أهل المدينة  
من المهاجرين والأنصار .

فكان رد معاوية الذى قرأته من قبل ، وهو رد أحسن فيه التلخيص  
مما أراد على أن يلزمه به ، وحمله تبعة قتل عثمان ، وهو بهذا يريد أن يبرىء  
نفسه أمام الناس من خلاف الجماعة ؛ وأنه تخلف لسبب يؤيده الدين ، وهو  
أن الخليفة الجديد متهم فى دم حرمه الله ، إن لم يكن بالفعل فبالإغراء .  
وأنه كان مسئولا عن هذا الدم أو داعيا إلى سفكه : « فأطاعك الجاهل وقوى  
بك الضعيف » . ومن يحسن الظن بمعاوية لا يستطيع أن ينكر اتهامه لعلى  
صراحة بأنه مسئول عن دم عثمان ، وأنه كان يطمع فى الخلافة .  
ثم رد علىبيعة طلحة والزبير ، وطاعة العراق بأن هؤلاء جميعاً قد قبلوا  
إمامته ، أما هو وأهل الشام فهم فى حل من الخروج عليه ، وأنهم فى حل من  
قتاله حتى يدفع إليهم قتلة عثمان ، ثم يترك الأمر شورى بعد ذلك .  
ولعل انتسابه إلى أبيه « صخر » فى أول الرد ، ما يشير من طرف خفى  
إلى صلابته فى موقفه ، وإصراره عليه .

أما ختام الكتاب فهو فى منتهى اللباقة ، كأنه يريد به أن يظهر للناس  
أنه غاضب لله وللدم المسفوك ، وأنه يعرف أقدار الناس لا يدفعها . فهو  
لا يدفع شرف على فى الإسلام ولا قرابته من رسول الله ، ولا موضعه  
من قريش . ولكنه يقدم عليها حقوق الله ، وبهذا يستطيع أن يستهوى  
أنصارا آخرين من جند على .

وإن كتب معاوية وخطبه المتعلقة بالخلاف بينه وبين على تدور كلها  
على هذا النحو : مقارعة للحجة بالحجة ، وسكوت عند ما يتعلق الكلام  
بسابقة أو شرف فى الإسلام ، أو وقوف عند ماله من شرف فى هذه  
الناحية ، كتشريف الرسول لأبيه يوم الفتح بجعل داره كالكنعة من دخلها  
فهو آمن .



وليس من طبيعة هذه الرسائل الصادرة عن معاوية إلا أن تكون كذلك: أهم ما فيها البيان القوي ، المعتمد على العقل والمنطق ، أو مغالطة العقل والمنطق أحياناً ، مع إخفاء هذه المغالطة في ثوب يزينه الأسلوب الفصيح ، والاستشهاد بالشعر ، أو القرآن ، أو ذكر سابق الفضل في الجاهلية ، أو الشرف يوم الفتح في الإسلام . وكثيراً ما كان يسلم لعلي بالفضل وبالشرف ، لأنه يعلم أن ذلك التسليم لا يغني شيئاً عند أهل الشام والعراق ، فهو لن يضر معاوية ، ولن ينفع علياً مادام أهل الشام يقبضون عطاءهم ، ويتمتعون بحلم معاوية .

### (ب) في الخطب

وكذلك الخطب التي اهتزت لها أعواد المنابر في هذا الخلاف بينهما وبين أنصارهما ، كان يتبارى كل فريق منهما في بيان وجه الصواب في الأمر يتشاورون فيه ، أو المسألة تعرض لهم ، أو الحادثه يقدمون عليها أو ينتهون منها ، أو المعركة يحمسون لها أو يفخرون بالانتصار فيها ، أو المصير يمدحون أهله لولائهم أو إخلاصهم أو بلائهم في الحرب ، أو القبيلة يثنون على أبطالها وأفعالها .

وقد يحاول خطباء كل فريق أن يدعوا إلى حزبهم ، ويؤيدوا حقهم ، وينالوا من خصمهم : فيعرض أصحاب علي بخروج معاوية ومن معه عن طاعة الله والخلافة ، وبرغبتهم في الدنيا وحبهم للسلطان . ويذكر أنصار معاوية أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن الثأر من قاتليه واجب ، وأن الخروج لذلك فيه رضا الله ورسوله .

وأكثر ما كانت هذه الخطب في الوفادات التي كانت بين علي ومعاوية ، كل يتخير من أصحابه أفصحهم لساناً ، وأوضحهم حجة ، فإذا تكلم الوفد رد عليهم من كانت عليه الوفادة . ومن ذلك أن سيدنا علياً كرم الله وجهه أوفد إلى سيدنا معاوية وفداً ، بعد أن توادع الفريقان على ترك الحرب في صيفين سنة ٣٧ هـ طمعاً في الصلح ، وكان في وفد علي عدى بن حاتم ، ويزيد



ابن قيس وغيرهما ، فلما دخلوا عليه تقدم عدى للكلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فانا أتيناك لأمر يجمع الله عز وجل به كلمة أمتنا ، ويحقق به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين . وإن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة ، وأحسنها في الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذي رأوا ، فلم أجد غيرك وغير من معك ، فانت يا معاوية ، لا يصبك الله وأصحابك يوم مثل يوم الجمل » .  
فأجابه معاوية :

« كأنما جئت متهدداً ، ولم تأت مصلحاً ! هيهات يا عدى ! كلا والله وإني لابن حرب ، ما يقعقع لي بالشنان <sup>(١)</sup> ، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان رضى الله عنه ، وإنك لمن قتلته ، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به . هيهات يا عدى بن حاتم ! قد حلبت بالساعد الأشد <sup>(٢)</sup> .  
ثم تكلم يزيد بن قيس بالمعنى الذى قاله عدى بن حاتم ، فأجاب معاوية بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

« أما بعد ، فانكم دعوتهم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التى دعوتهم إليها فعننا هى ، وأما الطاعة لصاحبكم فانا لانراها ، إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لانزد ذلك عليه . أرايتم قتلة صاحبنا ؟ أستم تعلون أنهم أصحاب صاحبكم ؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » .  
وظاهر من خطب هذا النزاع ، سواء أكانت عامة أم فى وفادات كهذه ، أنها كانت تدور حول فكرة واحدة عند كل من الفريقين ، وأنها كانت على

(١) الشنان : جمع شن - بفتح الشين ، وهو الخلد اليابس . فاذا ضرب عليه ضارب

نفرت الابل من صوته خائفة : يريد معاوية . إن تهديدك لا يخفى .

(٢) قد بذلت كل جهد فى استنطاق كل ما يمكن للقبلى : كما يهذل الخالب جهده لاستخراج

كل الابن من الضرع .



لسان أعيان الدولة ، وهم أعيان البيان عندئذ ، فكانوا يعرفون الفرق بين خطبة وخطبة ، وبين موقف وموقف ، ولهذا نرى في هذه الخطب بلاغة لا تكلفا ، وطبيعة لازخرفا ، واختيارا للعبارات ، وإيجازاً في القول . ونرى بجانب هذه الخطب خطباً أخرى ؛ قد يعود حديث الفخر فيها إلى ما قبل البعثة . أو تتحدث عن فضل رسول الله ﷺ في الهداية ، وفضل أنى بكر وعمر في نشر الإسلام ، ثم فضل عثمان وسابقتها ، وقتله مظلوماً شهيداً ، وأن معاوية وأهل الشام خرجوا للبطالة بثأره ، وإقامة حد من حدود الله . أما أصحاب على فقد يقفون عند قتل عثمان فيبرءون من دمه وقتلته ، ويتهمون معاوية وأصحابه ، ويعيرونه بما كان من عداوته للدين هو وأبيه وأمه ، إلى آخر ما يعرف من ذلك في تاريخ الإسلام .

ومن الخطب القوية التي نذكرها . خطبة معاوية رضى الله عنه بصفين ، يحرض أهل الشام على أهل العراق ، أو يدفع أصحابه لقتال على كرم الله وجهه . قال معاوية :

« الحمد لله الذى دنا فى علوه ، وعلا فى دنوه ، وظهر وبطن ، وارتفع فوق كل ذى منظر ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، يقضى فيفصل ، ويقدر فيغفر ، ويفعل ما يشاء ، إذا أراد أمراً أمضاه ، وإذا عزم على شيء قضاه ، لا يؤامر <sup>(١)</sup> أحداً فيما يملك ، ولا يسأل عما يفعل . وهم يسألون ، والحمد لله رب العالمين على ما أحببنا وكرهنا . »

وقد كان فيما قضاه الله أن ساقطنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ، ولفت <sup>(٢)</sup> بيننا وبين أهل العراق ، فنحن من الله بمنظر ، وقد قال الله سبحانه وتعالى . « ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد . » انظروا يا أهل الشام ، إنكم غداً تلقون أهل العراق ، فسكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليكم ، فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا ببيضتكم <sup>(٣)</sup> ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتم وحصن نبيكم وإما أن تكونوا قوماً تذبون <sup>(٤)</sup> عن نسائكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله

(١) لا يستشير . (٢) جمعت . (٣) ساحتكم . (٤) تدافعون .



والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولاكم النصر ، وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين .

ولعل في هذه الخطبة ما يجمع كثيراً من أسلوب الخطابة في هذا العهد والذي بعده إلى آخر زمن معاوية ، ففيها البدء التقليدي : الحمد لله والثناء عليه ، وذكره بما هو أهله ، ثم الصلاة على نبيه ﷺ ، ولعل الرواة نسوها في هذه الخطبة ، فلم يكن معاوية بالذي يتجاهلها فضعف حجته أمام خصومه وأمام أنصاره . ثم الاستعانة بالقرآن ، استشهاداً واقتباساً ، واحتجاجاً ، فقد استشهد على أن القتال بين الفريقين بقضاء الله ومشيئته ، بقوله تعالى ( ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ) : واقتبس من القرآن آخر خطبته ، أخذه من قوله تعالى ( ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ) . وألح في طلب الثبات والصبر والشجاعة من أهل الشام ورغبتهم في ذلك بأنه يجب عليهم أن يطلبوا ما عند الله في قتال قوم بغوا عليهم ، والله تعالى يقول ( ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله فعوه غفور ) .

وهي في إيجازها من أقوى الخطب ، فذكر البلدين ، العراق والشام ، فيه إثارة للعصبية بينهما ، والعصبية في ذلك الوقت لها قيمتها ، سواء أكانت للبلد أم للقبيلة ، وقد أثار العاطفة وبث الشجاعة ، في تذكيرهم بأنهم يدافعون عن نساءهم وأبنائهم وأموالهم ، ثم في تذكيرهم بالسبب الأهم ، الذي خرجوا من أجله على سيدنا علي ، وهو المطالبة بدم عثمان ، ولكنه لم يذكره باسمه ، بل ذكره بقرابته من رسول الله ﷺ ، وفي ذلك ما فيه من فعل في نفوس القوم ، يمسها من الناحية الدينية ، ويثيرها للأخذ بثأر هذا الصهر الكريم ، عثمان ذي النورين ، حتى يكاد ينسيهم أنهم يقاتلون صهر رسول الله أيضاً ، وابن عمه ، وأبا الحسنين ، رحمهم الله جميعاً .



ولا نغفل ما غلب على الخطبة من روح التسليم لله ، وأنه قد قضى ولا راد لقضائه ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ، ونفروا بهم بمشيئته ، والنصر من عنده فليسألوه النصر مستعينين عليه بالتقوى ، وأن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق وهو خير الفاتحين .

حقا إن كل جملة من هذه الجمل تحمل من المعاني ما توحى به عشرات غيرها ، فهذا الایجاز البليغ يجعل معاوية في صفوف أكابر الخطباء من رجال السياسة والقواد . ويكفي أن نذكر أنه كان يخاطب عربا مسلمين ، يقدرون ما يقول ، ويفهمون ما يرمى إليه ، وينفرون إلى الموت بمثل هذه الخطبة ، لا يبالون بأرواحهم فداء لهذه الغاية التي نذهبهم لها معاوية . ولا تنس أن يملك قلوبهم بعبائهم ، وأنه حبيب إلى نفوسهم من أيام عمر ، وأن دهاءه في نصب قيص عثمان المخضب بدمه ، والموسوم بشعرات من لحيته تشهد بفضاعة الجريمة . ثم أصابع « نائله » المقطوعة دفاعا عن شيخ كبير كانت تستحي منه ملائكة الرحمن ، كما كان يقال عن عثمان . كل هذا يحقق له ما يرجوه ، من إثارة حماسة جنده ، فاذا بلغ هذه الغاية كان في مقدمة مشاهير الخطباء .

تمثل هذه الخطابة التي أشرنا إليها في النزاع بين علي ومعاوية نستطيع أن نقدر أي بدء كان لعهد بني أمية في الخطابة السياسية بوجه خاص .

### أثر النزاع في الشعر :

أما هذا النزاع في السياسة ، فكان مقدمة كذلك للنزاع الكبير الذي اشتد بين الشعراء في زمن بني أمية لاختلاف مذاهبهم ، وأدى بهم إلى الهجاء المقذع الذي تشهده بين بعضهم وبعض ، وأدى بهم إلى الدخول في سياسة الأمة لتأييد حزب على حزب ، أو لهدم حزب ، أو تجريح جماعة مخالفة ، كشعراء الخلافة ، والخوارج ، والشيعة ، وآل الزبير .

ونود أن نشير هنا إلى أن هذا الشعر الحزبي الذي قوى واشتد في عصر بني أمية ، قد بدأ هنا ، في عهد علي ومعاوية ، وبدأ بين العراق والشام ، فان الشعر ذو منزلة معروفة عند العرب ، وكان لأهل الشام شاعرهم في هذا



الخلاف ، ولأهل العراق شاعرهم فيه أيضاً ، وكانت للشعر مساعدة أو مشاركة في هذا الخلاف ، وإن كانت قليلة ، وكان القديم منه مدداً للخطباء والكتاب من الحزبين . وكفى أن نذكر أثره في ثبات معاوية ليلة الهرير بصفين<sup>(١)</sup> وقد أوشك أن يفِر ، فما منعه من الفرار إلا أبيات ابن الأظنابة :

أبت لي همتي وأبي بلائي وأخذى الحمد بالثن الرّيح  
وإقدامي على المسكروه نفسي وضرب هامة البطل المشيح<sup>(٢)</sup>  
وقولي كلما جشأت وجاشت<sup>(٣)</sup> مكائكك تحمدي أو تستريحي  
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعدد عن عرض صحيح  
فانظر كيف أثر الشعر في نفسه ! وكيف حمّله على الثبات ! ولعله لو فر في تلك الليلة لتغير التاريخ .

وقيل إنه كتب إلى سيدنا علي أبيات كعب بن جعيل من تغلب ، لما دعاه إلى المبايعة : وهذه هي الأبيات :

أرى الشام تذكره ملك العراق وأهل العراق له كارهونا  
وكل لصاحبه مبعوض يرى كل ما كان من ذاك ديننا  
وقالوا على إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا  
فلما قرأ تلك الأبيات دعا شاعر العراق - المسمى النجاشي - أن يجيب ، فقال :

دعن معاوى ما لن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا

(١) ليلة الهرير من الليالي التي دارت فيها معارك شديدة بين جند علي ، وجند معاوية وكان النصر يوشك أن يتم فيها لجند علي بقيادة الاشتر النخعي ، وفي صبح تلك الليلة رفع أصحاب معاوية المصاحف ، ودعوا أهل العراق إلى كتاب الله ، فأنخدع بها بعض أهل العراق ، وأرغموا علياً على إيقاف القتال . وأن يكون أبو موسى الأشعري نائباً عنهم . ثم خرجوا عليه بعد التحكيم فقاتلهم ، ولكنهم استمروا من ذلك المهد يخرجون على الخلفاء ، وسما الخوارج .

(٢) الحذر المانع لما وراء ظهره .

(٣) جشأت وجاشت معناهما واحد . وهو : ثارت من حزن أو فزع .



أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا  
فإن يكره القوم ملك العراق فقدما رضيانا الذي تسكرهونا  
وفي هذا الشعر من المعاني ما تراه في الخطابة التي أشرنا إليها سابقاً ،  
ولا شك أن الشاعر الذي يقحم نفسه في هذا الميدان يخضع للطابع العام  
الذي يطبع حزبه ، وإذا كان كثير من شعر ذلك العصر وخطابته قد ضاع ،  
وبقي أقله ، ففي هذا القليل ما يقنع العقل بأنه كان للتاريخ آثاره العظيمة في  
توجيه الأدب ، والسيطرة عليه إلى مدى بعيد ، كما كان للأدب نواحيه المؤثرة  
في التاريخ ، وذلك واضح من شعر ابن الاطنابة الذي ثبت قدم معاوية لما  
أوشك أن يفر .

ولعل هذه الخصومة بين حزينين قويين قد حملت بعض الشعراء على  
أن يضعوا شعراً لتأييد هذا الجانب أو ذاك ، كما نسي كثير مما قيل في هذا  
الخلاف . وأكثر ما كان شعر الجانب العراقي من صنع الشيعة بعد ،  
أما الوضع المحترفون فكانوا يضعون للجانبين ولكن التحقيق لم يكشف  
عن كل ماصح ، أو كل ماوضع . وإذا ظهر في بعض هذا الشعر أثر الضعف  
أو التكلف ، فليس من الحتم أن يكون كل شاعر مجيداً ، خصوصاً أن هذا  
الشعر الذي نراه في كتب التاريخ حول هذه الخلافات لم ينسب لشعراء مشهورين .

ثم كانت مسألة التحكيم ، وما تبعها من ظهور الخوارج ، فقد أوشك  
معاوية أن ينهزم في صفين ، فأشار عمرو بن العاص بأن يرفع جنود الشام  
مأمعهم من مصاحف<sup>(١)</sup> على رؤوس السيوف أو الرماح ، وأفهموا أهل  
العراق أنهم رفعوها ليحكموا إلى كتاب الله ، وأوضح على لأصحابه غاية  
معاوية وأصحابه ، وأنهم يريدون السكيد له ، خصوصاً في هذا الوقت الذي  
كان فيه جيشه منتصراً صبح ليلة الهرير ، فأبوا إلا الهدنة ونزل على كارها

(١) يقول المهودي في الكلام عن واقعة صفين « ورفع من عسكر معاوية نحو من  
خمسائة مصحف » وذلك من الشام وحدها ، ولم يكن بين هذه الوانعة وبين كتابة مصحف  
عثمان إلا سبع سنين . ومن هذا نرى عناية المسلمين بكتابة المصاحف .



عند رأيهم . واجتمع الحكمان — أبو موسى الأشعري من جانب علي ، وعمر بن العاص من جانب معاوية — وانتهى الأمر بكتابة عقد التحكيم ، وانتهت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ .

### نتائج معركة صفين

عاد معاوية بعدها بجنده إلى دمشق ، وعاد علي إلى الكوفة بجزء من جنده ، أما البقية فقد أبت العودة معه ، ورفضت التحكيم ، وعدت حكم الرجال في كتاب الله كفراً كما قالوا ، وأتوا دحرواء ، قرب الكوفة ، نزلها منهم اثني عشر ألفاً ، ونادى مناديتهم أن أمير القتال شعث بن ربيعة التيمي ، وكثر الجدل بينهم وبين سيدنا علي ، أو رسله إليهم ، كابن عباس رضي الله عنهما . وكان الجدل بينهم أشبه بالمنظرات في عهد العباسيين ، فهو جدل حول مسألة دينية دقيقة ، والمغالطة فيه ظاهرة من جانبهم ، والحجة واضحة من جانب سيدنا علي ، والقرآن يؤيده ، وأدلتة منه قوية ، ولكن تعصب القوم عليه ، فوادعهم زمناً .

ثم اجتمع الحكمان : ولم يصل إلى نتيجة حاسمة يرضى بها الطرفان ، وأراد على قتال معاوية ، لكنه لم يستطع ، بسبب هؤلاء الخوارج الذين فارقوه واستحلوا الحرام وسفكوا الدماء ، وحكموا بكفره ، فرأى أن يبدأ بهم ، فالتقى بهم في «النهر وان» ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ولكن جنده تخاذلوا ، وتسلبوا من معسكره إلى بيوتهم وأمصارهم ، واستطاع معاوية أن يستولى على مصر وينتقم من عاملها محمد بن أبي بكر ، ويرسل سرايا للاغارة على قرى العراق ، وعلى لا يجد حيلة في جمع هؤلاء المتفرقين من حوله ، والخوارج لا يكفون عن التشهير به لقبوله التحكيم ، ثم انتهى الأمر بقتله على يد واحد منهم ، هو عبدالرحمن بن ملجم المرادي ، فرحمه الله رحمة واسعة .

هذه الفتنة العظيمة فرقت جموع المسلمين ، وذهبت بكثير من أعيانهم



وسادتهم ، وظلت هذه الفرق طول عهد بني أمية تتنافس وتقتتل ؛ وكان الخوارج هم الذين أزهقوا الدولة من أمرها عسرا . أما الشيعة فكانت ثوراتهم قصيرة الأجل لا تلبث أن تنتهى بقتل شريف منهم كالحسين رضوان الله عليه ، أو بعض ذريته . كزيد بن علي زين العابدين بن الحسين (١)

كان الأدب العربي في ذلك العهد كله صورة من هذا النزاع ، وصدى لهذه المذاهب المختلفة ، وامتازت الخطابة بظهورها وقوتها . وإن خطب سيدنا علي في ذلك العهد تفيض بالايمان بالحق ، والتذكير بالله ، والغیظ من خروج الخارجين ، ومن صلابة الأعداء ، وخذلان الجنود له . وفيها من الخطب الخالدة ما تمثله به كتب التاريخ والأدب .

أما الحزبان الآخران فلم يقصرا في استخدام سلاح البيان الذي يقابل الحججة بالحجة ، والذي يلعب بالأهواء والعقول . وإن خطب معاوية وعمرو بن العاص وأصحابهما لتشهد بذلك .

ثم بويع الحسن بن علي رضوان الله عليه بعد مقتل أبيه سنة ٤٠ هـ ، فولى الخلافة ستة أشهر ثم نزل عنها لمعاوية في عام الجماعة ، سنة ٤١ هـ فهد بذلك لاجتماع أمر المسلمين على خليفة واحد هو معاوية . وبدأت به دولة بني أمية ، فكان شأنها في تطور الأدب عظيما ، وكانت سياستها هي التي تحركه في كل نواحيه تقريبا ، لا يخرج عن سلطانها إلا الخوارج ، أما بقية الأدب الأموي فيمكن رده من قريب أو بعيد إلى سياسة الأمويين وأشخاص خلفائهم ، كما سنفصله فيما بعد .

---

(١) قتل الحسين في عاشوراء سنة ٦١ هـ ، في خلافة يزيد بن معاوية ، وقتل حفيده زيد سنة ١٣٠ هـ في خلافة هشام



## أثر العظماء في الناس

### سيادة وتقليد

نشاهد في الجماعات من حولنا ، ونسمع في تاريخ من قبلنا ، أن بعض الناس تسمو بهم مواهبهم الجسمية ، أو العقلية ، أو الفنية ، أو الخلقية ، أو الروحية ، على غيرهم من أبناء قومهم ، أو غير قومهم في عصرهم . وقد تسمو بهم هذه المواهب على الناس في كل العصور ، فيعترف لهم بالتقدم والامتياز ، وينظر اليهم من معهم ومن بعدهم نظرة التقدير والإكبار . وقد تتحول هذه النظرة إلى رغبة في الوصول إلى مستوى هؤلاء الممتازين ، بتقليدهم فيما امتازوا به ، واقتفاء آثارهم فيما سبقوا غيرهم فيه ، وكثيرا ما يجاوز الخلف غاية السلف ، ويتحول المقلد إلى مجدد ، فيضاف اسمه وعمله إلى صفحات الخالدين ، وبهذا تتطور الحياة ، وترتقي الجماعات بفعل أولئك النابهين .

وإذا كان من طبيعة الاجتماع في الجماعات الفطرية أن يكون للقوة الجسدية فضلها ، وأن ينظر الناس في تلك الجماعات نظرة إكبار أو خوف ، إلى أقوىاء الجسوم ، وأن يقدموهم في الملأ ، وأن يسودوهم عليهم ؛ فإن هناك من المواهب الأخرى ما يسرع إلى منافسة القوة الجسدية ، ويرتفع بأصحابه إلى مكانة السيادة والقيادة . ومن ذلك قوة البيان . وحسن التدبير .

وترى عامة الناس ، في كل الأحوال ، تبعاً لمن يرون فيه فضلاً من عقل أو خلق أو بيان ، أو امتيازاً في قوة أو غنى أو جاه أو عصية ، يسرون على نهجهم ، ويقلدونهم ما أمكنهم التقليد ؛ وتنطبع الحياة بطابع أولئك الممتازين إلى حد بعيد .

وقد يتقبل الناس طائعين ، سيادة أولئك الممتازين عليهم ، ويعترفون لهم مختارين بما حباهم الله من بسطة في العلم أو في الجسم ، أو طلاقة في اللسان ،



أو حصافة في الرأي ، أو إحسان في السياسة ، أو بصر بعواقب الأمور . وقد يفرض أولئك الممتازون أنفسهم فرضاً على الجماعات التي يعيشون فيها ، وينجحون في أن يكون لهم السلطان والأمر المطاع ، ويوجهون الحياة في السياسة أو الفنون أو العلوم أو الاقتصاد كما يشتهون .

### مصدر نبوغ الأدباء

وكان رجال البيان والفنون من الذين تعترف لهم الجماعات بالامتياز والتفوق في كل العصور ، ونسبوا نبوغهم ومقدرتهم في القديم إلى قوى أعلى من قوى البشر ، توحى إليهم زخرف القول شعراً ونثراً ، وتلهمهم بديع الفنون من حيث لا يشعرون : اعتقد اليونان والرومان ذلك ، فنسبوا شعراً شعرائهم ، وفنون عباقرة الفن عندهم إلى قوى أعلى من البشر ، سموها إلهات الشعر ، أو ربات الفنون . واعتقد العرب مثل اعتقاد اليونان ، فقالوا إن الشياطين توحى إلى الشعراء بأشعارهم ، ولولاها لما أحسنوا قولاً (١)

وكان من أثر هذه العقيدة ، مضافاً إليها ما كان للشعراء من فضل على قومهم في الجاهلية ؛ أن عظمت منزلة أولئك الشعراء ، وكان نبوغ الشاعر منهم فضلاً من الله على قومه ، يهتئون به ، ويقيمون من أجله ولائم الفرح والسرور .

فلما جاء الإسلام ، وتغيرت نظراته إلى الأدب ، تقدمت الخطابة على الشعر ، وأصبحت من عمل الخلفاء والولاة والقواد ، ورسماً من رسوم الدين ؛ فشرف قدرها بشرف القائمين بها ، وأصبح تأثيرها مضاعفاً ، يعتمد على شيء أكثر من البيان القوى : يعتمد على الموضوع النبيل ؛ واللسان القويم ، والمركز الممتاز الذي يتمتع به الخطيب .

(١) كتب المؤلف بحثاً طويلاً عن آلهة الشعر وشياطين الشعراء ، نشر ملخصه في



## قيادة الأمويين للأدب :

ملك بنو أمية أمر المسلمين ، وأصبح في أيديهم السلطان ، وجمعوا إليه الفصاحة القرشية ، والنزوق الأدبي المذهب ، ودراسة القرآن ، ورواية الحديث ، ومأثور آداب الجاهلية وأخبارها ، وعرفوا أهواء النفوس ، وقدروا فضل الأدب ، خطابته وشعره ، في تأييد ملكهم . فحاولوا ما استطاعوا أن يكونوا عماد الحركة الأدبية في دولتهم ، وأن يكون زمامها بأيديهم ، وأن يكون سلطانهم في الأدب كسلطانهم في السياسة ، يجرى كل منهما في فلك واحد ، هو خدمة الخلافة وتأييد الخلفاء .

كان حكم بني أمية حكماً مطلقاً ، لاسلطان لأحد فيه على الخليفة إلا سلطان الضمير ، وكان هذا الضمير متأثراً بالدين ، لكن كان تفسيرهم للدين تفسيراً خالفهم فيه بعض الكبار من المسلمين . ولا نرى واحداً منهم أخذ الخلافة بمشورة المسلمين ورضاهم حقاً إلا عمر بن عبد العزيز ، وأما غيره فكان يأخذها منالاً كعاقبة ومروان بن الحكم ، وبعضهم كان يرثها عن خليفة قبله ، بوصية منه أو عهد بها إليه . وعلى الناس السمع والطاعة والنزول على رغبة من أوصى أو عهد .

لهذا كان مركزهم في الأمة يحمل الناس على أن ينظروا إليهم نظراً إلى كل قوى صاحب سلطان ، في يده خزائن الأرض ، وتحت سيطرته جيوش دولة . إنهم كانوا يستطيعون أن يضرروا وينفعوا ، فطمع الناس فيما عندهم من ثواب ورهبوا ما يسلطون من عقاب ، فسكث شعراؤهم ، طمعا في عاجل الثواب ، وهرع إليهم أعداؤهم من الشعراء ، خوفاً من فتكات سيوفهم ، وظلمات سجونهم ، أو أملاً في عفوهم وخيرهم .

أما أدبهم هم فقد أعدوا أنفسهم له إعداداً ، فإنهم أدركوا حاجتهم إلى الخطابة ، وعرفوا ما يحتاج إليه من فصاحة لسان ، وثبات جنان ، ورواية أشعار ، ودراسة أخبار ، مع ما تتجمل به من أساليب القرآن ، وما تزدان به من مأثور الحديث ، وما يملك قلوب السامعين من ترغيب أو تهيب ، وما ينفع الناس



من وعد أو وعيد ، فأحاطوا بكل ذلك خبراً ، وخلفوا من الخطابة ما يسمو بهم على أشهر الخطباء في أزهى العصور اليونانية والرومانية ، مثل ديموستين وقصر وشيشرون .

وكان إكبار الناس لإدبهم مساوياً لعلو هذا الأدب ، فخطبهم تسير في الآفاق ، والحكمة من أفواههم مضرب الأمثال ، وأذواقهم المهذبة التي غذاها العلم والثقافة العربية ، كانت عاملاً من عوامل التوجيه الأدبي ، فكانوا يرشدون الشعراء - ويوجهون المادحين منهم خاصة - إلى الذي كان ينبغي أن يقولوا . كما كان استشهادهم بالشعر ، وروايتهم له ، من أظهر مآثر عن مجالسهم الأدبية . وأستاذهم في ذلك عبد الملك بن مروان ، فلا عجب أن يكونوا قادة في الأدب كما كانوا قادة في السياسة ، وأن يقتدى بهم الولاة ورجال الدولة .

وقد رأينا في عصرنا هذا من كان يعجب بعظيم من الخطباء فيقلده ويحكم هذا التقليد ، من ذلك أنه كان لسعد زغول مقلدون من الشباب ، يقلدونه في الصوت ، وفي التأتى الذي فرضته عليه الشيخوخة ، وفي مشيته إلى المنبر ، وفي إشاراته واهتزازة ، بل إن هؤلاء المقلدين تكلفوا عيوبه ، فكان سعد ينطق القاف « كفا » ، وكذلك كانوا يفعلون .

وإذا قسنا الغائب على الحاضر استطعنا أن ندرك أن هؤلاء الخلفاء الفصحاء ، كانوا أساتذة مدارس أدبية ، تأثرت بهم كما تأثر بعضهم ببعض ، وكانوا القوة المحركة للأدب يديرونه حول سياستهم مدحا لها ودفاعا عنها ، ويشغلون الناس بالتهاجى والعصبيات ويغضون على إقذاع الشعراء وخمرياتهم . ويقربون قوما منهم ، ويبعدون آخرين ، مادامت في ذلك فائدة للخلافة .

على أن من الأدب في عصرهم ما استعصى عليهم توجيهه ، لبعده عن محيطهم ، كالغزل العفيف ، وشعر الوصف البدوي للناقة والجر الوحشية وغيرها ، أو استعصى لمعارضته لسلطانهم ، وإيمانه بمبدأ غير مبدئهم ، وأعنى به شعر







## معاوية بن أبي سفيان

أشرنا من قبل إلى ما كان بينه وبين سيدنا على من نزاع بالبيان وباللسان . ونعود هنا إلى الحديث عنه حديثاً مستقلاً ، يعنى به أدبياً خطيباً ، ذا أثر في توجيه الحركة الأدبية في عصره توجيهها عاماً . ونبدأ بالحديث عن شخصيته الأدبية والعوامل التي قدمته في تاريخ الأدب فنقول :

### شرف أسرته :

لا نزاع في أن معاوية سيد من سادات قريش . ورث هذه السيادة عن آبائه في الجاهلية والإسلام . وكانت الفصاحة مظهراً من مظاهر هذه السيادة وضرورة من ضروراتها . كان «أمية» جد أبيه الذي تنسب إليه الدولة ، كثير المال والولد ، فنافس عمه هاشماً سيادة قريش ، وكان جده حرب بن أمية قائد قريش كلها في حرب الفجار (١) لمكانه سناً وشرفاً وقد نسب إليه أنه هو الذي نقل الخط من الحيرة إلى مكة ، فعرف فيها بعده ، وتعلمه عنه ابنه أبو سفيان وعدد آخر (٢) فكان ذلك أكبر عون على تدوين القرآن وكتابة الرسائل في عهده عليه السلام ، وأساساً لمظهر من أعظم مظاهر الحضارة ومقوماتها .

أبوه : أما أبوه فهو أبو سفيان الذي يحدثنا عنه التاريخ زعيماً من زعماء المعارضة في الإسلام . ورئيساً للبعثات التجارية التي كانت تخرج من مكة إلى الشام في هيئة قوافل عظيمة ، وأشهر ذلك ما كان في أوائل الهجرة ، وكان بعضها سبياً في غزوة بدر ، فقد جاء في سيرة ابن هشام في الحديث عن

(١) كانت حرباً بين قريش وكنانة وبين قيس وذلك في السنة الخامسة عشرة من عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد اشترك فيها الرسول فكان يجهز النبل لائتمامه كي يرموا به أعداءهم .

(٢) وقيل إن الذي علم أهل مكة الخط هو بشر بن عبد الملك ، أخو أكيذر صاحب دومة الجندل ، تعلمه من الأنبار ، وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء أخت أبي سفيان ، وعلم أهل مكة هذا الخط .



هذه الغزوة : « ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام في غير لقریش عظيمة ، فيها أموال لقریش وتجارة من تجارتهم . . . وكانت هذه القوافل تخرج مع عظيم استعداد وكبير حيلة ، تتقدمها السكافة تتعرف ما في الطريق ، والهداة يهدون السبيل ، والحراس يخفرون القافلة » وروى ابن عباس (١) عن أبي سفيان بن حرب أنه ذهب إلى الشام في تجارة بعد صلح الحديبية ، ودعى إلى مقابلة هرقل ليحييه عن أسئلة تتعلق بالدعوة الإسلامية ، فذهب أبو سفيان ومعه أصحابه . فسألهم هرقل عن أقربهم قرابة من رسول الله ﷺ . فقالوا إنه أبو سفيان ، فقدمه وأجلس أصحابه من خلفه ، وقال : إنى سأسأله فإن كذب فردوا عليه . يقول أبو سفيان « فوالله لو كذبت ما ردوا على ، ولستى كنت امرأة سيداً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك ، إن أنا كذبت ، أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه »

وكان لأبي سفيان منزلة فى قریش جعلته يقود جيوشها فى «أحد» للأخذ بثأر من قتلوا منها فى « بدر » وكان قائد الجيوش التى خرجت لغزو المدينة فى غزوة الخندق . ولما أسلم فى فتح مكة ظفر من رسول الله ﷺ بتقدير لم يظفر به غيره ، فقد جعل داره كالبيت الحرام من دخلها كان آمناً .

أما أمه هند بنت عتبة فلا يذكر شريفات النساء العرب إلا ذكرت . وقد عرفت بموقفها يوم أن عرض عليها أبوها عتبة بن ربيعة أن يزوجها بعض من خطبوها — وكان لشقته بحزمها وحسن اختيارها قد جعل لها الخيار بين من يتقدمون لخطبتها — فجاءها ذات يوم فقال لها : « إنه قد خطبك رجلان من قومك ، ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك ، أما الأول فى الشرف الصميم ، والحسب الكريم ، تخالين به هوَجا (٢) من غفلته ، وذلك إسحاق

(١) محاضرات فى تاريخ الامم الإسلامية للخضرى ص ٢٠٤

(٢) حقاً وطيشاً



من شيمته <sup>(١)</sup> ؛ حسن الصحابة ، سريع الإجابة ؛ إن تابعتك تبعك ، وإن ملت كان معك ؛ تقضين عليه في ماله ، وتكتفين برأيك عن مشورته . وأما الآخر : ففي الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، بدر أرومته <sup>(٢)</sup> وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، إن اتبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توغر عليهم ، شديد الغيرة ، سريع الطيرة <sup>(٣)</sup> صعب حجاب القبة ، إن حاج فغير منزلور ، وإن نوزع فغير مقهور ، وقد بينت لك كليهما . فقالت عن الأول : إنه مضياغ لسكريمته ، إن جاءته بولد أحقت ، وإن أنجبت فغن خطأ ما أنجبت . إطو ذكر هذا عني ، ولا تسمه لى . وأما الآخر : فبعل الحرة السكريمة ، إني لأخلاق هذا لوايقة ، وإني له لموافقة ؛ وإني لأخذه بأدب البعل ، مع لزوم قبتي ، وقلة تلفتي ؛ وإن السليل بيني وبينه لحرى أن يكون المدافع عن حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبتها ، المحامى عن حقيقتها ، المثبت لأرومتها ؛ غير مواكل <sup>(٤)</sup> ولا زُمَمِيل <sup>(٥)</sup> عند صعصعة <sup>(٦)</sup> الحروب . قال : ذاك أبو سفيان بن حرب ، قالت : فزوجه ، <sup>(٧)</sup>

هذا أحد أخبارها التي تشهد لها بالمحافظة على كرامتها ، وبعد نظرها ، واختيار من يحميها ، وإيثاره على الآخر السهل القياد ، الذي تقضى امرأته أمورها بدونه . ولم يحفل الرواة بذكر هذا الخبر إلا لشرف صاحبته ، وحسن تقديرها ، ونظرها في عواقب الأمور .

أما الأمر الجدير بالذكر ، وله بالأدب صلة قوية ، فهو أشعارها ؛ وقد روى ابن هشام بعضاً منها في رثاء من قتل من أهلها في غزوة بدر <sup>(٨)</sup> كما روى لها شعراً في التشفي بسيد الشهداء . حمزة بن عبد المطلب الذي قتل في غزوة « أحد » .

(١) سهولة ورقة في طبعه (٢) الأرومة : الأصل (٣) الفضب

(٤) العاجز (٥) الجبان الضعيف (٦) اشتدادها حتى تفزع وتخيف

(٧) الامالى ج ٢ ص ١٠٤

(٨) قتل منهم أبوها وأخوها وعمها . وروى لها ابن هشام ج ٢ ص ٥١ و ٥٢ أربع مقطوعات من الشعر في الرثاء وعلق على كل من الثانية والثالثة بقوله : « وبض أهل العلم بالشعر يذكرها لهند »



أما الأغاني فيروى أنه : لما كانت وقعة بدر قتل فيها عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم ، وبلغها تسويم<sup>(١)</sup> الخنساء هودجها في الموسم<sup>(٢)</sup> ومعاظمتها<sup>(٣)</sup> العرب بمصيبتهما بأبيها عمرو بن الشريد ، وأخويها صخر ومعاوية ، وأنها جعلت تشهد الموسم وتبكيهم ، وقد سوّمت هودجها براية ، وأنها تقول : « أنا أعظم العرب مصيبة » ، وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك ، فلما أصيبت هند بما أصيبت به ، وبلغها ذلك قالت : « أنا أعظم من الخنساء مصيبة » وأمرت بهودجها فسوّم براية ، وشهدت الموسم بعكاظ ، وكانت سوقا يجتمع فيها العرب<sup>(٤)</sup> فقالت : اقرنوا جملي بحمل الخنساء ، ففعلوا . فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء : من أنت يا أخية ؟ قالت ، أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ، وأخبرتها بقتل أبيها وأخيها وعمها ، وأنشدت كل منهما شعراً<sup>(٥)</sup>

وما أردنا بذكر هذا الحديث عن أبيه وأمه ، إلا أن ندل على أن البيئة الخاصة التي نشأ فيها كانت بيئة شرف وأدب ، فقد كانت الفصاحة من صفات الرياسة . وكانت حاجة أبي سفيان إلى هذه الخطابة شديدة في المواقع ، وفي الاستعداد لها ، وفي مناقشة الآراء قبل المعارك وبعدها . وهو واحد من أشرف قريش الذين قال الله فيهم : « بل هم قوم خصمون<sup>(٦)</sup> » ، وجاء القرآن الكريم لإعجازهم ، فتحداهم من الناحية التي امتازوا فيها وهي الفصاحة . أما أمه فقد بينا موقفها من الخنساء ، ومعاظمتها لها في سوق عامة تجتمع إليها الوفود من كل الجزيرة . وللخنساء ذكرها وشهرتها في الأدب ، فلا يعاظمها

(١) تميزه بعلامة

(٢) موسم عكاظ ، قبيل موسم الحج

(٣) المعاظمة : المفاخرة في النصاب

(٤) أشهر أسواق العرب في الجاهلية ، وكانت تقام كل عام من أول ذي القعدة إلى العشرين

منه ، يجتمعون فيها للمتاجرة ، ومناداة الأسرى ، كما كانت سوقا عامة للأدب .

(٥) الأغاني ج ٤ ص ٣٤

(٦) سورة الرخرف



إلا سيدة أدبية تثق من مقدرتها على منافسة الخنساء ، ومن هنا ورث معاوية الفصاحة .

**بيئته :** - أما البيئة العامة التي ربي فيها معاوية فهي بيئة مكة ، وسكانها هم قريش ، ولغتهم هي التي نزل بها القرآن ، وبلغ بها محمد صلى الله عليه وسلم دعوته ، وعارضه قومه بها شعرا وخطابة . وقد قوى هذا الأدب المعارض بعد الهجرة ، في الوقت الذي كان فيه معاوية في مستقبل الشباب ، يسمع ما يروى ويعي ما يقال ، ويعرف ما يتهاجى به المسلمون والمشركون . ولا بد أنه كان يلقي غيره من شباب مكة وفتيانها ، فيروون أشعار المشركين خاصة ، أو يروون معها أشعار المسلمين أيضاً . كما كانوا يسمعون بالقرآن ، وخطب الرسول ، ووفادات الخطباء والشعراء عليه . ولا بد أنه كان يعرف ما يدور في دار الندوة (١) من آراء وتدابير يتعلق بهذه الخصومة بين قريش والرسول عليه الصلاة والسلام ، ويسمع من أبيه - على الأقل - حديث الخطب والסקات التي كانت تلقى في هذه المجالس ، كما كان يعلم أمر عكاظ وما يجري فيها ، في زمنه وقبل زمنه . وكان متصلاً بتاريخ قومه ، عالماً بأخبار العرب وأيامهم وأديبهم ، بحكم نشأته في مكة . إلى كانت تجني إليها ثمرات كل شيء ، ومن ذلك ثمرات القرائح ، وآثار الشعراء والخطباء في الجاهلية .

**في إسلامه :** - أسلم معاوية في فتح مكة ، وكان في الثالثة والعشرين من عمره ، واتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم فكان من كتاب الوحي ؛ ثم قاد الجيوش لابن بكر وعمر رضوان الله عليهما ، وولى الشام كلها في عهد سيدنا عثمان . وكان بحكم منصبه هذا يكتب إلى الخلفاء ، ويخطب في الجيوش ، ويشرف على معاهدات الصلح ، ويدبر أمور الشام التي يقوم بشأنها . وحاجته في كل ذلك إلى البيان لا تنسك ، كحاجته إلى حسن السياسة والتدبير . وكثيراً

(١) دار أنشأها في مكة قصي بن كلاب الجد الخامس للرسول ، وكانوا يتشاورون فيها كلما نزل بهم أمر عظيم ، وفيها دبروا مقتل الرسول . فخطبه الله . وأمره بالهجرة .



ما كان يتلقى من أبيه وأمه النصائح الرشيدة .  
وظل في ولاية الشام مرضيا عنه ، يدبر أمورها بحزم وحسن سياسة ، ويملك  
قلوب الناس بحلمه ومعروفه ، حتى قتل عثمان رحمه الله ، فاستطاع بدهائه  
ومرونته السياسية ، أن يجمع حوله كثيراً من رجالات قريش والعرب .  
وأن يرمي أهل العراق بجند الشام ، وأن يثبت في معارضته لسيدنا علي كرم  
الله وجهه . وبذل كل جهده حتى أفسد الأمور عليه : في العراق بمسألة التحكيم  
ورفع المصاحف في صفين ، وفي مصر بإفساد ما بين جندھا وقوادھا وبين  
أهلها ، وقد نسب إليه أنه كاتب قيس بن سعد عبادة واليها من قبل سيدنا  
علي ، وأشاع بين أهل الشام أن قيسا يواليه ، فعلم بذلك سيدنا علي فشك في  
قيس وعزله من مصر .

كما حاول أن يستميل إليه زياد بن أبيه ، وكان من خير أعوان سيدنا علي  
فلما علم بذلك سيدنا علي كتب إلى زياد :

« إني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلا ، وقد كانت من أبي سفيان  
فلتة من أمانى الباطل وكذب النفس ، لا توجب له ميراثاً ، ولا تحل له نسباً  
وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ،  
فاحذر ثم احذر والسلام » :

وظل معاوية على سياسته في تقريب أعيان الدولة حتى استلحق زيادا  
بأبي سفيان ، وقد قال يزيد بن مفرغ الحميري من شعراء العراق : ينكر  
عليه ذلك .

|                          |                              |
|--------------------------|------------------------------|
| ألا أبلغ معاوية بن حرب   | مُغلغلة من الرجل اليماني (١) |
| أتغضب أن يقال أبوك عَف   | وترضى أن يقال أبوك زاني!     |
| فأشهد أن رَحِمَك من زياد | كرحم الفيل من ولد الأتان (٢) |
| وأشهد أنها ولدت زيادا    | وصخر من سُمية غير داني       |



والذى يعنيننا من معاوية هنا هو أدبه أولاً ، وقيادته للحركة الأدبية ثانياً .

أما أدب معاوية ، فكان صورة من نفسه ومن عصره ، كان معاوية حليماً نهازاً للفرص . سياسياً ترى ذلك واضحاً في مواقفه ورسائله وخطبه : قدم الكوفة بعد مقتل على ، فقام النابغة الجعدي بين يديه فقال :

ألم تأت أهل المشرقين رسالتى وأى نصيح لايبست على عتب!  
ملكتم فكان الشر آخر عهدكم لئن لم تسد ركم حلوم بنى حرب

وقد كان معاوية كتب إلى مروان بن الحكم فأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة عليه ، وعنده عبد الله بن عامر ومروان ، فأنشده :

من راكب يأتى ابن هند بجاجتى على النأى ، والانباء تنمى وتجلب  
ويخبر عني ما أقول ابن عامر ونعم الفتى يأوى إليه المعصّب (١)  
فإن تأخذوا أهلى ومالى بظنة فإنى لحراب الرجال مجرب (٢)  
صبور على ما يكره المرء سوى الظلم ، إنى إن ظلمت سأغضب

فالتفت معاوية إلى مروان فقال . ماترى ؟ قال أرى ألا ترد عليه شيئاً . فقال ما أهون والله عليك أن ينجر هذا فى غار ثم يقطع عرضى على ، ثم تأخذه العرب فترويه ! أما والله إن كنت لمن يرويه ! اردد عليه كل شئ أخذته منه .

هذه سياسة معاوية الواضحة ، الصادرة عن نفسه المتساحمة ، مع أديب لا يخافه على الملك . وهذا تقديره أو خوفه من الأدب السائر ، يروى فيه عنه مذمة . إنه كان رجلاً يقدر الأدب ، ويعرف فعله فى نفوس العرب ، فأثر مسالمة النابغة على نصيحة مروان بن الحكم .

وكانت له أرض تجاور أرضاً لابن الزبير ، فعدا عبيد معاوية على أرض ابن الزبير ، فكتب إليه :



« أما بعد ، فإنه يا معاوية ، إن لم تمنع عبيدك من الدخول في أرضي ،  
وإلا كان لي ولك شأن ! »

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه قال له :  
« ماترى ؟ قال أرى أن تنفذ إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك ، يأتونك  
برأسه . فقال : يا بني ، عندي خير من ذلك ، على بدواة وقرطاس ، وكتب :  
« وقفت على كتابك يا ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (١)  
وسامني والله ما ساءك ، والدنيا هينة عندي في جنب رضاك . وقد كتبت  
على نفسي رقياً (٢) بالأرض والعبيد ، وأشهدت على فيه . ولتصف الأرض  
إلى أرضك ، والعبيد إلى عبيدك والسلام . »

فكتب إليه ابن الزبير :  
« وقفت على كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - فلا عدم الرأي  
الذي أحله من قریش هذا المحل ، والسلام : »  
فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله أعطاه ليزيد ، فلما قرأه أسفر وجهه .  
فقال : يا بني ، إذا رميت بهذا الداء فداؤه بهذا الداء . »

رسائله - : وكثير مما ترويه كتب الأدب من رسائل معاوية  
كان بينه وبين آل البيت ، كالحسن والحسين ، وابن عباس ، وعبد الله بن جعفر  
ابن أبي طالب ، رضوان الله عليهم أجمعين . والعجيب أن أكثر المعاني التي  
ترد في هذه الرسائل متشابهة ، ولا كنهك تقرأ ما تقرأ منها فترى سحر البيان  
يصرفك عن تشابه المعاني ، حتى يخيل إليك أنه لا شبه بين كتاب وآخر .  
وقد أشرنا إلى ما كان بينه وبين سيدنا علي من نزاع استعان فيه كل منهما  
بالبیان ، وأشرنا إلى المعاني التي كان يدور حولها القول . والمعاني هنا شبيهة  
بتلك ، لا تجد فرقا كبيراً ، إلا أنه كان يحاول في خلافته أن يستميل إليه أولئك

(١) الحواري : ناصر الانبياء

(٢) كتاباً



القوم ، وأن يذكرهم بفضله عليهم ، أو أن يعترف لهم بالفضل ، أو يخوفهم بطشه وحرمانه ، فإذا أغلظوا له القول في الرد جعل ذلك وراء ظهره ، ولم يعبأ به . وكانت بينه وبين ولاته في الأمصار رسائل بعضها عام وبعضها خاص ، ولكنها تمتاز كلها بأسلوب قوى ، وإيجاز قد يقتصر على الإشارة ، ويغنى عن كثير الكلام ، وقل أن يطيل . وكان يشتد ويتوعد ، أو يلين ويتودد ، بحسب الظروف ، فقد كتب إلى زياد يدعوهُ إلى طاعته :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عبيد (١) ، أما بعد فإنك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النقمة ، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وإن الشجرة لتضرب بعرقها ، وتنفزع من أصلها — لا أم لك ! بل لا أباً لك ! — قد هلك وأهلك ، وظننت أنك تخرج من قبضتي ، ولا ينالك سلطاني ! هيهات ! ما كل ذى لب يصيب رأيَه ، ولا كل ذى رأى ينصح في مشورته ، أمس عبد واليوم أمير ! خطبة ما ارتقاها مثلك يا بن سمية ! »

« وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الاجابة ، فإنك إن تفعل ، فدمك حقنت ، ونفسيك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش (٢) ونلتك بأهون سعى . وأقسم قسماً مبروراً ألا أوتى بك إلا في زَمارة (٣) تمشي حافياً ، من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك في السوق وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه ، والسلام . »

فأغلظ زياد في رده ، فلجأ معاوية إلى الدهاء وأرسل إليه كتاباً آخر مع المغيرة بن شعبه بدأه بقوله :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، إلى زياد بن أبي سفيان ، ثم أخذ يلومه على قطع الرحم وعقوق القرابه ، ثم يقول له : « حتى كأنك

(١) كان عبداً ، وكان زوجاً لسمية لما ولدت زيادا .

(٢) بأقل قوة .

(٣) أى في جماعة يزعمون بك في مقدمك على ، تشهيراً بك .



لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبى ! وشتان ما بينى وبينك ! ،  
أطلب بدم ابن أبى العاص (١) وأنت تقاتلنى ، وإن كنت أدركك عرق الرخاوة من  
قبل النساء ، فكننت كتاركة بيضها بالعراء ، وملاحفة بيض أخرى جناحها (٢)  
وقد رأيت أن أعطف عليك ، ولا أؤاخذك بسوء سعيك ، وأن أصل رحمك  
وأبتغى الثواب فى أمرك .

« فاعلم ، أبا المغيرة ، أنك لو خضت البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف  
حتى ينقطع متنه ، لما ازددت منهم إلا بعدا ، فإن بنى عبد شمس أبغض إلى  
بنى هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح . فارجع - رحمك الله -  
إلى أصلك ، واتصل بقومك ، ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره . فقد  
أصبحت ضال النسب ، ولعمري ما فعل بك ذلك إلا اللجاج ، (٣) فدعه  
عنك ، فقد أصبحت على بينة من أمرك ، ووضوح من حجتك ، فإن أحببت  
جانبي ، ووثقت بى ، فأمره بإمرة ، وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقولى ففعل  
جميل ، لا على ولا لى ، والسلام . »

هذه الرسالة من معاوية إلى زياد ، لما أراد ضمه إلى جانبه بعد موت  
سيدنا على ، وكان زياد عاملا له على خراسان تخاف معاوية أن ينضم بعده  
إلى الحسن ، فيكون قوة له ، فحاول أن يغريه كما حاول فى أيام سيدنا على ،  
ولقد كان معاوية كما قال عنه أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، « يأتى الإنسان  
من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله » فقد ألح على زياد واستعان  
على ذلك بالمغيرة بن شعبة ، وكان داهية مثل معاوية وصديقا لزياد . والذى  
يعنيننا من هذا كله هو أدب معاوية الذى يضرب على أوتار حساسة فى رسالته  
هذه وفى رسائله الأخرى إلى زياد : كان يعرف نقطة الضعف فيه ، وهى أنه  
مغمور بالنسب . ولسكنه عظيم السياسة ، فأراد أن يرفع من نسبه باستحقاقه

(١) سيدنا عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية .

(٢) تهل القريب ، وترعى الغريب .

(٣) النادى والمبالغة .



بأبي سفيان ، وأن يعده الولاية ويقدمه في الدولة ، فأكثر من معاتبته على قطع الرحم كأنه قد صار من بني عبد شمس حقاً ، وأغراه بنبي هاشم كي ينفذ يده من الحسن ، وكناه بأبي المغيرة بعد أن نسبته في أول الرسالة إلى أبي سفيان ، وجره مع بني عبد شمس ، وذكره بأن مابين الأسرتين من عداوة لن يقربه من بني هاشم شيئاً مهما فعل . ثم دعا أن يعود إلى قومه ، وأن يرجع عن تماديه ، لينال إمرة يأمرة ، فإن لم يفعل فليكن محايداً .

لقد جرب في الخطاب الأول الشدة والتهديد فما نفعا ، فعاد إلى الدهاء ، والسياسة ، واستغلال نواحي الضعف الإنساني في المكتوب إليه ، فهو يعرف أن زياداً لا نسب له يرفع من شأنه ، ولعل هذه كانت تحز في نفسه ، فاستغلها معاوية ليضمه إلى جانبه وينتفع به . وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن أدب معاوية صورة من نفسه ، فإنك لتجد هذه النفس واضحة في هذه الرسالة أو هذا الموقف ، كما ترى فيها المهارة في بث الاضطراب في نفس المكتوب إليه . حتى يتركه في حيرة من أمره .

وقد كانت سياسة معاوية أن يستعين بالسياسة ماأغنته هذه السياسة وألا يلجأ إلى السيف إلا آخرها . وأن يبذل ماله ، ويحتال حيله ، لتثبيت ملكه . وأن يخفر لأعدائه فلتات اللسان ، وألا يحول بينهم وبين التعبير بصراحة عما تسكنه ضمائرهم ما لم يحولوا بينه وبين ملكه .

### الوفادة الأدبية :

وهذه كانت سياسته في الوفادة الأدبية التي كانت تثور فيها الخصومات بين أنصاره ، وبين بني هاشم ، وأنصار علي . . ويعيدون فيها ذكر الماضي . وورد من ذلك الشيء الكثير في وفادات من وفدن عليه من صاحبات علي ، كسودة بنت عمار ، وأم سنان بنت خيثمة ، وبكارة الهلالية ، وأم البراء بنت صفوان ، ودرامية الحجونية ، فإنه كان يعطى هؤلاء جوائز ، ويكتب إلى الولاة بقضاء حوائجنهن ، بعد أن يذكر لهن مواقفهن من علي ومنه ،



ولأينسى أن يذكرهن بسلطانته ومقدرته ، ليعظم عفوه عندهن .  
وقد جاء خير هذه الوفود ومادار فيها من حديث ، في كتاب العقد  
الفريد في « كتاب الجمانة في الوفود » . ونذكر من ذلك وفادة بكاره الهلالية :  
روى ابن عبد ربه قال :

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو  
يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه - وكانت امرأة قد أسننت ، وعشى بصرها ،  
وضعت قوتها - ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست : فرد عليها معاوية  
السلام . وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال غيرك  
الدهر ! قالت : كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قُبر . قال  
عمر بن العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يازيد دونك فاحترق من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفينا  
قد كنت أذخره ليوم كريمة فاليوم أبرزه الزمان مصونا  
قال مروان : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا ! هيهات ! ذاك - وإن أراد - بعيد  
منتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد

قال سعيد بن العاص ، هي والله القائلة :

فالله آخر مدتي فتناولت حتى رأيت من الزمان عجائباً  
في كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عائباً

ثم سكت القوم ، فقالت بكاره : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ،  
فقصر محبتي ، وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع  
ذلك بتسكذيب ، وما خفي عليك منى أكثر ، فامض لشأنك ، فلا خير في  
العيش بعد أمير المؤمنين . فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك ،  
اذكري حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردها إلى بلدها .



وكثير ما كانت تفقد عليه الوفود من العراق وغيرها ، فيتبارى أهل  
البيان في مدحه ، أو يذكرون سابق بلائهم في خدمته أو يشكون إليه ظلم  
الولاية ، أو يطلبون قضاء ديونهم فيجيب كل طالب إلى ما طلب ، فيعود  
هؤلاء إلى قومهم يثنون عليه بما هو أهله ، ويشيعون في الناس حلمه وعفوه  
وبره وعطاءه .

روى عن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال :  
عقمت النساء أن يلدن مثل عمي ! شهدته يوما وقد قدمت عليه وفود  
العرب ، فقضى حوائجهم ، وأحسن جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه  
سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :

« جزاكم الله يامعشر العرب عن قریش أفضل الجزاء ، بتقدمكم إليهم في  
الحرب ، وتقديسكم لهم في السلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم . أما  
والله لا يؤثر عليكم غيركم منهم حازم كريم ، ولا يرغب عنكم منهم إلا  
عاجز لئيم . »

ودخل صعصة بن صُوحان على معاوية في وفد العراق . فقال معاوية :  
« مرحبا بكم يا أهل العراق ، قدمتم أرض الله المقدسة ، منها المنشر ،  
وإليها المحشر ، قدمتم على خير أمير : يبر كبيركم ، ويرحم صغيركم ، ولو أن  
الناس كلهم ولدواً أبي سفيان لكانوا حلماً عقلاء . »

فأشار الناس إلى صعصة فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال :  
أما قولك يامعاوية . إنا قدمنا الأرض المقدسة ، فلعمري ما الأرض  
تقدس الناس ، ولا يقدس الناس إلا أعمالهم ! وأما قولك : منها المنشر  
وإليها المحشر ، فلعمري ما ينفع قربها ولا يضر بُعدها مؤمناً ! وأما قولك  
لو أن الناس كلهم ولدواً أبي سفيان لكانوا حلماً عقلاء ، فقد ولدتم خير من  
أبي سفيان ، آدم صلوات الله عليه ، فمنهم الحلیم والسفيه ، والعالم والجاهل (١)



وزيد هنا أن نحمل هذه المقالة التي ابتدأ بها معاوية ، لنرى ما كان في نفسه ، ويريد أن يوحى به إلى أولئك العراقيين ، مما فهمه صعصعة ورد عليه : يريد تفضيل أهل الشام على العراق ، ليجزى كلا بما سبق منه في طاعته ، ويريد الإشارة إلى أن الأوطان تشرف ساكنيها ، ويشرفون بها ، فرغب في تشريف أهل الشام بذلك ثم ذكر أهل العراق بفضله فعلا ونسبا فذكر أنه خير أمير ، برا بالكبير ورحمة بالصغير ، وفي هذا تذكير لهم بواجب الطاعة ، ومقابلة الإحسان بمثله ، وإغراء بالولاء له عسى أن ينالوا من بره ورحمته . وأما هذه المبالغة التي تجعل الناس جميعا حلفاء عقلاء ، لو كانوا من أولاد أن سفيان ، ففيها معنى المبالغة في حلم معاوية وعقله ، فهذا الذي كان يجعل الناس كذلك ، وهو أبوة أبي سفيان ، خص به معاوية وإخوته ، وفاز منه معاوية بأكبر نصيب .

لكن صعصعة رد عليه بما ينقض قوله ، مع إيجاز وإصابة ، قول وحضور جواب .

وكذلك كانت مجالس معاوية ، والوفادات عليه . كلها أدب ، وشحن للعقول ، واختبار للبدائه . ومن المحاورات والأجوبة التي ذكرها العقد الفريد نرى مقدار ما استفاد الأدب منها : لقد كانت كلها قوية البيان ، قوية البرهان . وما كان يتخللها من مفاخرات ومنافرات يجعلها أشبه بمفاخرات عكاظ ومنافراتها ، مع حاجتها إلى سرعة الجواب وحضور البديهة ، والعلم بالأحساب والأنساب ، وتذكر المفاخر القديمة والحديثة . وأما علو أسلوبها ، وقوة بيانها فأمر مفهوم .

وإذا كانت هذه الوفادات قديمة في العرب ، فقد كانت مجالس هذه الأجوبة والمحاورات من صنع معاوية . وتديره ، ولم يرو لنا قبلها مثل ما روى عنها في عهده وفي مجالسه ، ومن وحيه .



## الأدب في البيعة ليزيد :

ويتمثل لنا توجيه معاوية للأدب وقيادته لزمائه في ناحية أخرى ، هي رغبته في المبايعة ليزيد بولاية العهد وهذه قد شغلت الخطباء والشعراء . ورجال الدولة زمناً ، كما شغل بها معاوية . وقد أعد للأمر كثيراً من العدد كان الأدب أعظمها شأنًا . وقد روى في أسباب هذه الرغبة روايات : منها أن المغيرة بن شعبة كان والياً على الكوفة لمعاوية ، وكبرت سنه وخاف أن يستبدل به ، فأراد أن يتقرب إليه ، فحدثه بهذه الفكرة ، وقال له : « يا أمير المؤمنين ، إن النفس ليغدى عليها ويراح ، ولست في زمن أنى بكر وعمر ، فلو نصبت لنا عدلاً من بعدك نصير إليه ، فإني قد دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد » فقال : يا أبا محمد انصرف إلى عملك ، ورُم هذا الأمر لابن أخيك .

وقيل إنه حدث يزيد بذلك قبل أن يحدث معاوية ، وزين له هذه البيعة ، فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فأحضره معاوية وسأله ، فقال : « قد رأيت ما كان من سفك الدماء ، والاختلاف بعد عثمان . وفي يزيد منك خلف ، فاعقد له ، فإن حدث لك حادث كان كهفا للناس ، وخلفاً منك ، ولا تُسفك دماء . ولا تكون فتنة » . قال : ومن لي بذلك ؟ قال أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك . قال : فارجع إلى عملك ، وتحدث مع من تشق إليه في ذلك . وترى ونرى .

يروى بعض المؤرخين أن ذلك بدء الفكرة لهذه البيعة التي صادفت هوى في نفس معاوية ، فاستعان على تأييدها بالرسائل والخطب والاشعار سنين عدداً ، فإن المغيرة مات سنة خمسين ، والبيعة لم تتم إلا بعد موت زياد في سنة ٥٣ (١) . وكان زياد في حياته يشير على معاوية بالتؤدة ، فلها مات عزم على هذه الفكرة ، فكتب إلى أمير المدينة مروان بن الحكم يقول : « إني قد كبرت سني ، ودق عظمي ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقد رأيت أن أخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً

(١) وبعض المؤرخين كالسعودي يروى أنها لم تتم إلا في سنة ٥٩ .



دون مشورة من عندك، فأعرض ذلك عليهم، وأعلنى بالذى يردون عليك .  
 فقرأ كتابه على أهل المدينة وقال : « إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه ،  
 ودق عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى فيدع الناس كالغنم لاراعى  
 لها . وقد أحب أن يُعَلِّمَ علمها ويقيم إماما » ، فقالوا : « وفق الله أمير المؤمنين  
 وسدده . ليفعل » ، فكتب بذلك إلى معاوية . فكتب إليه أن سمَّ يزيد .  
 فقرأ الكتاب عليهم وسمي يزيد ، وخطبهم فخصهم على الطاعة ، وحذرهم  
 الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنة أبي بكر الهادية المهدية ، فكادت  
 تكون فتنة ، إذ قام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : « كذبت والله يامروان  
 وكذب معاوية معك ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وبايع لرجل من  
 بني عدى رضى دينه وأمانته . واختاره لائمة محمد ﷺ . لا يكون ذلك !  
 لا تحدثوا علينا سنة الروم : كلما مات هرقل قام مكانه هرقل . » فغضب  
 مروان ، وتسابَّأ . وتكلم الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن  
 عمر ؛ وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس وكتب مروان إلى معاوية بذلك .  
البيعة ليزيد في الحجاز

قدم معاوية المدينة ، وأرسل إلى الحسين بن علي وعبد الله بن عباس فحضرا ،  
 فخطبهما فحمد الله وأثنى عليه وشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ،  
 ثم قال : « وقد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وإلى تجويزه ، وقد علم الله  
 ما أحاول به من أمر الرعية ، من سد الخلل ، ولم الصدع بولاية يزيد ... وفيكما  
 فضل القرابة ، وحظوة العلم ، وكال المروءة ؛ وقد أصبت من ذلك عند يزيد  
 على المناظرة والمقابلة ، ما أعياى مثله عندكما وعند غيركما ، مع علمه بالسنة  
 وقراءة القرآن ، والحلم الذى يرجح بالصَّحْمِ الصَّلاب ، وقد علمنا أن الرسول  
 المحفوظ بعصمة الرسالة ، قدم على الصديق والفاروق ، ومن دونهما من أكابر  
 الصحابة ، وأوائل المهاجرين ، يوم غزوة ذات السلاسل (١) من لم يقارب

(١) بمث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة يستنفر  
 العرب إلى الشام فلما كان على ماء بأرض جذام يقال له « السلسل » خاف ، فبعث إلى رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم يستنصره ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين ، فيهم



القوم ، ولم يعاندهم (١) برتبة ، في قرابة موصولة ، ولا سنة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره ، وجمع بهم صلاتهم ، وحفظ عليهم فيهم ، وقال ولم يقل معه . وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فهلا بنى عبد المطلب ؛ فإننا وأتم شعبا نفع وجد ، وما زلت أرجو الانصاف في اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بفضل قولكما ، فردا على ذى رحم مستعجب (٢) ما يحمد به البصيرة في عتابكما . فتسكلم الحسين رضوان الله عليه ، ينقض على معاوية حججه ، ويسفه رأيه في تفضيل يزيد ، ويذكر عيوبه ولهو ، ويذكر معاوية باليوم الآخر ، حتى فرع من كلامه ، وتكلم ابن عباس فأيد كلام الحسين .

فلما انصرفا أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ؛ وخاطبهم في شأن البيعة ليزيد : أما ابن عمر فقد أظهر استعداداه للدخول فيما يدخل فيه الناس ، وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له : « والله لو ددنا أن نملكك إلى الله فيها جسرت عليه من أمر يزيد . والذي نفسى بيده لتجعلنها شورى ، أو لأعيدنها جَزَعة (٣) : ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطرف رداءه ثم قال : « على رسلك ، اللهم اكفنيه بما شئت ، لا تظهري لأهل الشام فإنى أخشى عليك منهم » . وأما ابن الزبير فقد أظهر الخلاف الصريح وأبى أن يستجيب لمعاوية ، وكثر كلامهما حتى قال له معاوية : « والله ما أراك إلا قاتلا نفسك . » ثم أمرهم بالانصراف .

واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج ، ونادى مناديه في الناس أن يجتمعوا لأمر جامع ، فاجتمعوا في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر ، فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته للقرآن ،

أبو بكر وعمر وقال لأنى عبدة حين وجهه : لا تختلفا : فلما قدم أبو عبيدة أبى عمرو إلا أن يكون رئيسا ، فسلم له أبو عبيدة . طاعة رسول الله .

(١) يمتد عليهم

(٢) يطلب رضاكما

(٣) قوية : يريد الفتنة والثورة



ثم أخبرهم أن الناس جميعاً قد بايعوا وسلموا ، وأخر أهل المدينة بيعتهم .  
وأنه واثق من أنهم سيبايعون لأنهم جماعته وأصله ، ومن لا يخافهم عليه ،  
وأن الذين أبوا البيعة كان جديراً بهم أن يسبقوا ، وأنه لا يرى أحداً خيراً  
للمسلمين من يزيد .

فقام الحسين فقال : « والله لقد تركت من هو خير منه أباً وأماً ونفساً !  
فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك خير منه أما ، فلعمرى أملك خير  
من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش (٤) لكان نساء قريش أفضلهن ،  
فكيف وهى ابنة رسول الله ﷺ ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ! فأملك  
لعمر الله خير من أمه . وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله فقضى لأبيه على  
أبيك » . فقال الحسين : حسبك جهلك ! آثرت العاجل على الآجل » .  
فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيد والله  
خير لامة محمد منك » فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيد شارب  
الخمر ، ومشتري اللهور ، خير منى ! » فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك .  
فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك » .

ثم التفت معاوية إلى الناس فذكر أن رسول الله ﷺ مات ولم يستخلف ،  
« فرأى المسلمون أن يستخلفوا أباً بكر ، وكانت بيعته بيعة هدى ، فعمل  
بكتاب الله وسنة نبيه . فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمل  
بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة  
نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله ﷺ ،  
وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك  
رأيت أن أباع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظراً لهم  
بعين الانصاف . »

وهذه الروايات ترينا حرص معاوية على البيعة ليزيد ، وإلحاحه فى الشئ  
عليه ، كى يتقبل الناس بيعته بقبول حسن ، وتدلتنا على تخوفه من كبار الصحابة

(٤) أم يزيد ليست من قريش وإنما هى ميسون بنت الحارث السكبية



الذين سبق ذكرهم . وأنه كان يداريهم أحيانا ، ويغلف القول لهم أحيانا .  
 وأنه لجأ إلى دهائه وحلمه يستعين بهما على عناد أولئك الكرام ، فقد أراد  
 أن يعظم خطأهم حينما ذكر لهم أن أناس جميعا بايعوا ولم يبق إلا أهل المدينة ،  
 وكان الأجدر بهم أن يكونوا أسرع الناس إلى بيعته . فلما قام إليه الحسين  
 وذكر له أنه خير منه أما وأبا ونفسا سلم له بشرف الأمومة فقط ، ولكنه  
 أراد أن يلزمه الحجة بصحة خلافته ، وأن قضاء الله كان إثارا له على سيدنا  
 علي ، إذ قال : « وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ففرض لا يبيعه على أيك » .  
 وكأنه يريد بهذا تفضيل نفسه على علي ، وأن أبا يزيد خير عند الله من أبي  
 الحسين . فلما طعن في يزيد بدت لباقة معاوية التي أراد بها أن يستميل قلب  
 الحسين ، فذكر له أنه إنما يشتم ابن عمه ، والذي لو ذكر عنده بسوء لما أقره  
 ويرمى بذلك إلى أن يزيد خير من الحسين نفسا . وأما قاله بعد ذلك عن  
 الأدوار التي مرت بها الخلافة ، من الرسول ، إلى أبي بكر ، إلى عمر ، إلى عثمان ،  
 فهو مقدمة يريد بها أن يبرر ماله من الحق في اختيار يزيد ، إذ أنه ليست  
 هناك طريقة متبعة لاختيار الخليفة ، وإنما كان كل خليفة ينظر إلى مافيه  
 صالح المسلمين ، فيختار لهم خليفة بعده بالطريقة التي يراها خيرا لهم . وهو  
 لم يفعل غير ذلك ، وقد أريد بهذه البيعة ألا يقع الناس في الاختلاف  
 بعد موته .

وهذا المعنى الأخير دارت حوله خطب أكثر الوفود التي ذهبت إلى  
 معاوية في شأن هذه البيعة ، وقد تقدم أن المغيرة بن شعبة هو الذي وضع  
 أساس هذه الفسكرة . وليس يعنينا هنا صوابها أو خطأها ، فقد أيدها خطباء  
 الوفود الموالية لمعاوية بالحجج الخطابية القوية ، كما أيدها معاوية في رسائله  
 وخطبه العديدة ، وعارضها آخرون معارضة قوية ، ناقضين تلك الحجج الموالية  
 بحجج قوية أيضا . والذي يعنينا هو ما نراه من هذا البيان المتدفق الذي  
 الذي يحاول به معاوية أن يبرر بيعته ليزيد ، والذي استعان به على جذب



الناس إلى رأيه . ولعل مركز معاوية وعطاءه ، وخوف الناس من سلطانه ، كانت سندا قويا لهذا البيان القوي .

أما أمر هذه البيعة فمختلف في تاريخه بدءا وانتهاء . وبعض هذه الروايات يقول إن معاوية قد عمل لذلك منذ عام الجماعة ، واستمر يدافع عنها ويدعو إليها إلى قبيل وفاته . ولم تنته بالرضا التام من جميع المسلمين ، وكانت سببا في فتن عظيمة ، أضعفت أمر الأمة وفرقت أهواءها في زمن يزيد وبعده . لم ينته أمر البيعة ، ولا الخطب التي جرت بشأنها ، عند الحد الذي سبق فقد روى أن معاوية لما دنا من المدينة ، واستقبله أهلها وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، لم يحسن الترحيب بهم ، ثم أقام حتى جاء وقت الحجج ، فلقبه أولئك الكرام ، فأحسن الترحيب بهم ، وكناهم : ودخل عليه ابن عمر عندئذ فقال له : مرحبا بصاحب رسول الله ﷺ ، وابن الفساروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة . وقال لابن أبي بكر : مرحبا بشيخ قريش ، وسيدها ، وابن الصديق ، هاتوا له دابة وقال لابن الزبير . مرحبا بابن حوارى رسول الله ﷺ ، وابن عمته ، هاتوا له دابة . وقال للحسين مرحبا بابن رسول الله ﷺ ، وسيد شباب المسلمين ، قربوا لأبي عبد الله دابة . ولم يكتف بهذا التكريم بل أحسن إليهم ، وشفعهم ، وأرسل إليهم الهدايا ظاهرة يراها الناس ، وحملهم معه إلى مكة .

ولما انقضى الحج أراد أن يلزمهم بالبيعة ليزيد كي لا يختلف عليه الناس بعدهم . فعهدوا إلى ابن الزبير أن يتكلم بلسانهم ، ثم دخلوا عليه فرحب بهم ، وقال : قد علمتم نظري لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم . ويزيد أخوكم ، وابن عمكم . وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتسكنوا أتم تأمرون وتنهون . فسكتوا ، فقال أجيوني . ثم أشار إلى ابن الزبير أن يتكلم فتكلم بما لا يرضى معاوية ، وأقره الآخرون على قوله ، فقال معاوية : إني أقدم اليكم ، وقد أعذر من أنذر ! إني قائم فقائل مقالة ، فإياكم



أن تعترضوا على حتى أتمها ، فإن صدقت فعلى صدقي ، وإن كذبت فعلى كذبي ، وأقسم بالله لنن رد على رجل منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يبق إلا عليها ،

وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه . وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقى المنبر قريباً من السكبة ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« قالوا إن حسيناً وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا . »

فقال أهل الشام وما يعظم من أمر هؤلاء ؟! إيدن لنا فنضرب أعناقهم . لا نرضى حتى يبايعوا علانية . فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قریش بالشر ، وأحلى دماءهم عندهم ! أنصتوا ، فلا أسمع هذه المقالة من أحد !

ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قربت رواحله فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دعيتهم وأرضيتهم بايعتم ! قالوا لم نفعل ، قالوا بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنسكركم ؟ قالوا خفنا القتل ، وكادكم بنا وكادنا بكم .

فى هذه الزيارة — أو الزيارات — التى قام بها معاوية للحجاز كى يأخذ البيعة ليزيد شغل الناس جميعاً بأمر هذه البيعة ، ومخالفة هؤلاء الصحابة لمعاوية ، وشغل بها الأدب أيضاً ، فدارت الخطب والأحاديث حول مخالفة المخالفين ، وتأييد المؤيدين ، وما بقى لنا منها إلا القليل ، ولكنه على قلته يشير إلى استعانة معاوية بدهائه ولباقته ، وإيثاره للسياسة على الدين . ولكنه كان فى فصاحته



وتصيده للحجج خطيباً ماهراً ، أثار حركة أدبية قوية في الحجاز ، تدور كلها حول هذا الموضوع .

وقد روى أنه قدم لذلك بكتب أرسلها إلى سعيد بن العاص<sup>(١)</sup> كي يدعو الناس إلى بيعة يزيد ، وأن يخبره بمن يتخلف عن هذه البيعة ، فلما أخبره بالحالة ، وأن الذين أبطئوا كانوا من بني هاشم ، وأن ابن الزبير جاهر بعداوته ، أرسل معاوية كتباً إلى ابن عباس وإلى الحسين وإلى عبد الله بن جعفر وإلى ابن الزبير ، وبعث بها إلى سعيد بن العاص ليسلها إليهم ، وأرسل إليه هو كتاباً يأمره فيه بما يجب أن يعامل به الحسين من الرفق ، لقرايته وعظيم حقه ، ويحذره ابن الزبير . ويخبره أنه قادم عليه إن شاء الله . أما هذه الكتب فكانت كما عهدنا في معاوية ، تتراوح بين الشدة واللين ، وبين الوعد والوعيد ، وأما الذي يلفت النظر فيها فهو رسالته إلى ابن الزبير . ورد ابن الزبير عليه ؛ فقد كانتا شعراً من بحر واحد وقافية واحدة . ولعل ذلك يحمل بعض الناس على الشك فيهما ، وقد يقوى هذا الشك ضعف الشعر ، وتكلف القول في هاتين الرسالتين<sup>(٢)</sup> وسنعلق عليهما فيما بعد .

### الوفادة لتأييد البيعة

أما الوفود التي وفدت على معاوية لتأييد هذه البيعة ، فقد كانت بإيعاز منه إلى ولاته في الأمصار ، وأكبر الظن أن هؤلاء الولاة تخيروا من يرسلون ، من الذين يعرفون موالاتهم للفكرة . ولم يرسلوا أحداً من أصحاب الرأي المستقبل للنزبه إلا اضطراراً ، لعظمة هؤلاء في قومهم ، فلم يكن بد من إرسالهم ، وكان فيمن وفد عليه محمد بن عمرو بن حزم من أعيان الأنصار ، فخلاً به معاوية وقال له : ما ترى في بيعة يزيد ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحد هو أحب إلى رشداً من نفسك سوى

(١) سبق أنه أرسل إلى مروان بن الحكم ، ولعله كان يكرر هذه الرسائل إلى ولاته على المدينة ، فلا تناقص بين الروايتين .

(٢) الرسالتان في جبهة رسائل العرب ج ٣ ص ٦٠ ، ٦١ .



نفسى ، وإن يزيد أصبح غنيا فى المال ، وسطا فى الحسب ، وإن الله سائل كل راع عن رعيته ، فاتق الله ، وانظر من تولى أمر أمة محمد ، فاحذ معاوية بهر<sup>(١)</sup> حتى تنفس الصعداء<sup>(٢)</sup> ثم قال : « يا محمد إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك » ثم قال « إنه لم يبق إلا ابى وأبناءؤهم فابى أحب إلى من أبنائهم ، اخرج عنى ! » ثم دعا الضحاك بن قيس الفهرى ، وقال له : إذا جلست على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتى وكلامى ، فاستأذنى للقيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى ، واذكر يزيد ، وقل فيه الذى يحق له من حسن الثناء عليه ، ثم ادعنى إلى توليته من بعدى ، فإن قد رأيت وأجمعت على توليته . فأسأل الله فى ذلك وفى غيره الخير<sup>(٣)</sup> وحسن القضاء .

ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفى وجماعة آخرين ، وأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوا إلى يزيد ! وجلس معاوية فى أصحابه ، وأذن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته وهؤلاء النفر فى المجلس قد قعدوا للكلام - قام الضحاك بن قيس فاستأذن ، فأذن له . فحمد الله وأثنى عليه ، ودعا لأمير المؤمنين بالصلاح ، وتحدث عن فضل الجماعة والألفة ، وأنه من الخير ألا يترك الناس سدى ، ثم قال : « وأنت يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله تعالى بك المتاع . وقد رأينا من دعة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحسن مذهبه ، وقصد سيرته ، ويمن نقيبته<sup>(٤)</sup> مع ما قسم الله له من المحبة فى المسلمين ، والشبه بأمر المؤمنين ، فى عقله وسياسته وشيمته المرضية ، مادعانا إلى الرضا به فى أمورنا ، والقنوع به فى الولاية علينا . فليوله أمير المؤمنين - أكرمه الله - عهد ، وليجعل لنا ملجأ

(١) دهشة وعجب (٢) التنفس الطويل

(٣) أن يختار لنا الافضل

(٤) حسن عقله ونفسه ومشورته



ومفزعاً بعده ، نأوى إليه إن كان كون <sup>(١)</sup> فإنه ليس أحد أحق بها منه .  
وتكلم بقية أصحاب معاوية بمثل هذا المعنى ، وتكلم عمرو بن سعيد  
الأشدق ، فخببهم في كرم يزيد وحلمه ورشده ، فلما فرغ عمرو ، سأل معاوية  
الأحنف بن قيس أن يتكلم ، فتنصل من تأييد يزيد ، وألقى التبعة على معاوية ،  
وقال له : فأعرف من تسند إليه عهدك ، ومن توليه الأمر بعدك ، وأعص  
رأى من يأمرك ، ولا بقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ؛ وأنت أنظر  
للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ؛ مع أن أهل الحجاز وأهل العراق  
لا يرضون بهذا ، ولا يباليون ليزيد مادام الحسن حياً .  
وكاد الأحنف بهذا يفسد تدبير معاوية ، وتكلم الحاضرون بين مؤيد  
ومعارض ، حتى قام يزيد بن المقة فقال : « أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى  
إلى معاوية ، فإن هلك فهذا - وأشار إلى يزيد ، فمن أبى فهذا - وأشار إلى  
السيف . فقال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

#### الشعر في هذه البيعة :

على أن معاوية كان يخشى بنى أمية أيضاً ، وأراد أن يستوثق من طاعتهم  
وأن يلزمهم هذه البيعة في مجلسه ، فأوعز إلى مسكين الدرامي أن يقول أبياتا  
في معنى البيعة ليزيد ، وينشدها إذا اجتمع عنده أعيان بنى أمية . وأشهرهم  
عندئذ عبد الله بن عامر ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص - وكان قد  
بلغه ما كرهه منهم ، وأخذ مسكين يتحين الفرصة حتى اتفق له ذلك في مجلس  
حافل حضره وجوه بنى أمية ، ومعاوية جالس ، وابنه يزيد عن يمينه ،  
وبنو أمية حواله ، وأشرف الناس في مجلسه فمثل بين يديه وأنشأ يقول :  
إن أدع مسكيناً فإن ابن معشر من الناس أحى عنهمو وأذود  
إليك أمير المؤمنين رحلتها تثير القطلا ليلا وهن هجود <sup>(٢)</sup>  
وهاجرة <sup>(٣)</sup> ظلت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون - سجود

(١) إن حدث أمر عظم

(٢) نوع من الحمام البرى

(٣) نصف النهار عند اشتداد الحر



ثم قال :

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر      ومروان أم ماذا يقول سعيد  
بنى خلفاء الله مهلاً فإنما      يبوئها الرحمن حيث يريد  
إذا المنبر الغربي<sup>(١)</sup> خلاه ربه      فإن أمير المؤمنين يزيد  
على الطائر الميمون والجد صاعد      لكل أناس طائر وجدود  
فلا زلت أعلى الناس كعباً ولا تنزل      وفود تساميهـا اليك وفود  
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً      تشيد أطناب له وعمود  
قدور ابن حرب كالجوابي وتحتها      أثاف كأمثال الرئال ركود<sup>(٢)</sup>

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يامسكين ونستخير الله . فلم يتكلم أحد من  
بنى أمية إلا بالإقرار والموافقة . ووصله معاوية ووصله يزيد .<sup>(٣)</sup>

اتفاق الوالد والولد :

ويخيل إلى أن التفاهم بين معاوية ويزيد على مثل هذه المسائل كان تاماً ،  
فالرواة ينسبون إلى معاوية - أو إلى يزيد - تدبير هذا الشعر في هذا المجلس .  
وينسبون إليه - أو إلى يزيد - التفكير في البيعة بولاية العهد ليزيد . وينسبون  
إليه - أو إلى يزيد - تحريض الأخطل على هجاء الأنصار . ويقول الرواة  
إن التفاهم بينهما كان سائداً على أن يشفع يزيد للأخطل وأن يقبل معاوية  
شفاعته . وكان معاوية يستشير في أكثر شؤون السياسة كي يهيئه للحكم من  
بعده على الطريقة التي يحبها ، فكان معاوية أستاذاً خاصاً لابنه . وكانت مدرسته  
هي المدرسة التي تربى فيها .

لكن يزيد وإن اتفقت روحه مع روح أبيه في الجملة كان شاباً

(١) منبر دمشق ، وأما المنبر الشرقي فهو منبر البصرة ويقال إنه منبر خراسان . النقائض

ج ١ ص ١٠٨ طبعة لندن

(٢) الجوابي : الاحواص العظمى - الانافى : حجاره الكانون - الرئال : جمع رأل

وهو ولد النعام .

(٣) وقيل إن الذي أو عز إليه بذلك هو يزيد ليعلم ما عند شيوخ بني أمية .



وكانت العصية أغلب عليه من الدين ، وكانت الصراحة أغلب عليه من الدهاء والخلم

معاوية يسن سنة لمن بعده :

وقد اقتدى عبد الملك بن مروان بمعاوية ، في استخدام الشعر خاصة ، والأدب عامة ، في الدعوة إلى بيعة ابنه الوليد ، وخلع أخيه عبد العزيز بن مروان ، فأوحى إلى نابغة بني شيبان أن يدعو إلى هذه السياسة ويحتج لها فقال شعر آمنه :  
 لابنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرّح  
 داود عدل فاحكم بسنته ثم ابن حرب فإنهم نصحوا  
 ولكن عبد العزيز مات قبل عبد الملك ، فسقطت المعارضة في البيعة للوليد . وكذلك فعل الوليد بن عبد الملك حينما أراد خلع أخيه سليمان وإقامة ابنه عبد العزيز ولياً للعهد مكانه . فقد أعان الشعر على ذلك ، وإن أخفق :  
 قال جرير :

إذا قيل أي الناس خير خليفة أشارت إلى عبد العزيز الأصابع  
 رأوه أحق الناس كلهمو بها وما ظنوا إن بايعوه وسارعوا  
 واستخدم الأدب عامة ، والشعر خاصة ، في هذه المبايعات وغيرها ، لفضله في تهية الأذهان ، والاحتجاج للفكرة ، والاستعانة بسحره وسلطانته على العقول والأهواء . وبلغ معاوية ويزيد غايتهما ، وانتهى الأمر بالمبايعة ليزيد ، واشترك الأدب في هذه الفكرة السياسية اشتراكاً قوياً ، بتوجيه معاوية الذي كان له أثر عظيم في توجيه الأدب عامة إلى ما يريد .  
معاوية والأَنْصار :

كان معاوية يذكر للأَنْصار معونتهم لسيدنا على ، ووقوفهم بجانبه في النزاع بينهما . ومن أجل هذا سكنت عن هجاء الأخطال للأَنْصار .  
 أما سبب هذا الهجاء فليس من عمل معاوية في ظاهره ، وإن كانت



سياسته العامة قد شجعت عليه . فقد روى أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يشبب برملة بنت معاوية (١) نكاية في بني أمية فقال فيها :  
رمل ، هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى  
إذ تقولين : عمرك الله ، هل شئ وإن جل ، سوف يسليك عنى ؟  
أم هل اطمعت يا بن حسان في ذا ك كما قد أراك أطمعت منى ؟

وسمع معاوية بهذا التشبيب فغلبه حلمه السياسى ، وسمعه يزيد فثارت عصبية وذهب إلى أبيه فقال في سورة الشباب وحدته :  
يا أمير المؤمنين ، ألا ترى إلى هذا العليج من أهل يثرب يتهمكم بأعراضنا ويشبب بنسائنا ! فقال ومن هو ؟ قال عبد الرحمن بن حسان . وأنشده ما قال . فقال : يا يزيد ، ليست العقوبة من أحد أقبح منها من ذوى القدرة ، ولكن أمهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم ذكرنى . ففعل يزيد ، فلما دخلوا عليه قال : لا بن حسان ألم يبلغنى أنك تشبب برملة بنت أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، ولو علمت أن أحدا أشرف لشعرى منها لذكرته . قال : وأين أنت عن أختها هند ؟ قال : وإن لها لأختا ؟ قال نعم . وإنما أراد معاوية أن يشبب بهما جميعاً فيعلم الناس أنه كاذب في الأولى قياساً على الثانية .

لكن يزيد لم يرض بذلك ، فأرسل إلى كعب بن جعيل فقال : اهجم الأنصار . فقال أرادنى أنت إلى الكفر ! ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر ، الأخطل . ولعل كعباً دله على الأخطل لتوقعه أن يفتك به الأنصار إذا فعل ، وكان كعب يريد له الشر — فدعاه يزيد وقال له : اهجم الأنصار . فقال أخاف من أمير المؤمنين . قال : لا تخف ، أنا لك بذلك . فهجاهم فقال :  
وإذا نسبت ابن الفريعة (٢) خلته كالجحش بين حمارة وحمار

(١) ويرى أن التشبيب كان بأخت معاوية .

(٢) الفريعة : أم حسان بن ثابت فهي جدة عبد الرحمن بن حسان .



لعن الإله من اليهود عصابة بالجزع بين صليصل وصرار<sup>(١)</sup>  
 قوم إذا هدر العصير رأيهم حمراً عيونهمو من المصطار<sup>(٢)</sup>  
 خلوا المكارم لستموا من أهلها وخذوا مَسَاحِيَكُمْ<sup>(٣)</sup> بنى النجار  
 إن الفوارس يعرفون ظهوركم أولاد كل مقبَّح أكار<sup>(٤)</sup>  
 ذهبت قریش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمامم الانصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، ، فدخل على معاوية ، فخر عمامته عن  
 رأسه وقال : « يا معاوية : أترى لؤماً ؟ » فقال : « بل أرى كرمأ وخبرأ ،  
 فماذا ؟ » قال : « زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمامم الانصار ! » ثم أنشد :  
 معاوى إلا تعطنا الحق تعترف لحسنى الأزدي<sup>(٥)</sup> مشدوداً عليها العمامم  
 أيشتمنا عبد الأراقم<sup>(٦)</sup> ضلة وماذا الذى يجدى عليك الأراقم  
 فما لي ثار دون قطع لسانه فدونك من يرضيه عنك الدراهم

وهدد معاوية فى أبيات بعدها ، وذكره بيوم بدر ، وأشار إلى أنه ليس  
 أهلاً للخلافة ، وأن بنى هاشم أولى بها . فأمر معاوية بدفع الأخطل إليه  
 لقطع لسانه كما أراد ، فاستجار يزيد فأجاره ، وشفع له عند أبيه ، وأرضوا  
 النعمان فكف عنه .

ويروى أن التشبيب كان بأخت معاوية ، فدخل عليه يزيد وقال : يا أمير  
 المؤمنين ، اقتل عبد الرحمن بن حسان . فقال أبوه : ولم ؟ قال : لأنه شبب  
 بعمتى قال معاوية ليزيد وماذا قال ؟ فذكر له قول ابن حسان :  
 طال ليلي وبنت كالحزون ومللت الثواء فى جحرون

(١) صليصل وصرار : موضعان قرب المدينة

(٢) المصطار : الخمر الصارعة لشاربها .

(٣) المساحى : جمع مسحة وهى آلة يحرف بها الطين .

(٤) أكار : حرات

(٥) الأزدي من أهلهم من هناك .

(٦) الأراقم من تغلب قبيلة الأخطل



فقال له معاوية : يا بني ، وما علينا من طول ليله وحزنه ! أبعده الله ! قال :  
إنه يقول :

فلذاك اغتربت بالشام حتى ظن أهلى مرجمات الظنون

فقال معاوية : يا بني ، وما علينا من ظن أهله ! قال : إنه يقول :

هى زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون

قال معاوية : صدق يا بني ، هى هكذا . قال إنه يقول :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشى فى مرمر مسنون

قال معاوية : ولا كل هذا يا بني . ثم ضحك ، واستنشد بقية الأبيات

فأنشده إياها . فقال معاوية : ليس يجب القتل فى هذا . والعقوبة دون القتل ،  
ولكننا نكفه بالصلة (١) .

موقفه من التهاجى بين ابن حسان وابن الحكم :

وكانت بين قريش والآنصار فى المدينة أضغان ، يعبر عنها ما كان يشور  
بينهم أحياناً من خلاف . وكان التهاجى بين عبد الرحمن بن حسان بن ثابت  
شاعر الأنصار ، وبين عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص شاعر قريش ،  
مظهراً من مظاهر هذا الخلاف ، وإن بدا شخصياً أحياناً . وتقاذفاً وأخفاً ،  
وعلم معاوية بهذا الهجاء ، فكتب إلى سعيد بن العاص - عامله على المدينة -  
أن يجلد كل واحد منهما مائة سوط - وكان ابن حسان صديقاً لسعيد ،  
ومامدح أحداً قط غيره - فكره أن يضربه أو يضرب ابن عمه ، فأمسك  
عنهما . ثم ولى مروان بن الحكم فضرب ابن حسان مائة سوط ولم يضرب  
أخاه . فكتب ابن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام - وكان كبيراً  
مكينا عند معاوية - :

ليت شعرى أغائب أنت بالشام ، خليلي أم راقد ، نعمان ؟

(١) الاغانى ١٣ ص ١٤٣ . وهناك روايات أخرى لهذه الابيات ذكرها الكامل



آية ما يكن ، فقد يرجع الغائب يوما ويوقظ الوسنان  
إن عمرا وعامرا أبوينا وحراماً قدماً على العهد كانوا  
أفهم مانعوك أم قلة الكتاب ، أم أنت عاتب غضبان ؟  
أم جفاء ، أم أعوزتك القراطيس ، أم امرى به عليك هو ان ؟  
يوم أنبت أن ساقى رُضت وأتكم بذلك الركيان  
ثم قالوا إن ابن عمك في بأوى أمور أتى بها الحدثنان  
ففسيت الأرحام والود والصحبة فيما أتت به الأزمان  
إنما الرمح فاعلمن قناة أو كبعض العيدان لولا السنان

فدخل النعمان على معاوية ، وأخبره أن مروان ضرب الأنصارى فقط  
فكتب إليه يأمره أن يضرب أخاه مائة . وبعث إلى ابن حسان بحلة . وكره  
مروان أن يقيم الحد كاملاً ، ورجا الأنصار أن يشفعوا في نصفه عند ابن حسان  
فرضى بذلك ؛ لكنه أخذ يشيع أن مروان ضربه ضرب الحر ؛ وضرب  
أخاه ضرب العبد . فشق ذلك على ابن الحكم ، فذهب إلى أخيه وطلب منه  
أن يضربه الخمسين الأخرى ففعل <sup>(١)</sup> .

ولعل معاوية أمر بضربهما غضبا على إغشاهما ، أو لكراهته لهما معا :  
أما كراهته لابن حسان فلا أنه من الأنصار ، وأما لابن الحكم فلموقف آل  
الحكم من بيعة يزيد . إذ كان يظن منهم تهاونا ، فكان يخافهم ويخاف غيرهم ،  
مما أشرنا إليه في قصة إنشاد مسكين الدارمي .

لكن هذا الهجاء غاظ يزيد وآله ، وكره تطاول ابن حسان على قریش  
عامة وبنی أمية خاصة . وقيل إن هذا هو السبب الذي حمله على دعوة  
كعب بن جعيل ، ثم الأخطل ، لهجاء الأنصار .

#### معاوية والعصيات :

هذا الذي كان يبدو من يزيد ليس إلا صورة مما كان في نفس أبيه ،  
وكان يظهره حيناً ويخفيه حيناً . وكانما كان يريد بهذه السياسة أن يضرب



القبائل بعضها ببعض فيشغلها عنه ، وأن يغيب أهل العراق بالثناء على أهل الشام ، كي يزيد الفرقة بينهما . وأن يقرب بعضهم حيناً ويبعده حيناً . فآدى ذلك إلى انقسام هذه القبائل العربية فيما بينها ، وإلى تعصبها لماضيها وحاضرها . وقد شغل الشعر طول عهد بني أمية بالحديث عن هذه العصبية ، هجاء أو نغرا ، أو رواية لماثر الجاهلية ، أو غير ذلك . وأظهر ما كانت هذه العصبية بين مضر والين ، أو بين قيس وكلب ، أو بين نزار وقحطان . روى أن عمرو بن العاص كان يحرض معاوية على الانصار ، ويكره لهم هذا اللقب الذي شرفهم به القرآن والرسول ، ويطلب من معاوية أن يردهم إلى نسبهم القديم . وكان معاوية يميل إلى ذلك ، ومعاوية وعمرو من مضر ، والانصار من الين فاجتمعوا يوماً على بابه وفيهم النعمان بن بشير ، واستأذنوا ، فأمر حاجبه - وكان اسمه سعداً - أن يخرج فيناديهم بأبناء « عمرو بن عامر » أو على أنهم من الأوس والخزرج ، فلما فعل الحاجب وكره ذلك النعمان بن بشير وقال :

ياسعد لا تعد الدعاء فمالنا      نسب نجيب به سوى الانصار

نسب تخيره الإله لقومنا      أثقل به نسباً على الكفار

إن الذين ثوواً بيد منكمو      يوم القليب هم وقود النار

فلما رأى معاوية غضبه وانصرافه ساخطاً ، بعث إليه وترضاه ، وقضى حوائجه وحوائج من كان معه من الانصار ؛ سيامة ودهاء ، لا حبا وكرامة .

بل إنه كان يحمي عصبته من الحدود الشرعية ، فقد كان عبد الرحمن ابن أرطاة صاحب شراب ، وأراد عمرو بن سعيد بن العاص من أبيه ، وهو وال على المدينة ، أن يحده فقال أبوه : يا بني ، أضربه وهو حليف حرب بن أمية ومعاوية خليفة بالشام ! فلما حج معاوية لقيه بمنى ، فقال : إيه ياسعيد ، أمرك أحقك أن تضرب حليفى مائتى سوط ! أما والله لو جلده سوطاً جلدهتك سوطين ! فقال له سعيد : ولم ذاك ! أو لم تجلد أنت حليفك



عمر بن جبلة . فقال له معاوية : هو لحي آكله ولا أوكه ! وقد حد ابن أرملة  
في الخبر ولاية مروان . فكتب معاوية إلى مروان فأبطل الحد .  
وكم من أشباه هذا في الأدب الأموي بعد معاوية !

### بعض نتائج هذه السياسة :

فتح معاوية باب الشر بين القبائل بهذه السياسة ، وأصبح بأسهم بينهم  
شديدا في البلاد التي حلوها بسبب هذه العصبية ، حتى كانت سببا من أسباب  
ضعف الدولة وسقوطها . ولكنها أرهفت إحساس الشعراء ، وأثارت  
نفوسهم ، ودفعتهم دفعا إلى التفاخر بماضيهم ، والإكثار من الحديث عن  
هذا الماضي في أشعارهم . وديوان جرير مملوء بهذا ، كدواوين غيره من هذا  
العهد . وقد تجاوزوا الحد في الإقذاع . وهينوا للعباسيين سبيل القذف والتفنن  
في الهجاء ، فانتكروا الحرمات ، وقذفوا المحصنات ، ونبشوا القبور ، وصرحوا  
بالسوءات ، وكسب الأدب من ذلك على حساب الأخلاق والدين .

### معاوية والشعر :

إن بيئة معاوية التي نشأ فيها ، والأحداث التي عاصرها ، واستعداده  
الخاص ، وحسه المرهف ، كانت كلها من العوامل التي جعلته يتذوق الشعر ،  
ويقدره ، ويؤم بأثاره ، كما كان يقدر النثر الفنى الجميل ويمجده . وقد أشرنا  
فيما سبق إلى أثر الشعر في نفسه ، وإلى فضله في إقامة ملكه ، وفي البيعة لابنه  
وقد روى أنه قال : « اجعلوا الشعراء أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ؛ فلقد رأيتني  
ليلة الحرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض ،  
وأنا أريد الحرب لشدة البلوى ، فما حملني على الثبات إلا أبيات عمرو بن  
الاطنابة ، وقد سبقت هذه الأبيات .

وقد خاف لسان النابغة الجعدي ، وروينا قصة ذلك ، وأما روايته للأدب  
عامة ، وللشعر خاصة واستشهاده بمأثور القول . واقتباسه من رفيع الأدب  
خديشا مستفيض في رسائله وخطبه الكثيرة . وقد نسب إليه شعر ففعل



الرواة أبوا أن يحرموه هذه الميزة أيضاً ، ولا غرابة أن يكون معاوية أو غيره شاعرا ، لكن أين الأدلة التي تثبت للبحث والتحقيق ؟

روى أنه أرسل إلى سعيد بن العاص - وهو وال له على المدينة ، كتبنا إلى الذين كان يخاف منافستهم ليزيد ، ويعلم كراحتهم له ، ورفضهم لبيعتة . ومنهم ابن الزبير ، فكتب إليه رسالة من الشعر وهي :

رأيت كرام الناس إن كف عنهمو بحلم رأوا فضلا لمن قد تحلما  
ولا سيما إن كان عفوا بقدره فذلك أحرى أن يحلى ويعظما  
ولست بذى لؤم فتعذر بالذى أناه من الأخلاق ما كان ألما  
ولكن غشا لست تعرف غيره وقد غش قبل اليوم إبليس آدمما  
فما غش إلا نفسه في فعاله فأصبح ملعوننا وقد كان مكرما  
وانى لأخشى أن أنا لك بالذى أردت ، فيخزي الله من كان أظلمما

وقد روى كذلك أنه قال شعرا يلوم به والده أبا سفيان لما هم بالاسلام في فتح مكة ، وورد هذا الشعر في حديث للحسن بن علي - رضى الله عنهما <sup>(١)</sup> يعير به معاوية ، ويعيب موقفه من الإسلام . قال الحسن فيما قال : أتتسى يا معاوية الشعر الذى كتبته الى أهلك لما هم أن يسلم تنهاه عن ذلك :

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحننا بعد الذين بيدرا أصبحوا مزقا <sup>(٢)</sup>  
نحالى وعى وعم الأم ثالثهم وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا  
لا تركزن الى أمر تكلفنا والراقصات <sup>(٣)</sup> ، به في مكة الحرقا <sup>(٤)</sup>

(١) كان كلام الحسن زدا على عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة . لظعنهم فيه وفي أبيه ، وتوبيخا لمعاوية على سماحه لهم بالنطاول على هذا المقام الكريم ، مقام على كرم الله وجهه

(٢) جمع مزقة وهي القطعة من الثوب وغيره  
(٣) الابل تحب في سيرها كأنها ترقص ، ويحلف بها هنا لانه يقصد منها ما كان ذاهبا الى مكة للحج

(٤) والحرقى : سوء التصرف والحق



فالموت أهون من قول العداة: لقد جاد ابن حرب عن العُزى (١) إذا فرقا  
وينسب إليه شعر غير هذا . وهالك بعض القول في القطعتين :

القطعة الأولى : الحق أنى في حيرة من أمر هذا الشعر ، فالضعف  
والتكلف والرداءة كلها بادية فيه . ولكن من قال إن معاوية كان من فحول  
الشعراء ؟ ولكنه كان ذا ذوق أدبى ممتاز ، فكيف يرضى أن يكتب مثل هذا  
الشعر السخيف ، في مثل هذا الموضوع العنيف ! أعتقد أنه لو كان يمزج  
لما نظم مثل هذا النظم ، وكيف يتوقع من ابن الزبير أن يستجيب لدعوة  
كهنه ، شعرها مهلهل شبيه بأشعار الصبيان المبتدئين ! ولماذا آثر أن تكون  
رسالته شعرا إلى ابن الزبير وحده ، مع أنه كتب رسائل أخرى إلى ابن  
عباس ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن جعفر ، وكانت كلها نثرا ؟ وهل  
عهدنا في مثل هذه الأحوال أن يكون التراسل شعرا ؟ أكبر ظنى أن هذا  
الشعر افتعله شعراء من المنزلة الثالثة أو الرابعة ، ولعله من عمل المؤرخين  
في العصور المتأخرة ، عن لا ذوق لهم في هذا الفن ، وأراد هؤلاء أن يقولوا  
هذا الشعر الضعيف ، فجعلوا رد ابن الزبير عليه شعرا أضعف منه ، وإن  
معاوية ليستحي ، كما يستحي ابن الزبير ، أن يكون له شعر مثله .

القطعة الثانية : وهى التى لام فيها أباه إذ هم بالاسلام ، وحالها ليس  
خيرا من الأولى ، وقد لا يمنع من مثلها مانع . فالمسألة تتعلق بالدين ،  
وأبو سفيان كان يريد الخروج من دين معاوية وهند ، إلى دين الله ورسوله ،  
وينسى من قتل في بدر وغيرها من أشراف قومه ، وينزل عن سيادته في  
قريش ، ويصبح واحدا من عامة المسلمين لا من خواصهم . لكننى أشك  
فيها مع ذلك من الناحية الفنية ولنفس الأسباب التى أشرت إليها في القطعة  
الأولى . وأضيف الى ذلك أن هذه القطعة وردت في حديث الحسن ، ليطلعن  
في معاوية ، ويعيره بأنه لم يدخل الاسلام إلا مرغما ، وأنه كان يصد عن  
سبيل الله . وهذا نافع لمن يريد أن ينتفع به من الشيعة . لبيان أن معاوية كان



ينازع في الخلافة نزاعا باطلا ، لا يؤمله له بلاء في الجهاد ، ولا سابقة في الاسلام . وأرجح أنها موضوعة لهذا .

التشهير بعلي ومحنة أشياعه :

أما إحدى السكبر التي ارتكبتها معاوية فهي موقفه من علي كرم الله وجهه بعد موته . فقد أمر بسبه على المنابر ، وكتب إلى الأمصار بذلك ، وحمل الناس على هذه السيئة حملا ، عدا ما أخذ الناس به من الطعن في علي والبراءة منه . وقد رويت في ذلك أخبار عنه وعن أتباعه ، تجعل البلاء في هذه الفتنة شديدا بالفظائع التي كانت ترتكبها حاكم النفثيش في القرون الوسطى من تعذيب الخارجين على الكنيسة ، أو الراغبين عن الدخول في طاعتها . وقد نقل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ضرورة من ذلك عن محمد بن علي الباقر من ذرية الحسين جاء فيها :

« ثم لم نزل أهل البيت نستغل ونستضام ، ونقصي ونتمن ونحرم ونقتل ونخاف ، ولانأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لسكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم ، وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلدة ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المسكذوبة ، ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ، ليمغضونا إلى الناس . وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، فقتلت شيعةنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا ، سجن أو نهب ماله ، أو هدمت داره . ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال شيعة علي ، »

كما روى أن معاوية كتب نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة ، « أن برئت الذمة من روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة ، وعلى كل منبر ، يلغنون عليا ، ويبرءون منه ، ويقعون فيه



وفي أهل بيته . وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرته من بها من شيعة على عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام على عليه السلام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل . وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق ؛ فلم يبق بها معروف منهم . وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق : « ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة » وكتب إليهم « أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايته ، والذين يروون فضائله ومناقبه ، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم » . وأمرهم بدعوه الناس إلى الحديث عن فضائل عثمان ، فكان ذلك سبباً في وضع كثير من الأحاديث والأخبار المفتعلة في مدح عثمان وذم على ؛ لمن يريدون التقرب والعطاء الجزيل . كما حدث عكسه من شيعة على وأصحابه ، ويروى أن معاوية كتب إلى عماله أن يدعوا الناس إلى رواية فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، وأن يكثروا في ذلك ما استطاعوا كي يغطوا على فضائل سيدنا على ، وشغل الناس بذلك ، وعلموه الصبيان والغلمان والنساء والخدم ، وكثرت روايته حتى اختلط الصحيح بالفساد (١) هذه صورة مفزعة حقاً لما فعله معاوية تلحقه بمحاكم التفتيش ، وإن شئت فقل إن هذه كانت تقليداً ، لأنها جاءت بعده .

وكان للأدب مساهمة مؤلمة في هذا النزاع خطابة وشعراً ، وأخباراً مفتعلة ، وأحاديث موضوعة . وأشهر من اشترك في هذه المآسى معاوية وزيد ، فقد روى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبة عندما ولاه الكوفة ألا يمتنع « عن شتم على وذمه ، والترحم على عثمان ، والاستغفار له والعب على أصحاب على والاقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وأن يطرى شيعة عثمان

(١) جاء من هذا شيء كثير في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة



رضوان الله عليه ويدفيهم ويستمتع منهم (١). وظهرت شدة زياد وسفاهته، حتى في رده على كتاب جاءه من الحسن يحير فيه رجلا من شيعة سيدنا علي بالكوفة، فسكتب إليه زياد:

« من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة، أما بعد فقد أتاني كتابك، تبدأ فيه بنفسك قبلي وأنت طالب حاجة. وأنا ساطان وأنت سوقة، وتأمري في فيه بأمر المطاع المساط على رعيته، كتبت إلى في فاسق آويته، أقامة منك على سوء الرأي، ورضا منك بذلك. وإيم الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك، غير رفيق بك ولا مرع عليك، فإن أحب لحم على أن آكله للحم الذي أنت منه، فسلمه بجريته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن شفعتك فيه. وإن قتلته لم أقتله إلا لحبه أباك الفاسق، والسلام. »

هذا رده على الحسن رضوان الله عليه، فكيف تكون معاملته لشيعته! وأرسل الحسن هذا الرد إلى معاوية فعنف زيادا من أجله. ومن الانصاف لمعاوية أنه كان يفسح صدره لهؤلاء الكبار من آل علي، وكانت ألسنتهم حدادا عليه. « وجزاء سيئة سيئه مثلها ». أثر هذه الفتنة في الأدب:

أما ناحية الأدب الخالص في هذه الفتنة فقد كانت قوية شديدة عنيفة، كالخصومة نفسها، فلاضعف في الأسلوب ولا اضطراب في العبارة، ولا وهن في الحجج. وهي، كما نرى في رسالة زياد. تثير نفس القارىء، وقد تذهله عن حلمه وعقله. ثم يأتي تحلم معاوية فيهدى من هذه الثورات، ويكاد يبرئه من تبعة هذا العنف البادى في قول زياد. لكنها كانت سياسة مرسومة يمثلها قوله في كتابه إلى زياد « إنه لا ينبغي أن نسوس الناس بسياسة واحدة. ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأنا كون أنا للرفقة والرحمة،



كانت هذه الحركة العنيفة سببا في أعمال الخيال وتسجيع الاختراع في الأدب، فوضعت القصص و اخترعت الأشعار . فلموضوعات التي أشار إليها معاوية وحمل الناس عليها زياد وغيره ، لقيت رواجاً عند هؤلاء الوضعيين ، وأكثروا فيها القول وروى لنا بعضها على أنه حق جرى به لسان الرسول ﷺ ، أو أنه حقائق حدثت في تاريخ علي أو معاوية أو عثمان أو غيرهم ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان ، وسهل تمييز الحق من الباطل فيه ، ولكن حركة الاختراع ، أو الافتراء ، ظلت نشيطة فيما تبع ذلك من تصورات فساثت ، واختلط بعضها ببعض ، وصعب إرجاع هذه المفتريات إلى صورتها . ولو تم ذلك لاستطعنا أن نؤرخ لهذه القصص تأريخاً أدبياً نبين فيه مزاياها وخصائصها . ونحدث عن مصادرها . وأصل الخيال فيها . ومدى التفنن في تصويرها . لكن اختلاطها جعل ذلك عسيراً .

### المجالس الأدبية عند معاوية :

سبققت الإشارة إلى أنه كانت للأدب مجالس عند معاوية ، ولانستطيع القول بأنه كان يعقد للأدب الخاص مجالس خاصة ، أو أنه كان يعنى به به لذاته كما كان يفعل عبد الملك من بعده ، لكنه مزج الأدب بالسياسة ، وكانت مجالسه التي أريد بها الحديث في شؤون الدولة ، أو في تدبير بيعة يزيد أو استلحاق زياد ، أو إثارة بني هاشم ، مجالس أدب أيضاً : يجتمع فيها أعيان بني أمية وأنصارهم ، ويتحدثون في علي وآل بيته ، ويذكرون ماضي النزاع بين الفريقين ، ويروون ما كان من خطاب أو أشعار طم أو عليهم . وقد يفد على الشام بعض أولئك الأنصار أو الأعداء . وقد عني تاريخ الأدب بهذه المجالس وبالحديث عن الوافدين والوافدات على معاوية من آل البيت وغيرهم كان عباس وعقيل بن أبي طالب وللاوافدات عليه أدب مستقل

(١) عني الأستاذ أحمد بك أمين بالحديث من ذلك حديثاً فيها في كثير من موضوعات



كان معاوية وأصحابه يديرون فيه القول (١) ، ويروون الماضي ، ويهددون أحيانا ، ويمنون بالعفو والمثوبة أحيانا . وقد يذكرون عليا أو غيره بسوء فتشور ثائرة آله ، ويلقى معاوية أو أصحابه ما هم أهل له . على أنه قد روى عن هذه المجالس أحاديث في أخبار العرب وتاريخهم ، كالذى رواه المسعودى فى مروج الذهب (٢) . أن صعصعة بن صوحان دخل على معاوية فقال له : « يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبجأها ، فأخبرنى عن أهل البصرة ، وإياك والحمل على قوم لقوم » ، ثم سأله عن الكوفة وعن أهل الحجاز ، وعن مضر ، وعن ربيعة وغيرها ؛ وهو فى كل ذلك يرد عليه بإجابات مختصرة جامعة مسجوعة ، فى بعضها اجترأ على معاوية ، أو مدح لأهل الحجاز ، أو لقومه من ربيعة . ثم أمسك معاوية ؛ فقال له صعصعة : « سل يا معاوية وإلا أخبرتك بما تحيد عنه . قال وما ذلك يا بن صوحان ؟ قال أهل الشام . قال : فأخبرنى عنهم . قال : أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق ، عصاة الجبار ، وخلفة الأشرار . فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية والله يا بن صوحان . إنك لحامل مديتك منذ أزمان ، إلا أن حلم ابن أبى سفيان يرد عنك » . فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته . إن أمر الله كان قدرا مقدورا » .

ووفد عليه دغفل بن حنظلة النسابة ، من بنى شيبان ، مع وفد العراق فسأله معاوية عن كثير من قبائل العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأجابه دغفل على طريقة صعصعة بن صوحان الموجزة المسجوعة . وقال له معاوية فى ختام الحديث بينهما : « أنت والله يادغفل أعلم الناس قاطبة بأخبار العرب » .

وعرفت هذه باسم المحاورات والأجوبة (٣).

(١) - فى الحديث عن بعض هذه الوفادات فى ص ١٧٠ (٢) - ٢ ص ٧٨

(٣) روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد كثيرا من النوعين فخص الاول بقسم من كتاب سماه « كتاب الجمالة فى الوعود » والثانى بتسم آخر سماه « كتاب المجنبات فى الاجوبة » وورد بعض هذه فى كتب أخرى كالآمالى ومروج الذهب



## معاوية والغزل في الحجاز :

لم يكن الشعر قويا في الحجاز إلا بعد الإسلام ، وقد كان لظهور دعوة الاسلام الكريمة أثر كبير في ذلك ، بسبب استعانة كل من المسلمين والمشركون به في الحريث عن الاسلام . ولعل شأنه قد ضعف قليلا هناك في أيام الراشدين . فلما جاء معاوية سار على سياسة خاصة مع أعيان الحجاز ساعدت على ظهور الغناء وشعر الغزل ، واتبعها خلفاء بني أمية من بعده ، وذلك أنهم غنقوا على من عداهم من بطون قريش ، وحاولوا أن يصرفوهم ما استطاعوا عن السياسة ، وأعطوهم المال الكثير حتى أترفوهم ، وبقي العراق وحده يحمل لواء المعارضة لبني أمية بعد مقتل ابن الزبير . وانصرف فتيان الحجاز إلى اللهو ، يساعدهم المال والجاه والفراغ ، ويساعدهم كذلك ما كان عندهم من الجوارى الحسان العقول والأبدان ، وبالعاليات الأذواق ، وما كان عليه أهل الحجاز من ظرف ورقة . فأدى ذلك كله إلى شيوع الغناء . وأحسن ما يتغنى به هو شعر الغزل ، فعنى به شعراء منهم كابر أربعة . أسرفوا في التعرض للنساء ، العاكفات في الحجار ، والقادحات إليه من أنحاء المملكة الاسلامية للحج ، وكان بجانب هذا الغزل فكاهات وقصص ورواية أشعار ونوادر وملح وأخبار . ولنا حديث عن ذلك مطول إن شاء الله .

## معاوية ورواية الأخبار :

كان معاوية يعرف كثيراً من أخبار العرب وقليلا من أخبار غيرهم ، ولكنه كان يطلب في خلافته المزيد منها ، أو يطلب أن يروى له ما يعرفه ، حبا في هذه الأخبار لذاتها ، أو رغبة في الانتفاع روايتها من الناحية السياسية ، وكان يحب أن يروى له بعض أخبار العجم ، عسى أن يستفيد من ذلك سياسة أو تجديدا في أمور الدولة . وكان يشجع بالأموال ، أو بتعيين الرواة في عمل دائم لا شغل لهم فيه إلا أن يحدثوه بهذه الأحاديث وقد كان يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل ، فيقصون عليه أخبار العرب



وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها في رعيتهما ، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها ثم ينাম ثلث الليل ، ويقوم فيأتيه غلمان مرتبون ، وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرءون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك ، وأخبار الحروب ومكايدها ، وأنواع السياسات ، ، نقل ذلك جورجى زيدان عن المسعودى (١) . وعلق عليه بقوله : « والغالب في اعتقادنا أن تلك الكتب في اليونانية واللاتينية ، وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهانيبال ، وأن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية » . ويستمر جورجى زيدان في بيان سبب ذلك فيقول : « وسماع أخبار العظماء يستنهض الأمم إلى الاقتداء بهم . ولذلك كان أكثر القواد العظام الراغبين في العلا من العرب وغير العرب ، يستتلون أخبار من سبقهم من مشاهير القواد والسياسة للعبرة » .

ولا أدري السبب في قصر هذه الأخبار على أبطال اليونان والرومان ، يشير إلى أن هؤلاء الغلمان كانوا من الروم المتصلين بأخبار هؤلاء القوم ، غير أنه كان هناك قوم آخرون يعرفون أخبار الفرس وتاريخهم ، ويروون لمعاوية وغيره هذه الأخبار في الشام والعراق والحجاز ، لاتصال الفرس القوي بالعرب ، وشيوع أخبارهم بينهم من قبل الاسلام ، بسبب الصلات التجارية والسياسية ، والوفادات التي وفدها أعيان العرب على الأكاسرة .

وقد ذكر ابن النديم أن أول من ألف في التاريخ هو عبيد بن شريّة الجرهمي ، وكان في زمن معاوية ووفد عليه ، فسأله عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبليل الألسنة . وأمر افتراق الناس في البلاد . وقد استحضره من صنعاء الين لذلك فأجابه إلى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدون في كتاب وينسب إلى عبيد بن شريّة هذا ، وسمى هذا الكتاب ( كتاب الملوك وأخبار الماضين ) ولا وجود له . وهذا العمل أشبه بالقصص منه بالتاريخ .



## معاوية والقصاص :

وساعد معاوية على تقدم القصاص إذ عين له قوما مخصوصين به كما عين للأخبار . فقد روى عن الليث بن سعد (١) أن معاوية هو الذي جعل قصص الخاصة ، وولى عليه رجلا يقوم به ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ، وصلى على النبي ﷺ ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة ، ويرى أنه فعل ذلك ردا على ما بلغه من أن سيدنا علياً قُتِلَ فدعا على قوم من أهل حربه ، فأمر معاوية رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعوه ولأهل الشام . وهذه الصورة السابقة ليست من القصص في شيء ، ويخيل إلى أن ما ذكر هنا من تحميد ودعاء الخ كان مقدمات ونهايات للقصص . أما القصص ذاتها فكانت تتعلق بأخبار الأنصار أو الأعداء ، وبأضيهم وغنائهم . وشبه ذلك . ولا جديد فيها إلا أنها تلوّن بلون خاص يخدم السياسة ، ويفعل ما يتفق مع أغراضها . وإلا فمن طبيعة الحروب مثلا أن تكون فيها بطولة ، وأن تحدث أحداث غريبة ، وأن يرى المحاربون - ما يلفت نظرهم ويشير انتباههم وهم في غير ديارهم ؛ فاذا خلوا إلى أنفسهم أو رجعوا إلى قومهم تحدثوا بكل ذلك . وقد يغرق الخيال فيأتي بكثير من المبالغات .

فاذا انضم إلى ذلك أن معاوية أمر بسب على المنابر ، وكتب إلى ولاته بوضع القصص والأخبار في الطعن عليه أو في مدح عثمان وذكر فضائله ، عرفنا أثر معاوية في رواج القصص الخاصة والعامة في أيامه ، وكيف فتح الباب لمن أراد أن ينتفع بها بعده في خدمة السياسة أو العصبية أو غيرها .

## حرية القول في زمنه :

ونعني بذلك حرية الأدب والتعبير عن الآراء في عهد معاوية ، وأرى أن هذه الحرية ربما كانت مكفولة ، إلا فيما يتعلق بالأدب السياسي ، فلشعراء



أن يتغزلوا ، وأن يفخروا ، وأن يتهاجوا في شيء من الحرية . أما الأدب السياسي فكان مقيداً ، وما راد من هذه الحرية في مجالس معاوية كان محدوداً ، وخاصة بمجالسه . ومن هم أولئك الذين كانت لهم حرية الرأي ؟ إنهم آل البيت كالحسن والحسين وابن عباس وابن جعفر ، ويضاف إليهم ابن الزبير ، أو بعض أعيان العراق كالأحنف . ولم تكن حريتهم برضا من معاوية ، وإنما كانت شجاعة منهم وإيماناً بحقهم ، واعتداداً بمنزلتهم من الله والرسول . ولولا فضل هؤلاء في الناس ، وخوف الدولة منهم ، ومعرفتها لمنزلتهم عند العامة ، لحُرمت عليهم القول ، وأُجرتهم بهذه الشجاعة في التعبير عن الرأي أشد الجزاء عرف معاوية بالحلم وسعة الصدر . وروى عنه قوله : « لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل له وكيف ذلك ؟ قال كنت إذا شذوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها » . وقال في خطبته عام الجماعة : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القاتل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر (١) أذني وتحت قدمي » .

لكن حلمه هذا لم يكن مانعاً من الإرهاب ، والضغط السياسي ، والشدة على من يجاهرون برأي صريح يعارض سياسته . نرى ذلك في أمر البيعة ليزيد ، وفي اشتداده على كرام الصحابة : الحسين ، وابن عمر ، وابن أبي بكر ، وابن الزبير ، من أجلها ، فلما عرف رأيهم في هذه البيعة ألزمهم الصمت بحمل السيف في المسجد الحرام ، فبايع الناس مخدوعين يومئذ كما سبق . وقد سلب على الناس في عهده من كتموا أنفاسهم ، وقال لزياد في إحدى رسائله : « إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس سياسة واحدة . . . ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأنا للرأفة والرحمة » .

وقد استعان على ذلك برجال لا يقبلون رأياً مع رأيهم ، ولا يرضون بمعارضة سياستهم من أمثال زياد في العراق وعتبة بن أبي سفيان في مصر . وكان ابن زياد في العراق أقسى من أبيه . وكانت أسلحتهم في ذلك القتل



والتشريد وهدم الدور . وكان أيسرها التهديد ومنع العطاء . وأكثر ما كانت هذه الشدة على شيعة على في العراق . وكان زياد وأعوانه يفتشون عن دخائل نفوسهم ، ويعاقبوسهم عقابا شديدا إذا بدا من أحدهم ولاء أو قول حسن في أبي الحسن . ومن أشهر الذي أخذوا بمحبتهم له ، وحسن رأيهم فيه ، حجر بن عدى السكندی وأصحابه . أخذهم زياد أخذ عزيز مقتدر ، فأرسلهم بشر حال الى معاوية فقتل أكثرهم ، وأرسلت السيدة عائشة في حجر وأصحابه الى معاوية ، فقدم عليه الرسول وقد قتلهم ، فحزنت لذلك عائشة لما تعرفه من صلاح حجر وإيمانه .

لكنه كان عهداً أقل إرهابا بما وليه . ومع كل هذه القسوة ، والشدة على المعارضة ، ظهر الأدب الذي يخالف سياسة الدولة ، ويعيب رجالها ، ويهجو الخلفاء وعمالهم . وكان له صولة وجانب مرهوب . ولعل طبيعة البداوة كانت غالبية على كثير من هؤلاء الذين آثروا الصراحة والحرية ، كما كان للايمان العميق بالله وبالمبدأ أثره في هذه الصراحة ، فأقدم أولئك على ذم معاوية وأصحابه وعماله لا يبالون بما يلحقون ، دفاعا عن رأيهم الحسن في علي ، وظنهم السيء بمعاوية .

أكثر هذه الاشعار والخطاب المعارضة كانت تجر على أصحابها البلاء ، فاما أن يؤخذوا بأدبهم ، أو يتوبوا إلى خلفائهم ، أو يشتري الخلفاء والولاة أنفسهم وألسنتهم ، فيقيدهم العطاء ويطلق أدبهم بأحسن الشاء .  
خاتمة آثاره الأدبية :

آخر خطبه خطبها معاوية :

صعد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه ، وقبض على لحيته ، ثم قال :  
أيها الناس : إن من زرع قد استحصد (١) ، وقد طالت عليكم إمركي ، حتى مللتمكم ومللتموني ، وتمنت فراقكم وتمنيت فراقى ، وإنه لا يأتاكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيرا منى . وإن من

(١) استحصد الزرع نضج وحان حصاده



أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني أحبيت لقاءك فأحبيب لقاءى .  
ثم نزل فما صعد المنبر حتى مات

عنى الرواة بذكر الهيئة التى كان عليها معاوية عندما تهيأ للخطبة ، فذكروا أنه « قبض على لحيته » ، وربما كان يستعين بذلك على التفكير واستعراض الماضى ، أو لعله فعل ذلك غير متعمد ولا مريد له ، بسبب استغراقه فى التفكير . ثم خطب هذه الخطبة الى تتم عن يقظة الضمير ، ومحاسبة النفس والاحساس بالضعف عند اقتراب الاجل ، والتى تشير إلى إحساسه بكرهية الناس لطول عهده . فاقصص منهم ، وأخبرهم أنه ملهم كما ملوه ، وتمنى فراقهم كما تمنوا فراقه ، وهم مخطئون فى هذا التنبؤ ، فسيأتىهم بعده من هو شر منه ، ثم أشار إلى أنه لا يعبأ بهم ، وأنه أحب لقاء الله وهو أكرم منهم ، فانصرف إليه بالخطاب ، يسأله حسن القبول وحسن الثواب .

#### الخلاصة:

وخلاصة القول فى معاوية أنه كان أديبا سياسيا ، ظهر أمره فى تاريخ الأدب بعد مقتل عثمان ، واستمر طول خلافة على يدور حول موضع واحد هو اتهام على بقتل عثمان .

ثم جذب معاوية فحول الأدب إلى السياسة أيضا فى خلافته ، وشغل الناس — عمالا ورعية — بها ، فدار الأدب حولها طول خلافته تقريرا . وحمل العامة والخاصة على الطعن فى على بعد موته ، والحديث فى مناقب عثمان ، واخترعت لذلك قصص وأخبار وأحاديث .

وأحيا العصبية التى حاول الإسلام القضاء عليها . فثارت حمية الجاهلية ، وكثر الحديث عن أيام العرب وأخبارهم مشوبا بهذه العصبية القبلية . وكان ذلك فتحا لباب الشر الذى يمثله الهجاء ، وسبيلا إلى وضع كثير من القصص والشعر والأخبار لتأييد هذه العصبية أو الطعن فيها .

ووفدت عليه الوفود من أعدائه وأنصاره ، وجلس لها مجالس يحف به بطائنه وأعدائه . وكان فى هذه المجالس خطب ومحاورات وأجوبة تمتاز



بأسلوبها العنيف ، وحججها القوية ، ورواية الماضي ، وعدت هذه من أهم مظاهر الأدب في عهده وبعد عهده .

وكانت سياسته سببا قويا من الأسباب التي ساعدت على شيوع الغزل والفناء في الحجاز ، فاشتهر هذا القطر بهما طول عصر الدولة الأموية ، ثم استعان بالشعر خاصة ، والأدب عامة في خدمة أغراض سياسية ، وأجزل العطاء للشعراء ، وتغاضى عن مخالقات دينية من أجل السياسة .

### معاوية زعيم مدرسة أدبية ملكية

وسار على سنته هذه أكثر خلفاء الأمويين وولاتهم ، فكان معاوية بهذا زعيم مدرسة أدبية ملكية في الأدب العربي : أهم خصائصها :

(١) استخدام الأدب في السياسة إلى أبعد حد . والاستعانة بالأدباء لتأييد فكرة أو مذهب سياسي ، كما فعل معاوية في البيعة ليزيد ، وعبد الملك في البيعة للوليد ، وكما فعل الخوارج في تأييد مذاهبهم السياسية الممتزجة بالدين ، وكما استعان الأمويون عامة بالأخطل ، واستعان الشيعة بالكهنة .

(٢) العناية بالأدب القومي إنتاجا وحفظا واستشهادا واقتباسا : فرى ذلك في خطب معاوية ، وعبد الملك ، والحجاج ، وخالد القسري ، وهشام ابن عبد الملك ، وغيرهم ، كما نراه في روايتهم لأدب الجاهلية ، وحسن اقتباسهم من أشعار السابقين ، حتى كأنما قيلت تلك الأشعار للموقف الجديد الذي يستشهد فيه بهذه الأشعار . نجد ذلك في تأثر معاوية ليلة التحرير بأبيات ابن الإطنابة ، وفي استشهاد عبد الملك<sup>(١)</sup> لما خطب بعد مقتل مصعب ، بشعر قيس بن رفاعه ، وامتشهاد الحجاج<sup>(٢)</sup> بشعر رويشد بن رُميض العنبري ، وامتشهاد يزيد بن المهلب<sup>(٣)</sup> بشعر أبي دواد الأيادي في وصيته لابنه . ولهم أقوال ماثورة في فضل الشعر ، وأثره في قضاء الحوائج ، وتأثيره في

(١) الامالي ج ١ ص ١٣ (٢) العقد الفريد ج ٢

(٣) بلوغ الادب ج ٣ ص ١٧٣



النفوس ، تدل على مبلغ تقديرهم له وعنايتهم بأمره .

(٣) تشجيع الرواية لأخبار القبائل في القديم ، واستمتاع الخلفاء والولاة بهذه الأخبار ، واستخدامهم لها في السياسة .

(٤) جعل مجالسهم وحضرتهم أسواقاً أدبية ، يفد عليها الشعراء بمدائحهم ويتفاخرون بما آثرهم ، ويعودون إلى قومهم بعطائهم وخيراتهم .

(٥) تدخلهم في الأدب ، وتوجيههم للأدباء بما كانوا يوجهون إليهم من نقد ، ويشيرون عليهم من معان ، ويقترحون عليهم من موضوعات .

فجعد الملك لا يرضيه من الشعراء أن يشبهوه بالأسد ، ولا يعجبه بعض ابتداءات جرير أو ذى الرمة . والحجاج لا يرضيه قول ليلى الأخيلية فيه « إنه غلام » . وزفر بن الحارث لا يرضيه من القطامي أن يتمنى رد جميله يوم يقدر عليه . ولا نفسى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقد حاول توجيه الأدباء ، ولسكن إلى غير الهجاء والسياسة والغزل المكشوف ، فخرم الشعراء العطاء ، لما روى لهم أشعاراً يأبأها الدين والخلق الكريم .

(٦) غلبة التهديد على ما روى لنا من خطب هذه المدرسة . إذ كان أكثره في أعقاب ثورات وإخماد فتن . ومن أشهر هذه الخطب « البتراء لزياد ، وخطبة الحجاج عندما ولى العراق ، وخطبته بعد دير الجماجم ، وخطبة عتبة بن أبى سفيان فى مصر . وخطب يزيد بن المهلب فى خروجه على يزيد ابن عبد الملك .

(٧) كثرة الحديث الأدبى ، فى الخطب والأشعار والرسائل ، عن الملوك والأمراء ، على أنهم ظل الله فى أرضه ، ولا هم أمور الناس لأنهم خير الناس ، وأنهم لا يسألون عما يفعلون ، وعلى الناس الرضا بسيادتهم ، وشكر الله على ذلك ، لأنه نعمة منه عليهم ، وربما كانت هذه النظرية معروفة عند الفرس من قبل فى أيام الدولة الساسانية . وبدأها معاوية فى الخلافة الإسلامية ، ثم قويت من بعده عند خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس . وقد سادت هذه



النظرية في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوروبا وسميت نظرية الحق الإلهي «Divine Right» .

وامتدورت هذه المدرسة في القرن الثاني والثالث الهجري ، وإن اختلفت قليلا في رجالها ، إذ شارك الفرس العرب في مناصب الدولة ، وفي قوة البيان ، فكان منهم خطباء ممتازون ، كإبراهيم الذين جمعوا إلى ذلك رعاية الأدب والأحسان إلى الأدباء . وعنى الخلفاء والولاة في هذين القرنين بالكتابة ، لتقدمها على نحو لم يعرف عند بني أمية . أما ماعدا ذلك فكان الخلفاء وأكثر الولاة في هذين القرنين أشباه سابقهم من الأمويين ، في الفصاحة والتوجيه الأدبي ، وتقدير الأدباء ورعاية الأدب ، وخدمته للسياسة ، والعناية بأخبار الجاهلية والاسلام ، ورواية أشعارهما وتاريخهما ، مع مراعاة الفرق بين السياستين ، وإدراك ما تتطلبه العصية لهذه الأبرة أو تلك من توجيه الأدب لخدمتها ، والاتصاف لها على الأعداء .



## يزيد - عتبة بن أبي سفيان - زياد بن أبيه

(١) أما يزيد فقد تحدثنا عنه كثيرا فيما سبق ، وقلنا إن ولايته للعهد شغلت الأدب زمنا طويلا في حياة أبيه . وأشرنا إلى أنه شارك في توجيه الأدب فعلا ، إذ حاول إغراء كعب بن جعيل بهجاء الأنصار ، ونجح في حمل الأخطل على ذلك ، فأثار شاعرهم النعمان بن بشير على معاوية ، ودافع من دون الأخطل فوقاه ما كان يخشاه من عقاب ، وكافأه على هذا الهجاء . وكان ذلك أول تقديم الأخطل في قصور الخلفاء وإشراكه في سياستهم . وحدثت في عهده أحداث أثارت الأدب ثورة عنيفة في عهده وبعد عهده ، وبقيت بعض آثارها إلى الآن في بلاد المسلمين .

### مقتل الحسين بالعراق سنة ٦١ هـ

أما أول هذه الأحداث فهو خروج الحسين عليه السلام إلى العراق وقتله فيها في يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ . وقد جرت رسائل بينه وبين أنصاره هناك ، ثم بينه وبين أعدائه ، تدور كلها حول هذه الفتنة التي ذهب ضحيتها الحسين عليه السلام شهيدا .

### آثرها في الأدب :

ولقد شغلت حادثة قتل الحسين عصور الأدب في أكثر البلاد الإسلامية فقيل في رثائه الشعر الكثير ، وألف في مقتله الكتب الكثيرة ، واحتفل بذكراه احتفالات عظيمة . وكما ألقى في ذلك من خطب ، وكما أنشد من قصائد . ولما كان الجدير بالذكر أن المسرحيات الوحيدة التي ظهرت في تاريخ الإسلام كانت بسبب مقتله ، وفي ذكره ، وعلى الأخص في بلاد العجم . وكان يستمر تمثيلها عشرة أيام . ويقال إنها كانت تشمل تاريخ الحسين يمثل مقسما ، وكان بدء هذه في القرن العاشر الميلادي . ولم يعرف من المسرح



في تاريخ الاسلام إلا هذا النوع إلى أن كان العصر الحديث (١).

واقعة الحرة بالمدينة سنة ٦٣ هـ

والحادثة الثانية كانت وقعة الحرة في أواخر ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، وذلك أن أهل المدينة كرهوا خلافة يزيد بعد أن بايعوه ، ووفدت وفودهم عليه في دمشق ، وأظهروا طاعته ، وأخذوا جوائزه : فإنه في عهد إمارة ابن عمه ، عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، على المدينة ، أوفد إلى يزيد بدمشق وفدا من أشراف أهلها ، فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري ، وكان شريفا فاضلا عابدا سيذا ، فأعطاه مائة ألف درهم ، وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف ، وأعطى غيره من الأشراف مثل ما أعطاه . ولكنهم لما عادوا إلى المدينة أظهروا شتم يزيد وعييه ، وقالوا : « قد قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطناير ، ويضرب عنده القيان (٢) ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب (٣) والفتيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه . فتابعهم الناس فخلعوه . وأتوا عبد الله بن حنظلة فبايعوه . فلما علم يزيد بأمر خروجهم وأنهم حاصروا بني أمية في دار مروان ابن الحكم ثارت ثائرتة ، وقال متمثلا

لقد بدلوا الحكم الذي في سيجتي فبدلت قومي غلظة بليان

وعزم على قتالهم ، وأراد أن يعذر إليهم قبل أن يقاتلهم ، فبعث إليهم رجلا منهم هو النعمان بن بشير ، لينصح لهم ، فجاءهم وأمرهم بلزوم الطاعة ، وخوفهم الفتنة ، وقال لهم : لا طاقة لكم بأهل الشام . فلم تنفع نصيحته . ولما تجهز الجيش وعليه مسلم بن عقبة المري قال له يزيد : « ادع القوم ثلاثا فإن أجابوك وإلا فقاتلهم ، فإن ظهرت عليهم فأبجها ثلاثا ، فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فاذا مضت الثلاث فكفف عن الناس . »

(1) The History of the Theatre by Freedley & Reeves Page 186

تاريخ المسرح لمؤلفيه جورج فريدلي ، جون ريفز

(٢) من فسد دينهم .

(٣) الجوارى المغنيات



سار مسلم إلى المدينة ولقى بنى أمية في طريقه إليها بوادي القرى ودله عبد الملك بن مروان على خطة حربية ماهرة يستولى بها على المدينة . فلما وردھا دعا أهلها وقال لهم : « إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل ، وإنی أكره إراقة دماءكم ، وإنی أؤجلكم ثلاثاً ؛ فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه ، وسرت إلى هذا المحل <sup>(١)</sup> الذي بمكة ، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم . »

لم تكن هذه الدعوة ثمرة ، واقتتل الجيشان قتالاً شديداً ، وغلب أهل المدينة على أمرهم ، وأباح مسلم مدينة الرسول ثلاثاً لجنوده ، يقتلون الناس ، ويأخذون المتاع والأموال ، ويتهكون الأعراض — ثم دعاهم للبيعة على أنهم عبيد ليزيد ، يحكم في دماءهم وأموالهم ، فمن امتنع عن ذلك قتله . وانتهت هذه الحادثة المحزنة بهزيمتهم ، وهتك أعراسهم ، واستباحة هذه المدينة المقدسة ، التي حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم إبراهيم مكة .

ويعيب الشيخ الخضري <sup>(٢)</sup> على الفريقين موقفهما فيعيب على الأنصار قيامهم وحدهم بخلع خليفة صاحب دولة وجيوش ، وينعى على يزيد وأمير جيشه هذا الأسراف في الإساءة إلى هذا البلد الطيب وأهله الذين آووا ونصروا ويقول : « إنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار ، فإن المدينة تعتمد في طعامها وشرابها على مايجيء من الخارج . وما باله ينتقم هذا الانتقام بعد الهزيمة ! ألم يكن في قتل من قتل من ساداتهم مايشفي حزازات النفوس ! »

### أثرها في الأدب

أما من الناحية الأدبية فإن هذه الحادثة لم تشغل الأدب بقدر ما شغلته الحادثة السابقة ، فقد ذكرنا أن مقتل الحسين ظل مبعث حسرات وزفرات

(٣) عبد الله بن الزبير . وسمى كذلك لأنه أحل القتال في الحرم

(٢) تاريخ الامم الاسلامية - ١ ص ٥٢١



في قلوب كثير من المسلمين إلى الآن . وقد وجدت هذه النفوس الحزينة على مقتل الحسين ، والساخطة على فعل يزيد ، متنفساً لها في الأدب العربي ، وفي غيره من آداب الأمم الإسلامية الأعجمية . أما وقعة الحرة فلم تثر ثائرة الأدباء إلا قليلاً من الخطابة في حينها ، وشيئاً من سخط المؤرخين وتعليقاتهم بعدها .

### حصار مكة سنة ٦٤ هـ

والحادثة الثالثة هي حصار مكة . وقد رأينا في دعوة مسلم لأهل المدينة أنه كان يرغب في الانصراف عنهم إلى هذا « المحل » بمكة . فلما انتهى منها استخلف عليها روح بن زنباع الجذامي وخرج إلى مكة بجيشه فقات في طريقه إليها ، فولى أمر الجيش الحضيض بن نمير السكوني . وسار إلى ابن الزبير الذي كان قد امتنع بها ، ودعا لنفسه ، وبايعه أهل الحجاز .

ولما علم الخوارج بمسير جيش الشام إلى مكة خرجوا إليها لينعوا الحرم منه ، فسر ابن الزبير بمقدمهم ، ونبأهم أنه على رأيهم . فوقفوا معه يدافعون عن البيت حتى مات يزيد ، ففك الجيش حصار البلد الحرام ، وناظر الخوارج ابن الزبير فلم يرضوا عن قوله ، فتركوه وذهبوا إلى العراق والآهواز .

### أثرها في الأدب

وهذه الحادثة كانت وسطاً في تأثيرها الأدبي فلم تبلغ من التأثير الخالد ما كان لمقتل الحسين ، ولم ينته أدبها عند هذا الحد ؛ لأن ابن الزبير استطاع أن يسيطر على أكثر البلاد الإسلامية زمناً حتى قتل سنة ٧٣ هـ . واستمر يتخذ من حصار الكعبة معيناً لأدبه في الطعن على بني أمية ، وسمى نفسه « العائد » لأنه كان عائداً بالبيت الحرام .

بعد هذه الحوادث الثلاث الكبرى نستطيع أن نتحدث عن يزيد أدبياً تأثر إنتاجه بشخصيته ونفسيته وتعاليم أبيه : أقام يزيد أكثر حياته بالشام ، بعيداً عن المواطن المقدسة في مكة



والمدينة فكان رقيق الدين ؛ وعاش مترفا فشغل باللهو . وروى أنه جلس ذات يوم على شرابه وعنده ابن زياد فقال لساقيه :

اسقني شربة تروى مُشاشي <sup>(١)</sup> ثم صل فاسق مثلها ابن زياد  
صاحب السر أو الأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

وكان له قرد يكنى « بأبي قيس » يحمل على أتان وحشية ، يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء في بعض الأيام سابقا ، وكان عليه قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشهر « مخطط » وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان ؛ وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ، ملع بأنواع من الألوان . فأثار ذلك شاعرية واحد من شعراء الشام فقال :

تمسك ، أبا قيس ، بفضل عنانها <sup>(٢)</sup> فليس عليها إن سقطت ضمان  
ألا من رأى القرد الذي سبقت به جياد أمير المؤمنين أتان  
وربما قيل في طوه أكثر من هذا وأهمله الرواة .

أما عصيته الجاهلية فكانت واضحة في ضغينته على الانصار ، لأنهم أذلوا آباءه في بدر ، ودخلوا مكة مع الرسول ﷺ عندما جاء نصر الله والفتح . وكانوا شيعة على كرم الله وجهه وأعدائه على معاوية . فلما انتصرت جيوش يزيد عليهم في وقعة الحرة ظهرت هذه العصبية واضحة ، إذ تمثل يزيد بقول عبد الله بن الزبيري ، شاعر قریش يومئذ :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل <sup>(٣)</sup>  
لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا : يا يزيد لا تشك <sup>(٤)</sup>  
فجزيناهم ببدر مثلها وأقمنا ميل بدر فاعتدل

(١) بضم الليم : النفس (٢) بكسر العين : الهجم (٣) الرماح والنبيل  
(٤) أهلوا واستهلوا : رفعوا أصواتهم . لا تشك : لا شلت يدك : دعاء له : وهذا البيت ليزيد :



ونسب إليه شعر قاله عندما بلغه موت أبيه ، ومنه :

أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه      كانا جميعاً فأتا قاطنين معا  
أغر أبلج يستسقى الغمام به      لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا  
والشطر الأخير فيه روح الجاهلية التي تفتخر بالأحساب لا بصالح  
الأعمال ، ولكنه كان قارئاً للقرآن يحسن اقتباسه في الشدة . فقد روى أنه  
لما سمع بخروج أهل المدينة كتب إليهم :

أما بعد « فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد  
الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ،  
وقد نسبت إليه خطب قام فيها مقام الواعظين الصالحين ، منها خطبته بعد  
موت أبيه ، وخطبة أخرى تحدث فيها فأكثر من الاقتباس من القرآن ،  
وتضمنين أسلوبه ، وختمها بآخر سورة التوبة . (١)

أما أخذه عن أبيه واقتداؤه به فيظهر من كلام له بعد مقتل الحسين ،  
فإنه قال لمن عنده : أتدرون من أين أتى هذا ؟ ( يعنى الحسين ) قال أتى خير  
من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير  
منه وأحق بهذا الأمر . فأما قوله أبوه خير من أبى فقد تحتاج أبى وأبوه إلى الله  
وعلم الناس أيهما حكم له . وأما قوله أمه خير من أمى فلعمرى ، فاطمة بنت  
رسول الله خير من أمى ، وأما قوله جده خير من جدى فلعمرى ، ما أحد  
يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا ندا . ولكنه إنما  
أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء » .  
وأدبه على قلته قوى صارم موجز صريح ، لا ضعف ولا لين في أسلوبه ،  
يصيب موضع الاستشهاد بالشعر والقرآن . ولعله لو عمر لظهر أدبه ، وكان له  
شأن في توجيهه كشأن أبيه ، لكنه حكم قليلاً ومات سنة ٦٠ هـ شاباً .



## (٢) عتبة بن أبي سفيان :

أخو معاوية وأحد عماله ، وعرف في الأدب بخطبه التي قالها في أثناء ولايته على مصر . وقد وليها بعد وفاة عمرو بن العاص في شوال سنة ٤٣ هـ وكان شديداً عليهم لانتقامهم في مقتل عثمان . ومن يقرأ خطبه في أهل مصر يراه من نوع زياد والحجاج ، في العنف والقسوة والتهديد والتحذير قبل البطش . وقد روى له العقد الفريد ثلاث خطب فيهم لا تخرج كلها عما قدمنا ، وهذه إحداها : بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

يا أهل مصر ؛ إياكم أن تسكونوا لل سيف حصيدا ، فإن الله فيكم ذبيحا لعثمان ، أرجو أن يوليني نسكه . إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفركة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة منه عليكم . وقد بلغنا عنكم نجم قول <sup>(١)</sup> أظهره تقدم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، يا حياء الفتنة ، وإماتة السنن ، فأطأكم لله وطأة لارمق معها <sup>(٢)</sup> ، حتى تنكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشونوا ما كنتم تستأينون ، وأنا أشهد عليكم الذي « يعلم خائنه الأعين وما تخفي الصدور » .

وخطب أيضا وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

« يا حاملي ألأم أنوف ركبت بين أعين ! إنما قلت أظفاري عنكم ليلين مسي إياكم ، وسألتكم صلاحكم لسكم ، إذ كان فسادكم راجعا عليكم . فأما إذ أبيتكم إلا الطعن على الأمراء ، والعتب على السلف والخلفاء ، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت مستشري دائكم <sup>(٣)</sup> ، وإلا فالسيف من ورائكم . فسكم من عظة لنا قد صمت عنها آذانكم ، وزجرة منا قد مجتها قلوبكم . ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، إذا جدتم علينا بالمعصية ،



ولا مؤيسا لكم من المراجعة إلى الحسنی ، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى ،<sup>(١)</sup> ومن هاتين الخطبتين يتبين لنا أسلوب عتبة الذي آثره في التهديد . فهو يحاول أن يبرأ من كل تبعة ويلقيها عليهم . فعل الخطيب الملق ، ويمين أنهم إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فلها . ثم نراه يكثّر من السكنايات والاستعارات والمحسنات بلا تسكف : فيعبر عن لؤم النفوس بلؤم الأنوف ، ويعبر عن تسامحه بتقليل أظافره ، ويقابل بين بطون السياط وظهورهم ، ويتهمهم ! فيخبرهم أنه لا ييخل بالعقوبة إذا جادوا بالمعصية . ويستخدم الفقرات القصيرة والسجع اللطيف ، فيكون له من ذلك كله أسلوب خطابي قوى يصلح لهذا الموضوع العنيف .

وله حديث في مجلس أخيه معاوية وجهه إلى الحسن رحمه الله ، فكان فيه كما كان في خطبه ، حديد اللسان ، إذ قال له :  
ياحسن ، كان أبوك شر قريش لقريش ، لسفكه لدمائها ، وقطعه لأرحامها ، طويل السيف واللسان ، يقتل الحي ويعيب الميت . وإنك ممن قتل عثمان ونحن قاتلوك به . وأما رجائك الخلافة فلست في زندها<sup>(٢)</sup> قادحا ، ولا في ميزانها راجحا . وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان ، وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به . فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقادمه . ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان . ،

وقد أجابه الحسن بما أخزاه وفضحه يومئذ . ونحن في هذا الحديث أمام الأسلوب الذي قدمناه في الخطابة من فقرات قصيرة ، وإيجاز واف ، وسجع غير مصطنع ، وسهولة ووضوح بيان .

### وصيته لمؤدب أبنائه :

أما وصيته لعبد الصمد مؤدب ولده فحديث رجال التربية عنها حديث جميل ، لما وضع فيها من خطط قوينة في التربية : قال له :

(١) العقد ، ص ٨ والامالي ، ص ٢٤٥ . (٢) يعني أنه يصلح لها .



«ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت . وعليهم كتاب الله ولا تكررهم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيجروه . ثم روههم من الشعر أعفه ومن الحديث أشرفه . ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، وتهدهم بي ، وأدبهم دوني . وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء . وجنبهم محادثة النساء ؛ وروهم سير الحكماء ؛ واه تزدي بزيادتك إياهم أزدك . وإياك أن تتكل على عذر مني لك ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وزد في تأديبهم أزدك في برى إن شاء الله تعالى .»

وما أكثر الوصايا في الأدب العربي ، في الجاهلية والإسلام ، وكانت هذه في أغراض شتى وفي ظروف مختلفة ، فكانت من الحكماء للعامة ، ومن الآباء للأبناء ، ومن أهل الفضل والسياسة للخلفاء والأمراء ، ومن الخلفاء للجنود ، ومن الأمهات للبنات عند الزواج وهكذا . ولكن هذا النوع الأرستقراطي ، وهو وصايا الأعيان لمعلمي أولادهم ، جديد في الأدب أدى إليه رقي الحضارة . واشتغال قوم بالتعليم ، يستدعيهم الخلفاء والكبراء إلى قصورهم ، لتعليم أولادهم ، ويرسمون لهم خطة عامة يسرون عليها في تأديبهم .

ووصية عتبة هذه من أقدم الوصايا في نوعها ، وإذا كان تاريخ الأدب يعني بها ، لدالاتها على حرص رجال الدولة أن يتعلم أولادهم الشعر العفيف ، والحديث الشريف ، كما أوصى عتبة ، فإن رجال التربية يحرصون على الحديث عنها إذا تكلموا في تاريخ التربية العربية ، لما فيها من توجيه قيم . فقد عرف عتبة أثر القدوة ، فدعا معلم ابنه أن يبدأ بإصلاح نفسه ، وأدرك طبيعة التقليد في الأولاد واتباعهم آثار معلمهم ، ثم عرف أن حمل التلاميذ على العلم قسرا يسئ إليهم ، ويبغضهم فيه . وأما وصيته لهذا المؤدب ألا يخرج أبناءه من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فلا أظن التربية الحديثة توصي بخير



من هذا إذا فهمنا أن المقصود بالعلم « النقط » أو « الموضوعات الجزئية » .  
والواجب ألا ينتقل التلميذ من جزء من الدرس إلى غيره حتى يفهمه على  
وجهه الصحيح . وتعليل عتبة لهذا الجزء من الوصية تعليل لطيف قال : « فان  
ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم » ، وذلك صحيح إلى حد كبير ، فان  
تراحم المعلومات في الذهن يدعو إلى الخلط والاضطراب ، إلا إذا رسخت  
في حينها ، ولم تتراحم قبل تثبيتها . وقد نفهم كثيرا من دعوته لهذا المؤدب  
أن يكون كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، فذلك دعوة إلى  
تعرف نواحي الضعف فيهم ، وتهذيبهم بقدر ، وتعليمهم ما تدعو الحاجة إليه  
قبل غيره ، مع ملاحظة أعمارهم واحتمال عقولهم الخ . ولم ينس أن يفتح له  
باب الأمل إذا أخلص في تعليمهم أكثر ما يمكن من العلم ، فان ذلك يشرح  
صدره ، ويدعوه إلى بذل الجهد ، وذلك إذ يقول له : « وزد في تأديبهم أزدك  
في برى إن شاء الله تعالى » .

أما المواد التي حرص عليها عتبة فتكاد تشمل ما كان معروفا من المواد  
في ذلك الحين ، وهي كتاب الله تعالى ، والشعر ورواية الأخبار ، وسير  
الحكام .

ولو أراد رجال التربية أن يكتبوا في تفسير هذه الوصية صفحات  
أخرى لمساعدتهم ما في هذه الوصية الموجزة من المعاني . وهي في ذاتها دليل  
على اتزان عتبة في وصيته ، ودقة إحساسه بما يجب في تعليم أبنائه . وعتبة  
كغيره من رجال الأدب في ذلك العصر يؤثر الإيجاز ، ويكتفي بالإشارة ،  
مع الوفاء بحقوق المعنى ، والاعتماد على ذكاء القارئ وحسن تفسيره . أما  
حسن التعبير ، وحلاوة التركيب المبنية على السهولة والوضوح ؛ وعلى جمال  
النسيج بلا تكلف ؛ فظاهرة في هذه الجمل القصيرة ، التي يزينها السجع ، الصادر  
عن الطبع . وفي توازن الفواصل وحسن التأليف . وواضح من نظامها - أو  
عدم نظامها - أنها وصية أدبية ، لا قواعد علمية ، ولهذا أشرنا إليها في الحديث  
عن الأدب .



(٣) زياد :

أما زياد فعلم من أعلام الخطابة خاصة ، والبيان عامة ، في ذلك العصر وهو جدير بعناية تاريخ الأدب ، لخطبه الباقية ورسائله الشديدة ، وفصاحته وسياسته وحمدة ذكائه . وقد وهبه الله عقلاً رشيداً ألف به بين الفصاحة والسياسة ، فكانت سياسته ميدان فصاحته ، فخطب أشهر خطبه فيها ، وكتب أقوى رسائله التي جرت بينه وبين معاوية وغيره حولها .

وقد كان زياد من أولئك الأفاضل الذين تظهر مواهبهم مبكرة ، فتحمل الناس على أن يفسحوا لهم الطريق راضين أو مرغمين . وما ظنك بسلام حدث ليست له سابقة في الاسلام يلي أموراً عظيمة في خلافة عمر ، ثم يفد على المدينة ليخبر الخليفة ، فيأمره أن يخطب الناس به على المنبر ، فيحسن في خطبته ويجود ، وفي المسجد كبار الصحابة ، فلا يتلجج ولا يرهب السامعين وهو غريب فيهم . ولا يخشى الزلل وهو شاب يتحدث إلى شيوخ . وقد كان على ثقة من نفسه ، عندما دعاه عمر ليخطب وخشى عليه ، فقال له زياد : يا أمير المؤمنين إني لا أهاب أحداً في الارض أكثر منك ، وقد حدثتك مطمئناً ، فما أرهب موقفاً بعد حديثي إليك . فلما أجاد في خطبته قال عمرو بن العاص : لله أبو هذا الغلام ! لو كان قرشياً لساق الناس بعصاه ! فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشي ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك . فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا . قال : فما يمنعك أن تدعيه ؟ قال : أخشى هذا القاعد على المنبر « يعنى عمر بن الخطاب » أن يفسد على إهابي : وقيل : إنه كان كاتباً لولاية البصرة <sup>(١)</sup> وكانت وفادته على عمر من عند أبي موسى الأشعري ليرفع إليه حسابه فأمر له عمر بألف درهم ، ومنعه العودة إلى عمله ، لما رأى من شدة ذكائه ، فقال لعمر : يا أمير المؤمنين أعن خيانة عزلتني أم عن تقصير ؟ قال : لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على الرعية .



كان ذلك في سن مبكرة ، وكان زياد حوالى العشرين ، وكان على يسمع هذا الحديث من أبى سفيان . وكان يعرف ذكاء زياد ومقدرته ، فلما ولى الخلافة استعان به فى أعمال عظيمة ؛ وقتل على ، وزياد على فارس بلى أمورهما ويجبى خراجها ويحميها ، فخاف معاوية جانبه ، وأشفق أن يكون وليا للحسن كما كان لأبيه ، وكتب معاوية إليه كتابا شديدا يدعو إلى الطاعة ، فرد عليه زياد بكتاب أشد منه وأقسى ، جاء فيه :

« فأما سبك لى فلو لا حلم ينهانى عنك ، وخوفى أن أدعى سفيها ، لاثرت لك مخازى لا يغسلها الماء ... وأما زعمك أنك تحتظنى بأضعف ريش . وتتناولنى بأهون سعى . فهل رأيت بازيا يفزعه صغير القنابر ؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟ فامض الآن لطيتك (١) واجهد جهدك . فلست أنزل إلا بحيث تذكره . ولا أجهد إلا فيما يسوءك . وستعلم أينما الخاضع لصاحبه الطالع إليه . والسلام »

وخشى معاوية شره واستعان عليه بالمغيرة بن شعبة فوعده ومناه . كما وعده معاوية ومناه . وألحقه بأبى سفيان . وولاه البصرة وأمورها مخطربة ، والامن فيها مختل ؛ فبقى واليا عليها حتى مات المغيرة بن شعبة والى السكوفة ، فجمعهما له سنة ٥٠ هـ . وبقى واليا حتى مات سنة ٥٣ هـ .

عرف زياد بالذكاء وحسن الإدارة والقسوة على المخالفين . ورويت له فى ذلك أخبار أشهرها قسوته على أهل البصرة ، حتى أمن السبل وأقر الأمن . أدبه صورة من نفسه :

وكانت حياته الأدبية صورة من حياته فى السياسة ، وصدى لما فى طبعه من شدة وقسوة ، وما فيها من إحساس بضعف النسب ، فأراد أن يشغل الناس عنه بهذه الشدة ، وبما وهبه الله من قوة البيان وقوة العقل . ونستطيع أن نرجع أدبه إلى هذه العوامل كلها مجتمعة . أما المواقف التى ظهر فيها هذا الأدب فكان أكثرها فى أيام معاوية ، ولا يكاد يذكر له الرواة أدبا قبل ذلك ، مع أنه كان له خبر مشهور من قبل عهد معاوية بعشرين



عاما ، كثر الأخذ والرد بينه وبين معاوية في ضمه إليه ، واستلحاقه بأبي سفيان . ولجأ معاوية إلى الدهاء والحلم حتى استجاب له زياد ، وشايعه في كراهة على وشيعته ، بعد أن كان عنيفا في خصومته لمعاوية . وتظهر لباقة في التهديد لهذا التغير ، بخطبة خطبها في الناس ، لما جاءه المغيرة بن شعبة بكتاب (١) من عند معاوية ، يتلطف فيه ، ويستدنيه منه . وانضم إلى الكتاب دهاء المغيرة أيضا . فترث زياد يومين أو ثلاثة يفكر ثم جمع الناس فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيد يذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصفين ، ما ينيف على مائة ألف ، كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فان كان الأمر هكذا ، فالقاتل والمقتول في الجنة . كلا : ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم . وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرئ بسلامة دينه ؟ وقد نظرت في أمر الناس فوجدت أحمد العاقبة بين العافية . وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته (٢) ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وأدرك زياد قوة بيانه ، وقدرته على اللعب بالآهواء والعقول ؛ في كتابه الذي أرسله إلى معاوية بعد هذه الخطبة ، ردا على رسالته التي بعث بها إليه مع المغيرة قال فيه :

« إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ؛ وأردت بذلك برا ، فستزرع في قلبي مودة وقبولا . وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا ، وفساد نية ؛ فان النفس تأتي ما فيه المطب . ولقد قمت يوم قرأت

(١) أوردنا بعض هذا الخطاب في ص ٦٨ من هذا الكتاب .

(٢) المغبة : للعاقبة



كتابك مقاما يعيا به الخطيب المدره (١)، فتركت من حضر، لا أهل ورد ولا صدر (٢)، كالمتهيرين بمهمته (٣) ضل بهم الدليل، وأنا على أمثال ذلك قدير، . وختم كتابه بأبيات من الشعر .

تحس من هذا القول الأخير أنه خطب تمهيداً للتحويل من الولاء لعل وأهله، إلى الولاء لمعاوية، والرضا بفكرته في استلحاقه . وهو تمهيد يحتاج إلى لباقة، وحسن دخول على العهد الجديد، بحيث يتقبل الناس منه هذا التحويل بقبول حسن . ووضح هذا في خطبته، بدعوة الناس إلى أن يدفعوا البلاء ما اندفع عنهم، وأن يرغبوا إلى الله في دوام العافية . ثم يشكسكهم فيما كانوا يعتقدون أنه حق منذ قتل عثمان، وقال إن الأمر أشكل على الناس وإن أحمد العاقبتين العافية . وبهذا هيأ نفوس الناس لطاعة معاوية، وأعد أذهانهم لقبول خلافة أخرى تعادى خلافة على . ومثل هذه المواقف بما يعيا به الخطيب المدره، فاذا نجح الخطيب في أن يتركه من حضر، لا أهل ورد ولا صدر، كالمتهيرين بمهمته ضل بهم الدليل، وتركهم يتشوقون إلى منقذ من هذا الضلال، يسلمون إليه قيادهم طائعين راضين . فقد نجح في خطبته نجاحاً كبيراً

### أثر الدين في أسلوبه :

لم يكن زياد يقتبس من القرآن أو الحديث في خطبه، ولا يشير إلى آدابهما أو أحكامهما في هذه الخطب . وربما كان ذلك ناشئاً من مخالفته عن أمرهما . وتجده هذه المخالفة واضحة في خطبته « البتراء » فانه أقسم بالله ليأخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والمطيع بالعاصي

(١) المدره بكسر الميم، المتكلم بلسان القوم عند الخصومة .  
(٢) الورد بكسر الواو الاشراف على الماء . والصدر : بفتح الصاد والdal : الرجوع من الماء : والمراد تركتهم متحيرين لا إلى هذا الرأي ولا ذلك .  
(٣) المهمه : المفازة والبلد القفر .



والصحيح بالسقيم ، وتلك سياسة يأبأها الدين ، وعلق على ذلك أبو بلال مرداس بن أدية همسا فقال : « أنبأنا الله بغير ما قلت : قال الله تعالى : « وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدير . فسمعه زياد فقال : « إنا لا نبليغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً » .

أما رسائله فجاء فيها هذا الاقتباس في موقف يظهر فيه الضعف الإنساني في أجلى معانيه ، عند المصيبة في الأولاد ، أو الخوف عليهم . وذلك أنه لما امتنع بفارس ، وأبى أن يحمل إلى معاوية ما طلبه من الأموال التي في يده ، وأن يُقبل عليه ، أخذ بُسر بن أبي أرطاة أبناءه الكبار فحبسهم ، وكتب إلى زياد :

« لتقدمن على أمير المؤمنين أو لآقتلن بنيك » . فكتب إليه زياد : « لست بارحاً مكانى الذى أنا به حتى يحكم الله بينى وبين صاحبك ، فإن قتلت من في يديك من ولدى ، فالمصير إلى الله سبحانه ، ومن ورائنا ومن ورائكم الحساب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . ولولا أبو بكر أخو زياد ، ورحلته إلى معاوية في شأنهم ، لقتلهم بسر أو صلبهم .

أما أثر ولادته مغموماً بالنسب في نفسه فقد ظهر على لسانه أكثر من مرة . فتراه يدفع التهمة عن أمه باتهام غيره ، ويعيرهم كما عيروه : كتب إليه معاوية وهو بمتمتع بفارس : « أمس عبد واليوم أمير ! خطبة ما ارتقاها مثلك يابن سمية » . فكتب إلى معاوية : « وأما تعيرك لى بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حمالة (١) » . ولما استلحقه معاوية بشهادة الشهود الذين أعدهم لذلك بدا عليه الفرح بهذا النسب في قوله : « أيها الناس ، هذا أمر لم أشهد

(١) حمالة : جدة معاوية ، أم أبيه أبى سفيان . وكانت بقيا في الجاهلية صاحبة داية .



أوله ، ولا علم لي بآخره . وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم . فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس ، وحفظ منا ما ضيعوا . وكان حريصا على أن يكتب إلى الناس وأن يكتبوا إليه منسوباً إلى أبي سفيان ، وكتب إلى عائشة رضوان الله عليها كتاباً بدأه :  
« من زياد بن أبي سفيان » .

فردت عليه : « من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد ، ومن رسائله التي جاوز فيها حد الأدب ، وتدل على درجة سافلة من من الشتم ، رسالة <sup>(١)</sup> كتبها إلى الحسن بن علي رضي الله عنه ، لأنه خاطبه ولم ينسبه إلى أبي سفيان ، وقدم نفسه عليه . فكتب إليه زياد :  
« من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة . أما بعد . فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي . . . الخ . فلما ورد الكتاب على الحسن عليه السلام قرأه وتبسم ، وكتب بذلك إلى معاوية ، وبعث كتاب زياد معه إلى الشام ، وكتب رداً على زياد :

« من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمية ،  
« أما بعد فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، والسلام » .

وقد أنصف الحسن إذ نسب نفسه إلى أمه ، ففضلها ومنزلتها وشرفها تسمو بكل من ينتسب إليها ، ولا يقارن بها مثل أم زياد إلا عند مقارنة الأضداد . وقد تكفل معاوية في رده على زياد ببيان هذه المقارنة فقال له :  
« وأما كتابك إلى الحسن باسمه واسم أمه ، ولا تنسبه إلى أبيه ، فإن الحسن ، ويحك ! من لا يرمى به الرجوان <sup>(٢)</sup> ، وإلى أي أم وكلته لا أم لك !

(١) سبقت هذه الرسالة من ٩٦

(٢) مثني رجاء كعصا ، والرجوان جانب البئر من أعلاها إلى أسفلها والمراد من لا يستهزأ به ولا يستهان .



أما علمت أنها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذلك أخبر له لو كنت تعلمه وتعقله .

وربما حمل بطش زياد وشدة على ضعة نسبه ، في عصر علا فيه شأن الأنساب ، والتفاخر بالآباء ، والذي أشعره بهذا الضعف وقواه فيه هو معاوية ؛ كي يستلحقه بنسبه ، فيستعين بدهائه وكفايته على أمور دنياه وتوطيد ملكه ، وقد أثارت هذه المسألة كثيرا من الجدل حوله وحول أمه . وكان يؤلمه أن يكون للناس آباء ولا أب له ، وأن يكون نسبه موضع غمز وطعن . فجمع أنساب القبائل في كتاب ، ودفعه إلى ابنه . ليستعين به على رد المطاعن إذا هوجم . ولم يظهر لهذا الكتاب خبر غير ما أخبر به ابن النديم . فاذا صح هذا كان زياد أول من ألف في الأنساب .

وقد تذكر له أخبار في حرصه على الفصاحة وتألمه إذا سمع لحنا . وهذا طبيعي من عربي فصيح مثل زياد تؤذى سمعه العجمة ، وينفر طبعه من اللحن .

وكان له شأن مع بعض الشعراء ؛ إذ كانت هذه الناحية ناحية نفدوا منها إلى زياد فأكثروا من الطعن فيه ، وفي أولاده من بعده . وليزيد بن مفرغ الحيمري شيء من هذه المطاعن في سمية أو في ذريتها .

وكان الفرزدق يخشاه ، وهجر البصرة لما طلبه ، وفر منه إلى سعيد بن العاص وهو وال على المدينة لمعاوية وقال :

ألا من مبلغ عني زيادا      مغلفة يخب بها البريد  
بأنى قد فررت إلى سعيد      ولا يسطاع ما يحمي سعيد  
فررت إليه من ليث هزبر      تفادى عن فريسته الأسود

وفي شعر الفرزدق شهادة صادقة لزياد ، فانه كان ليث العراق ، سطاقيه بمن شذ عن سلطانه وبطش بالخارجين على الولاء لمعاوية ، أو على القانون العام .



كما كان له شعراء يمدحونه فيعطيههم ، ويغفر لهم خطاياهم ، ومنهم حارثة ابن بدر الغداني ، من تميم ، وكان قابلا لرأيه محتملا لما يعطيه من تناوله الشراب (١).

وكانت إمارته واسعة تشمل العراق وما وراءه من بلاد المسلمين في الشرق . ولكنه أراد المزيد ، فسكتب إلى معاوية :

« إني قد ضببط لك العراق بيميني ، وبقيت شمالي فارغة » : يعرض له بالحجاز . فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فرفع يده إلى السماء وقال : « اللهم اكفنا شمال زياد » . فأصابه جرح فيها فقتله . ومن هذا نرى مبلغ اعتزازه بكفائيته في تثبيت الأمن وحمل الناس على الطاعة والخضوع للنظام . فالعراق التي كانت ثائرة على معاوية ، وكانت ثائرة على القانون ، وأسرف زياد في الشدة على أهلها ، وعلى الشيعة فيها حتى ضرب المثل بالأمن والقسوة فيها أيامه ، لم يصرف من جهده فيها إلا النصف ، وضبطها بيمينه وبقيت شماله فارغة . ومات سنة ٥٣ هـ ، فرثاه مسكين الدارمي فقال :

رأيت زيادة الإسلام ولت جهارا حين ودعنا زياد

فأنكر عليه الفرزدق هذا الرثاء وقال :

أمسكين أبكى الله عينك ، إنما جرى في ضلال دمعها فتحدرا

بكيت على علاج بميسان كافر (٢) ككسرى على عداته أو كقيصرا

أقول له لما أتاني نعيه به لا بظي بالصريمة أعفرا (٣)

وقال حارثة بن بدر يرثيه :

صلى الإله على قبر وطهره عند الثوية يسفى فوقه المور

زفت إليه قریش نعش سيدها فثم كل التقى والبر مقبور

(١) أغاني ٢ ص ٥

(٢) الملج : الاعجمي ، ميسان : قرية بين واسط والبصرة

(٣) الصريمة : الرمل السكتير ، الأعفر لونه كلون التراب







## بنو مروان

(١)

أبوهم مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، كان الحكم كاتباً لعثمان بن عفان رضى الله عنه وكان مروان كاتباً له أيضاً بعد موت الحكم ، وربما كان اتصاهما بعثمان سبياً من أسباب الفتنة الكبرى التى ثارت فى الأمصار ، وأدت إلى قتل عثمان . فقد أخذ عليه المسلمون أنه رد الحكم إلى المدينة . بعد أن نفاه منها رسول الله ﷺ ، وأبى صاحباه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أن يرداه ، ولم يقبلوا جميعاً شفاعته عثمان فيه . ومات الحكم ، فكان ابنه مروان سبياً مباشراً فى قتل عثمان ، بما نسب إليه من كتاب أرسله إلى عامل مصر ، يأمره فيه بقتل الثوار الذين كانوا قدموا المدينة ، خارجين على عثمان . فأخذوا الكتاب وعادوا به إلى عثمان ، وأخبروه أنهم ضبطوه مع رسوله مختوما بخاتمه ، خلف لهم أنه لا يعلم من أمره شيئاً ، فاتهموا مروان ، وسألوا عثمان أن يسلمه إليهم ، فأبى خوفاً عليه من القتل .

ولا نسمع عن مروان بعد ذلك إلا فى أيام معاوية واليا له على المدينة ، أو وافداً عليه فى الشام . وأكثر ما نسمع عنه فى هذا العهد شديد الصلة بالأدب ؛ فإننا نسمع به فى مجالس معاوية يخاصم ابن عباس ، فيجيبه خبر قريش بما يدمغه <sup>(١)</sup> ويسائل الحسن بن على فى مجلس معاوية ، فيرد عليه الحسن بما يخزيه <sup>(٢)</sup> ويخزي بنى أمية معه ، ونسمع به خطيباً فى مجلس معاوية ، غاضباً فائراً ، لما عزله عن المدينة ، إذ اعتقد فيه التقصير والسكرانة لبيعة يزيد <sup>(٣)</sup> . وغضب معاوية منه يومئذ غضباً شديداً ، ولسكنه كظم غيظه . وقد أشرنا إلى موقفه من هذه البيعة ، وما كان بينه وبين عبد الرحمن

(١) جهرة خطب العرب للاستاذ صفوت ص ٩٤ - ٩٥

(٢) العقد الفرید ج ٢ ص ١١٥

(٣) جهرة، المصدر الاول ص ٢٣٧



ابن أن بكر بسببها . فله ذكر في المحاورات والأجوبة ، وله ذكر في الرسائل ، وكان له ذكر مع الشعراء ؛ فإن الفرزدق وفد على المدينة هاربا من زياد فدح سعيد بن العاص فقال فيه :

ترى الغر الجحاجح من قریش إذا ما الخطب في الحدثن غاللا  
وقوفاً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالا  
فسكرها منه مروان وقال : لم يرض إلا أن جعلهم قياما ينظرون إلى  
سعيد ، هلا جعلهم ينظرون إليه وهم قعود ! ثم عزل سعيد وولى مروان ، فتحين  
الفرص حتى قال الفرزدق شعراً يروى به حادثة من حوادث فسوقه ، فأخرجه  
عن المدينة فخرج منها يريد اليمن . وقيل إن مروان لما أخرجه من المدينة  
أرسل إليه من يبلغه عنه :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس  
ودع المدينة إنها محظورة والحق بمكة أو بيت المقدس  
ولكنه أراد إكرامه في الطريق ، فكتب معه إلى بعض عماله بين مكة  
والمدينة بمائتي دينار له ، فارتاب في كتاب مروان وعاد إليه فقال :

مروان إن مطيتي معقولة ترجو الحباء وربها لم يأس  
وأيتني بصحيفة محتومة يخشى على بها حباء النقرس (١)  
ألق الصحيفة يا فرزدق لا تسكن نسكدا كمثل صحيفة المتلس  
ورمى بها إلى مروان فضحك وقال : ويحك إنك أمي لا تقرأ ؛ فاذهب  
بها إلى من يقرؤها . فلما قرئت له وجد فيها جائزة ، فعاد بها إلى مروان  
فختمها له . وليس يهمننا كثيرا ما يبدو في هذه القصة من روح تجعلها أقرب  
إلى المزاح منها إلى الجد ، فلعل مروان أخرجه لإرضاء لشعور الناس ، ثم  
خشى لسانه فاسترضاه بهذه النقود . ونكتفي بدلالاتها على صلة مروان بالشعراء

وسمعنا به في وقعة الحرة في أيام يزيد ، فإنه كان شيخ بني أمية



بالمدينة ، وقد حصروا في داره حتى خرجوا منها ، على ألا يدلوا جند الشام على مواطن الضعف في المدينة . ولم يفوا بعهدهم .

وكادت الخلافة تخرج من بني أمية إلى عبد الله بن الزبير بعد موت معاوية الثاني سنة ٦٤ هـ ، لولا رجال من أنصار بني أمية منهم ، حسان بن مالك ابن بحدل الكلبي ، وكان على فلسطين والأردن ، ومنهم روح بن زنباع . وقد أبوا أن ينتقل الملك من الشام إلى الحجاز ، وفكروا في عمرو بن سعيد الأشدق ، وفي خالد بن يزيد بن معاوية ، ثم عدلوا عنهما إلى مروان بن الحكم ، فقواله : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر . فقبل ، وبويع له في الشام ، وجمع الجيوش لحرب ابن الزبير وأعوانه . وكان هؤلاء أعوانا لبني أمية من قبل ، ومن أهم المعارك التي انتصر فيها معركة « مرج راهط » ، انتصر على الضحاك بن قيس في المحرم سنة ٦٥ هـ ، وقتل فيها من قيس مقتلة عظيمة ، ثم سار إلى مصر ففتحها وبايعه أهلها .

وقال زفر بن الحارث الكلبي وكان مواليا لابن الزبير « في مرج راهط » :  
 أرني سلاحى لا أبا لك إني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا  
 أتاني عن مروان بالغيب أنه مقيد دمي أو قاطع من لسانيا  
 ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب إذا نحن رفعنا هن المشانينا  
 فلا تحسبوني إن تغيبت غافلا ولا تفرحوا إن جئتم بلاقائيا  
 فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا  
 أتذهب كلب لم تنلها رماحنا وتترك قتلى راهط هي ما هيا  
 لعمرى لقد أبت وقية راهط لحسان صدعا بينا متنائيا

وكان لروح بن زنباع الجذامى ، وعبيد الله بن زياد ، فضل عظيم على مروان في الوصول إلى الخلافة ، قولا وعملا وتديرا . فالذى دعاه إليها عبيد الله ابن زياد ، والذي دبر له إعلانها وقبول الناس لها روح بن زنباع ، فإنه قال له : إن معى أربعمائة من جذام ، فأنا أمرهم أن يتقدموا في المسجد غدا ، ومر أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك



تنادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت . فيظن الناس أن أمرهم واحد .  
 واجتمعوا في الغد ، فقام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ما أحد  
 أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها . والذي نفسى بيده ،  
 لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر ، فقال الجذاميون صدقت . وقام روح  
 ابن زنباع فحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب فبين أن عبد الله بن عمر - على  
 فضله وقدم صحبته - رجل ضعيف ، ولا يصلح الضعيف لامة محمد صلی اللہ علیہ وسلم  
 وأن عبد الله بن الزبير ابن حواری رسول الله ، وابن أسماء ذات النطاقين ،  
 وأنه صاحب فضل وقدم في الإسلام ، ولسكنه منافق ؛ خلع خليفتين . وليس  
 المنافق صاحب أمر هذه الأمة ، ثم قال : « وأما مروان بن الحكم فوالله  
 ما كان في الاسلام صدع قط إلا كان مروان بمن يشعب ذلك الصدع . وهو  
 الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل على  
 ابن أب طالب يوم الجمل . وإنما نرى للناس أن يبایعوا للكبير ويستشبهوا  
 الصغير ، - يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد -

فبايع الناس لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن سعيد  
 ابن العاص من بعد خالد . ولكن مروان عهد بالأمر لابنه عبد الملك  
 ثم لابنه الثاني عبد العزيز . ومات في رمضان سنة ١٥ هـ . خلفه ابنه  
 عبد الملك .



## ٢ - عبد الملك

روى عن عامر الشعبي أنه قال : « ماذا كرت أحدا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك ، فإني ماذا كرتة حديثا إلا زادنى فيه ، ولا شعرا إلا زادنى فيه » . وقد تكون هذه الشهادة صادقة ، عظيمة القيمة ، لأن قائلها موضع الثقة ، فهو من سادات التابعين ، وكان قريبا من عبد الملك زمنًا طويلا ، فكان مؤدب أولاده ، ووافدا من لدنه إلى ملك الروم .  
على أن الأدلة متوافرة على صدقها أيضا ، فإن عبد الملك أشهر خلفاء بنى أمية في الأدب عامة ، وفي حديث الشعر بوجه خاص .

ولكن عبد الملك قد أهمله القاريخ في شبابه ، لاهتمامه بما هو أهم . فلم يعن الرواة به كثيرا قبل الخلافة التي وليها في التاسعة والثلاثين من عمره ، ولم يذكروا عنه إلا أنه هو الذى أشار على مسلم بن عقبة أن يدخل المدينة من جهة الحرة ، لما أرسله إليها يزيد بن معاوية . فقد روى أن مسلما لقي رجال بنى أمية بوادى القرى خارجين من المدينة إلى الشام ، بعد أن فك أهل المدينة حصارهم . فدخل عليه عبد الملك ، ثم دخل عليه أبوه من بعده ، فقال مسلم لمروان : إيه ؟ فقال مروان : أليس قد دخل عليك عبد الملك ؟ قال : بلى ، وأى رجل عبد الملك ! قلها كلمت رجلا من رجال قريش شبيها به ! قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني .

والذين تحدثوا عنه من الرواة في شبابه ، يذكرون أنه كان عاقلا حازما أديبا ليبيا . وكان معدودا من فقهاء المدينة ، يقرن بسعيد بن المسيب وعروة ابن الزبير . وروى صاحب العقد قال : قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيا وحزما ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا » (١) . ولعل حرص أبيه على توليته العهد كان بعد نظر منه ، ووضعها للثقة فى موضعها . وعرفه المؤرخون المؤسس الثانى للدولة الأموية . وسموه « أبا الأملاك » ،

(١) العقد الفرید ج ٣ ص ٨ . نسخة : (٢) . نسخة : (٣) .



حكم عبد الملك حوالى عشرين عاما ، كانت البلاد الاسلامية فى اولها غير مستقرة على خلافة واحدة ، ولا بجمعة على امام واحد ، فاستطاع عبد الملك أن يجمع أمرها فى يديه ، وأن يخضعها لخليفة دمشق ، وأن يزيد فى أملاكها بلادا أخرى فى الشرق والغرب ، ولم تشغله الجهود التى بذلها فى القضاء على خلافة ابن الزبير ، ولا على ثورات العراق ، ولا على الخوارج ، من أن يترك لتاريخ الأدب حديثا عظيما ، وآثارا فى توجيهه كآثار معاوية أو يزيد . بل إن هذه الجهود التى بذلها لم تستغن عن الأدب ، كما لم يستغن عن الاستعانة برجال الأدب أيضا ، فأعانه الأدب ورجاله على نجاح هذه الجهود .

خطبه :

لا يعنى الرواة إلا بأعظم الخطب ، لأعظم الناس ، فى أعظم المواقف ، وقل أن يعنوا بغير ذلك . فإذا سلمنا بهذا أدركنا بعض السر فى قلة ما روى لنا عن الذين نؤرخ لهم من أعيان الأدباء ، فى عصور الرواية والحفظ ، فإن خطيبا كعبد الملك تعد خطبه على الأصابع ، كما عدت خطب معاوية على الأصابع ، إلا أن هذه الخطب أهم ما قال ، لاهتمام الناس بالحوادث التى قيلت فيها ، وتأثرهم بقوة بيانها ، ونجاحها فى تحقيق الغرض منها .

خطبته بعد قتل عمرو بن سعيد :

روى أن أول خطبة مشهورة له هى خطبته بعد قتل عمرو بن سعيد الأشدق قال : « ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غير (١) منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا (٢) من حسن الاعتبار فتزل بكم جائحة السطوات (٣) ، وتجوس خلالكم بوادى النقمات (٤) ، وتطأ رقابكم بثقلها

(١) غير : بقى (٢) جمع غنم فمكون : أى لا تنجروا منه

(٣) للمهلكة المستأصلة (٤) تجوس : تفقش . البوادر : العاجلة



العقوبة ، وتركمكم همدا رُفاتا <sup>(١)</sup> ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا .  
 فإياي من قول قائل ، ورشقة جاهل ، فانما بيني وبينكم أن أسمع النغوة <sup>(٢)</sup>  
 فأصم تصميم الحسام المطرور <sup>(٣)</sup> ، وأصول صيال الحنق الموتور ، وإنما  
 هي المصاحفة والمكاخفة بظبات <sup>(٤)</sup> السيوف ، وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم  
 بسوء الصباح ، فتاب تائب ، وهذا <sup>(٥)</sup> خائب ، والتوب مقبول ، والاحسان  
 مبذول ، لمن عرف رشده ، وأبصر حظه ، فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على  
 حظوظكم ، وليكن أهل الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم ، واستديموا  
 النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس زينتها ، فانكم من ذلك بين فضيلتين :  
 عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء والمثوبة ، عصمكم الله من الشيطان  
 وفتنته ونزغه ، وأمدكم بحسن معاونته وحفظه . انهنضوا رحمكم الله إلى قبض  
 أعطياتكم ، غير مقطوعة عنكم . ولا مكدرة عليكم .

الظرف الذي قيلت فيه :

هذه خطبة في أعقاب فتنة كادت تذهب بملك عبد الملك في أوله ، ذلك  
 أن مروان كان وعد عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص بالخلافة . ثم أخذها  
 عبد الملك بعد أبيه ، وكانت العراق خارجة عن سلطانهم فبعضها ثائر ،  
 ويدين أكثرها بالطاعة لابن الزبير ، فلما خرج لقتال مصعب هناك . خالف  
 عليه عمرو بن سعيد هذا ، فعاد عبد الملك إليه وحاصر دمشق ، ثم صالحه  
 على أن يكون له الأمر من بعده . ولكنه دعاه يوما فذهب إليه في جيش ،  
 فاحتال عليه عبد الملك ، وقتله غدرا بعد هذا الصلح . وفرق في الناس  
 الدناير . ثم خرج فخطبهم هذه الخطبة . في أعقاب هذه الفتنة ، وبعد أول  
 غدر حدث في الاسلام ، والجنود متفرقوا الأهواء وولاؤهم موزع ،  
 وعهدهم بعبد الملك قريب ، مع حاجته إليهم لحروبه .

(١) الحمد : البالي : الرفات الحطام الباقي (٦) أول الخبر قبل التثبت منه

(٣) المشعوز (٤) جمع ظبية : بضم الظاء : أطرافها

(٥) مدل : ضعف وخار



وفي هذه الظروف كلها خطب عبد الملك هذه الخطبة . وكان موقفه شاقا دقيقا ، ولسكنه وزن كل كلمة منها ميزان . وساقها لحكمة ، وأوردها كي يثير بها عاطفة . أو يرهب بها نفساً ، أو يفزع بها صدرأ ، أو يستميل بها قلباً ، أو يذهب شكاً ، أو يفتن طامعاً ، أو يغري آملاً .

أما الأهداف الرئيسية التي رمى إليها عبد الملك فهي :

(١) أن ينظر الناس بعين الاعتبار إلى منازل بغيرهم لئلا يصيبهم ما أصابهم .

(٢) وأن يحذر القوم التفكير في الفتنة ثانياً ؛ فوراء هذا أسنة الرماح .

(٣) وأن يعودوا إلى أنس الطاعة وما فيها من نعمة ، فذلك خير من

وحشة المعصية وما تجره من بلاء .

فاشتد في الكلام عن المعنى الأول شدة مرعبة ، فبين ما تجره المعصية

من بلاء . وأن حسن الاعتبار هو الذي يعصمهم من هذا البلاء ، وما هذا

البلاء ! إنه السطوات المهلكة ، والنقم العاجلة ، التي تفتش عنهم في ديارهم ،

لا ينجو منها أحد من الخارجين ، وتطأ رقابهم فتتركهم حصيداً خاوين . ولعل

الذين سمعوا تلك الجملة ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة ، فتترككم همدا رفاتا ،

قد أحسوا بأنفسهم تختنق من ثقل وطأتها قبل أن تنزل بهم العقوبة أو تحل

قريباً من دارهم .

ثم أسرع إلى الحديث عن العقاب بلا تحقيق ، والتهديد بأن يبطش بلا

تثبت . فلما أظهر ما عنده لأهل المعصية ، والذين لا يعتبرون ، والذين يخوضون

في الباطل ، ويتحدثون عن الفتن ، أو يذكرون اسمهم فيها ، وأحس أنه أدرك غايته

من التهديد والوعيد ، لم يترك الناس في يأس من عفوهِ . ولم يفقدوا الأمل

في برهِ وخيرهِ ، فخفف من حدته ، ودعا إلى الطاعة ، ففي ظلها الأمن والدعة ،

والعيش الرغيد ، وانتقل من ظلمة اليأس إلى نور الأمل والرجاء ، فأخبرهم

أن التوب مقبول . وأن الاحسان مبذول . وأن دوام نعمته التي ابتدأهم

برغيد عيشها ممكن بالولاء والطاعة ، ثم دعا الله أن يحفظهم من فتنة الشيطان :

ودعاهم أن ينهضوا لقبض أعطياتهم كاملة هنيئة .



وقد تخير لكل معنى ألفاظه وجمله . فكانت الشدة والعنف ، ورهبة التراكيب في التهديد ، ثم اللين والسهولة والسباحة في الإغراء والوعد ، وقد جسم النقم العاجلة ، فجعلها متحركة تفتش عنهم في خلال ديارهم ، وجعل العقوبة الثقيلة تطأ رقابهم ، وصور لهم ما ينتظرهم بهذه الصورة الثقيلة تصويرا مفرعا .

واستعان بالسجع أو اتران الفواصل ، فكان زخرفه اللفظي قويا يصل بموسيقاه إلى القلوب في حال التهديد والإغراء ولعله ابتداء بالتهديد والإعذار إليهم ، كي لا يظنوا به ضعفا أو خوفا ، وليذهلهم عن أنفسهم إذ يكشف لهم عما ينتظرهم إن لم يعتبروا ، ثم كشف عن ناحية أخرى من نفسه يعلمونها ، هي العطاء والاحسان : فدعاهم أن يستديموا نعمته التي عرفوا رغد عيشها . ونقيس زينتها .

فاذا كانت هذه الخطبة قد لمست أوتار القلوب فأفزعتها في أولها وطمأنتها في آخرها . ولعبت بها في الحالين فأسلمت زمامها لقوة البيان فذلك شأن الخطيب العظيم ، وكذلك كان عبد الملك .

#### خطبته بعد قتل مصعب

وهناك خطبة أخرى مشهورة له ، وهي التي قالها بعد مقتل مصعب في العراق سنة ٧١ هـ . وقد كان هذا الظرف أخف ، ولعل نفس عبد الملك كانت أكثر هدوءا ، إذ أنه قد نجح في القضاء على قوة ابن الزبير في العراق ولم يبق أمامه إلا الحجاز . وقد مهد له مصعب الأمر في العراق بقضائه على فتنة المختار سنة ٦٧ هـ . وكانت جيوشه قد قضت على كثير من الشيعة الذين سموا أنفسهم التوابين ، وذلك في «عين الورد» سنة ٦٥ هـ .

أما أمر هذه الخطبة وما سبقها من خروج عبد الملك فجدير بأن نثبتها هنا لأنه من صميم الأدب الذي يتعلق بعبد الملك .



جاء في الأمالى (١) : ، أن عبد الملك بن مروان - رحمه الله - كان يوجه إلى مصعب جيشا بعد جيش فيهمز مون ، فلما طال ذلك عليه واشتد غمه أمر الناس فعمسكروا ، ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما أراد الركوب قامت إليه أم يزيد ابنة - وهى عاتكة بنت يزيد بن معاوية - فقالت : يا أمير المؤمنين ، لو أقمت وبعثت إليه لكان رأى . فقال ما إلى ذلك من سبيل ، فلم تنزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب ، فلما يئست منه رجعت ، فبكت وبكى حشمها معها ، فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك فقال : وأنت أيضا ممن يبكى ! قاتل الله كثيرا ! كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه حصان (٢) عليها فظم در يزينا  
نهته ، فلما لم تر النهى عاقه بكت ، فبكى عما شجاها قطينها (٣)

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج :

ولما قتل مصعب ، دخل عبد الملك الكوفة فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى

عليه ، وصلى على النبي محمد ﷺ ، ثم قال :

أيها الناس إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا الحرب وزبناها (٤) فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهى أمانا . أيها الناس ، فاستقيموا على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية (٥) وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأتمم لا تعملون أعمالهم ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن نزداد بعد الاعتذار إليكم ، والحجة عليكم إلا عقوبة ، فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد ، فانما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعه :

من يصل نارى بلا ذنب ولا ترة يفصل بنار ككريم غير غدار (٦)  
أنا النذير لكم متى بمجاهرة كى لا ألام على نهى وإنذار (٧)

(١) ج ١ ص ١٣ (٢) حصان : عقيقة (٣) قطينها : خدمها (٤) الزين : بفتح الزاى وسكون الياء الدفع (٥) المهلكة : الموقعة فى الردى (٦) مريض ففسه لحرارة نارى وليس مذنباً ولا نارى عنده يجدى كرى ، وفيها (٧) على « ترك » نهى .



فإن عصيتكم مقالى اليوم فاعترفوا (١) أن سوف تلقون خزيا ظاهرا العار  
لترجعن أحاديثاً ملعنة (٢) هو المقيم وهو المدج السارى (٣)  
من كان فى نفسه حوجاء يطلبها عندى فإن له رهن باصحرار (٤)  
أقيم عوجته إن كان ذا عوج كما يقوم قدح النبعة البارى (٥)  
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه عندى وإنى لدراك بأوتار

هذا عبد الملك يخطب فى العراق بعد مقتل مصعب . ولم يبق خارجا  
عليه إلا الحجاز . وهو بلد غير ذى زرع ، إذا حوصر استسلم ، وابن الزبير  
فيه غير محبوب ، حبس محمد بن الحنفية وآل البيت ، وأغضب منه الخوارج  
والشيعة وأهل العراق . وعبد الملك يعرف هذا كله ، ويعرف قوته  
وقوة رجاله وقواده ، وولاءهم له فلا عجب أن تكون نفسه أكثر هدوءا  
واطمئنانا ، وأن تكون خطبته هذه أكثر ليانا وسهولة من خطبته بعد قتل  
عمرو الأشدق ، ولما كنهن لم تخل من الحزم والعزم ، والوعد والوعيد .  
فالحرب صعبة مرة . والسلام أمن ومسرة . ولما كن صعوبة الحرب ومرارتها  
لا تخيفه ولا تزعجه ، فقد جربها وألفها كما تألف الأم ابنها ، والأبناء  
أمهاتهم ، ولعلها حبيبة إليه كما يكون الحب المتبادل بين الأم وأولادها ،  
فاذا حذرهم فلائنه حريص على أمنهم وراحتهم ، وإذا بين لهم مزايا  
السلام فذلك لخيرهم لا لخيره . وبهذا يستطيع جذب القلوب إلى السلام  
وينفرها من الحرب . وإذا كان يريد أن يتخلى عما يحب من الحرب  
فلائنه أحب إليه ، وهو يريد أن يدفع عنهم صعوبتها وبؤسها ، ويبعد عنهم  
مرارتها وعلقمها . فليعملوا على تحقيق هذه الغاية . وليجتنبوا الأهواء  
المهلكة ، ولا يطلبوا منه مالا يقومون به ، وإذا أرادوا أن يكون كائى بكر

(١) فاعترفوا واعلوا . (٢) ملعنة من يتحدث بأحاديثكم . (٣) المدج السارى :  
الماضى ليلا . (٤) من كان له عندى حاجة فاني أبرز له إلى الصحرار ولا استتر منه . (٥) القدح :  
قطعة خشب يعمل منها سهم . والنبع شجر متين أين تدل منه السهام والاقواس ، والبارى  
الذى يربها .



وعمر ، فليعملوا أعمال المسلمين في عهد أبي بكر وعمر . ثم يحذرهم ، في ختام خطبته وإن يعودوا يعد .

وتعجبك في عبد الملك ألفاظه التي تحمل معانيها قوية إلى السامع ، وتشعره بهذه المعاني فيحس بها إحساساً مادياً : وذلك في جعله الحرب « مرة » وفي بيان صلته بالحرب ، بأنها أهم وهم أبناؤها ، وفي الحديث عن الدافع للعراقيين إلى الخروج أنه « الأهواء » لا العقول ولا أوامر الدين . ثم أسلوبه الجميل بسجعه الطبيعي ، والمقابلات التي تكسب الكلام جمالا غير مجلوب ، وتوازن الفواصل ، والجناس بين : « مرة » ، و « مسرة » ، « فعرفناها وألفناها » . ثم كثرة الأوامر التي تشعر بعزة السلطان ، ويزيدها العدل والصواب عزة وقوة .

والشعر في موضعه من أقوى وأدق وأوفى ما يمكن أن يكون في مثل هذا الموقف . وقد يكون لخطبة كهذه من التأثير ما تقصر عنه معركة . وبعد فإن للأدب القوى تأثيراً في النفوس أقوى وأكبر من أن نبينه في سطور ، وشعور الناس بهذا التأثير القوى يختلف وقد يعز على البيان والايضاح ، وما المحاولة التي سبقت إلا بيان لجانب أو جوانب قليلة منه . وبقي له بعد ذلك سيطرته وسلطانه وفعله في العواطف ، ولعبه بالأهواء .

### رسائله :

كثرت رسائل عبد الملك ، بينه وبين قواده وولاته في الميادين وفي الأمصار ، توجيهها لهم إلى سياسة يتبعونها ، أو إشارة إلى خطل رأى منهم ليتجنبوه ، أو أمراً لهم بمنازلة عدو أو استبدال لقائد بآخر ، أو بياناً لرضا أو سخط منه عليهم ، بسبب نجاح سياستهم أو فشائها ، أو حسن خطتهم أو إخفاقها . وأكثر هذه الرسائل ليست من الرسائل التي تستدعي الوقوف عندها طويلاً . ولا يهتم بها تاريخ الأدب إلا لأنها تمثل فترة من فترات الكتابة مرت بها في تطورها :



لكن هناك من رسائل عبد الملك عدداً قليلاً في موضوعات أثارت انفعاله ونفسه ، وذكرته بالله واليوم الآخر . وأغضبه الله ورسوله ، فكتب منفعلاً فجاءت كتابته قوية ، غريبة عن النوع الذي ألفناه منه في ضبط أمور الدولة وتصريف شئونها . من ذلك كتابه إلى الحجاج في شأن أنس ابن مالك ؛ خادم رسول الله ﷺ . فقد أساء جواره ، وأهانته وشتمه ، وشتم الأنصار ، وسماهم الأشرار ، فكتب أنس بذلك إلى عبد الملك : وهذا هو الظرف الذي كتب عبد الملك فيه هذه الرسالة :

قال إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر : بعث إلى عبد الملك في ساحة لم يكن يبعث إلى في مثلها ، فدخلت عليه وهو أشد ما يكون غيظاً وحنقاً ، فقال : يا إسماعيل ، ما أشد على أن تقول الرعية : ضعف أمير المؤمنين ، وضاق ذرعه في رجل من أصحاب النبي ﷺ ، لا يقبل له حسنة ، ولا يتجاوز له عن سيئة : فقلت ، وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أنس بن مالك ، خادم رسول الله ، كتب إلى يذكر أن الحجاج قد أضر به وأساء جواره ! وقد كتبت في ذلك كتابين ، كتاباً إلى أنس بن مالك ، والآخر إلى الحجاج ، فأقبضهما ، ثم أخرج علي البريد ، فاذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك فادفع له كتابي ، وقل له : اشتد على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ! وإن يأتي إليك أمر تسكره إن شاء الله . ثم ائت الحجاج فادفع له كتابه ، وقل له : قد اغتررت بأمر المؤمنين غرة لأظنه يخطئك شرها ! ثم أفهم ما يتكلم به وما يكون منه ، حتى تفهمني إياه إذا قدمت على إن شاء الله .

فخرج إسماعيل هذا إلى العراق ، وبدأ بأنس . وأبلغه رسالته وخوفه الحجاج وأفهمه أنه من الخير أن يذهب إليه يصالحه : فقبل أنس . ثم ذهب إسماعيل إلى الحجاج بكتاب عبد الملك إليه ، فجعل يقرؤه ، وجبينه يعرق فيمسحه بيمينه . ثم قال لإسماعيل . اركب بنا إلى أنس . فقال له : لا تفعل ، فاني سأتلطف له حتى يكون هو الذي يأتيك : وكان كتاب عبد الملك إلى الحجاج :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عبد الملك بن مروان ، إلى الحجاج ابن يوسف



« أما بعد ، فإنك عبد طمت (١) بك الأمور فطغيت ، وعلوت فيها حتى جزت قدرك ، وعدوت طورك ، وايم الله . . . لا غمزنك كبعض غمزات اللبوث الثعالب ، ولا ركضنك ركضة تدخل منها في وجارك . . . » ثم عيره بأبائه وعملهم ودفاءتهم ثم قال : « وقد بلغ أمير المؤمنين استظالة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، جرة منك على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله ، وعمد الى غير محجته ، ونزل عند سخطته . »

ثم قال ، بعد أن سب الحجاج بما شاء من ذكر معايبه الجسمية ، « وايم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرماً ، وانتهكت له عرضاً فيما كتب به الى أمير المؤمنين ، لبعث اليك من يسحبك ظهراً لبطن ، حتى ينتهي بك الى أنس بن مالك ، فيحكم فيك بما أحب . ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك ، ولكن لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون . »

ولسنا في حاجة الى التعليق على هذا الكتاب ، فقد أذهل الحجاج وأذهب صوابه ، ولولا تدبير اسماعيل بن عبد الله لاشتد كربه وحيرته . وقد انتهى الأمر باعتذار الحجاج الى أنس رضي الله عنه ، وترضاه حتى رضى وكتب برضاه وقبول عذره الى عبد الملك . ولم يزل الحجاج له معظماً هائباً حتى مات ، رضي الله عنه .

### الرسائل الموجزة :

وأكثر رسائله كان موجزاً على عادة الناس في ذلك العصر ، وقد لا يتجاوز بعضها سطرًا واحداً . ومن أمثلة ذلك أن الحجاج كان يكره آل المهلب ويخشى يزيد بن المهلب ويود عزله ، فكتب الى عبد الملك يذكر له ولاء آل المهلب لابن الزبير ، وأنه لا وفاء لهم ، ويشير عليه بعزل يزيد من خراسان . فكتب إليه عبد الملك :



« انى لا أرى نقصا بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير ، بل أراه وفاء منهم لهم ، وان وفاءهم لهم يدعوهم الى الوفاء لى ، .  
فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم ، فكتب إليه عبد الملك :  
« قد أكرثت فى يزيد وآل المهلب ، فسم لى رجلا يصلح لخراسان ، ففعل .  
سبب الإيجاز :

وسبب هذا الإيجاز أنهم كانوا يكتفون بالإشارة عن العبارة ويستغنون بالتلميح عن التصريح ، ويؤثرون ما يكفى على الفضول والزيادة ، وذلك لذكائهم ، ولأن الكتابة لم تصبح صناعة بعد ، ولم يكن هؤلاء من المتخصصين فيها ، وكانوا أمراء سادة ولا يليق بهم إلا مثل هذه الرسائل التى تشبه الأوامر ، فى إيجازها ، ووجوب طاعتها وتنفيذها بلا مراجعة ولا استفسار . وقد يصل بعض هذه الرسائل إلى درجة الألغاز فلا يرجع الوالى خليفته ، ومن ذلك أن كتب الحجاج إلى عبد الملك يعظم أمر قطرى بن الفجاءة المازنى فكتب إليه عبد الملك :

« أما بعد ، فانى أحمد إليك السيف . وأوصيك بما أوصى به البكرى زيدا . »

فلم يفهم الحجاج ما عناه عبد الملك ، على ما هو عليه من رواية ومعرفة بالأخبار . وأعلن أن من أخبر الأمير بما أوصى به البكرى زيدا فله عشرة آلاف درهم . فقال رجل للحاجب أنا أخبره . فأدخله عليه ، فقال له : ما قال البكرى لزيد ؟ قال لابن عمه زيد - والشهم لموسى بن جابر الحنفى - :

أقول لزيد لا تثرثر <sup>(١)</sup> فانهم يرون المنيا دون قتلك أو قتلى  
فان وضعوا حرباً فضعها وإن أبوا فشب وقود الحرب بالخطب الجزل  
فان عضت الحرب الضروس بنابها فعرضة نار الحرب مثلك أو مثلى  
فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين ، عرضة نار الحرب مثلى أو مثله .  
وصدق البكرى !



وفي هذا الشعر دليل لما قلناه ، وقد أشار إليه عبد الملك ولم يصرح  
اعتماداً على ثقافة الحجاج - وكان من النادر أن تخونه - فهو شعر جامع  
للتصريحة التي يريد بها عبد الملك ، وواف بالغرض ، وفيه دعوة إلى الفعل  
وقلة الكلام ، وأن يهادنهم ما هادنوه ، ويعد للحرب وقودها ما حاربوه ، وأن  
يبدل كل ما يستطيع لأنه المقصود هو وخليفته أولاً .

### الشعر في الرسائل :

وينقل الحديث بنا إلى رسائل أخرى كان الشعر عمادها ، فإن ابن  
الأسعث لما خلع عبد الملك ، بسبب شدة الحجاج ، كتب إلى الحجاج بهذا  
الخلع ، وجعل في طي كتابه كتاباً إلى عبد الملك ، فأرسله الحجاج إليه ،  
وطلب منه مدداً ليحارب به ابن الأسعث . وكان كتابه إلى عبد الملك  
الآيات الأربعة الآتية - وهي لشاعر اسمه الحارث بن وعلة الجرمي :

سائل مجاور جرم هل جنيت لهم حرباً تزيل بين الجيرة الخنط (١)  
وهل سموت بجرار له جلب جم الصواهل بين الجم والفرط (٢)  
وهل تركت نساء الحى ضاحية فى ساحة الدار يستوقدن بالغبط (٣)  
وتحتها بيت آخر على غير الروى . وهو :

قتل الملوك وصار تحت لوائه شجر العرا وعراعر الأقوام (٤)

فكتب عبد الملك رداً إلى الحجاج . وكتب فى طيه جواباً لابن الأسعث  
شعراً وهو :

فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظاً (٥) وينوى من سفاهته كسرى  
أظن خطوط الدهر بينى وبينهم ستحملهم منى على مركب وعر

(١) الخنط بضمين : جمع خنيط وهم القوم الذين أمرهم واحد .

(٢) الجرار : الجيش : اللجب : الصياح والاصوات العالية المختلطة . جم الصواهل :

كثير الخيل الصاهلة . الجم والفرط : موضعان

(٣) الضاحية : البارزة للشمس : الغبط : بضمين : جمع غبيط ، وهو الرجل

(٤) العرا : نبت . عراعر : جمع عرورة بضم العينين : رؤوس الأقوام . والبيت لمهلل بن ربيعة

(٥) محافظة عليه



وإني وإياهم كمن نبه القطا ولولم تنبه باتت الطير لاتسرى  
أناةً وحلماً . وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالواني ولا الضرع الغمر (١)  
واستبطاً ابنه مسلمة في مسيره إلى الروم ، فكتب إليه :

لمن الظعائن سيرهن (٢) تزحف سير السفين إذا تقاعس تجدف !  
فلما قرأ مسلمة كتابه رد عليه :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم ٣  
فنحن الآن أمام ظاهرة أخرى غير الإيجاز - في رسائل عبد الملك  
خاصة ، ورسائل العصر الأموي عامة - وهي ، الاعتماد على الشعر . أو الاستشهاد  
به والاقتران منه .

وسبب ذلك أن الكتابة لم تكن صناعة ولا غاية ، ولم يكونوا يقصدون  
إظهار مقدرة إنشائية ، وإنما كانوا يعتبرون البيان وسيلة وأداة للتفاهم ،  
يقتصرون منه على ما ينقل المعنى ، وينى بالمقصود . كما تقدم ، فاذا وجدوا  
في كلام غيرهم - وبخاصة الشعر - ما يؤدي غرضهم استعاروه مقتبسين أو مستشهدين .  
ويرون في هذه الاستعارة ما يرفع من قدر رسائلهم وخطبهم ؛ لدلالة استخدام  
الشعر والانتفاع به ، على الحفظ والرواية ، وحضور البديهة ، وسعة الثقافة .  
وحسن الأدب ، وتمام العلم بآثار القوم وأخبارهم ، وما زالت نظرهم إلى الشعر  
نظرة إكبار . وما زالوا يتواصلون بروايته وحفظه وتعليمه لأبنائهم ، وقد  
سبققت نصيحة معاوية وأخيه عتبة ، بتعلم الشعر . وقال عبد الملك لمؤدب  
أولاده : «روهم الشعر يمجدوا وينجدوا» . فلا غرو أن يؤثروا الشعر ما وفي  
ب حاجتهم ، وأن يقتبسوا منه ما يصلح للمقام . ولهم في هذا ما يدل على الاجادة  
العظيمة . وقد رأينا ختام خطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب ، ورأينا  
رسالة ابن الأشعث إليه ، ورسالته إلى ابن الأشعث . ورسالته إلى الحجاج

(١) الضرع : الذليل المستكين الغمر : كشمس وقفل وسبب من لم يجرب الامور

(٢) تزحف : مثنى بطى ، تقاعس : تتأخر . تجدف تسير بالمجداف

(٣) ترمرم : هم بالكلام ولم يفعل



مشيراً إلى ما قاله موسى بن جابر الحنفى ، ونستطيع أن نقدر الآن صلاح هذه الاقتباسات وحسن وقعها فى موضعها كما قلنا ، لهذا الموقف الجديد ، وأكثر ما كان الاقتباس من الشعر فى الرسائل والخطب السياسية .

### الاقتباس من القرآن والحديث .

وكان لعبد الملك وغيره اقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف واستشهاد بهما ، وكانوا يفعلون ذلك فى خطب الوعظ ، وفى المجادلات التى تستند إلى الدين ، وفى حالات الرجوع إلى الله بالخطاب ، وهكذا ، وإنما كانوا يقتبسون أو يستشهدون ليزدان كلامهم . ويسمو أسلوبهم ، وتقوى حججهم ويضعف خصمهم . ويتركوا فى نفوس السامعين تأثيراً أدبياً أقوى ، ويحركوا قلوبهم إلى درجة أعلى ، وهم قوم عرب يقدرّون هذا الأسلوب القرآنى المعجز ، فاذا أضيف إليه ماله من صبغة دينية تضافرت الناحيتان على أخذه بمجامع القلوب ، والسيطرة على النفوس . فاذا سيق هذا فى معرض الاحتجاج كان أقرب إلى التسليم له ، والرضا بحكمه .

على أن هذا الاستشهاد فى مكان الاستدلال قد يثير معارضة قوية ، تدفع الحجة بالحجة . وتفسر الآية بما يخالف تفسير الخصوم ، أو تسوق آية أخرى تستدل بها على وجهة نظرها ، والناس أمام هذا البيان القوى متوزعو العواطف والأهواء ، تميل بهم الفصاحة ، وتحركهم البلاغة ، وتذهلهم قوة البيان ، وحسن الاقتباس أو الاستشهاد .

ووراء هذا الاتصال الدائم بالقرآن فيه كثير من توجيه النظر إليه والتفكير فى آياته البينات ، والاستعانة بهديه وأسلوبه وحجته عند الحاجة . فتعلو أساليب هؤلاء ، ويزداد أدبهم قدراً وعلواً .

وفى رسائل هذا العصر وخطبه وبخاصة أكابر الأدباء كالحسن والحسين ومعاوية وابن عباس ، وابن الزبير وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز - كثير من ذلك ، أما الحسن البصرى فما أكثر ما زان كلامه بالقرآن والحديث ، لأن



طبيعة أدبه الوعظي القصصي كانت تجعله دائم الصلة بهما ، شديد الإيمان بتأثيرهما .

### عبد الملك والشعر السياسي .

كان عبد الملك حريصا على رواية الشعر . وكان حريصا كذلك على أن ينتفع به ما استطاع ، فرسم به سياسته في العراق بعد قتل مصعب إذ استشهد في آخر خطبته بأبيات قيس بن رفاعه ، وأوصى الحجاج أن تكون سياسته مع الخوارج مستمدة من الشعر الذي أوصى به المبكرى زيدا :

ولما أراد نقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد . استعان بشعر نابغة بني شيبان على تأييد هذه السياسة .

كما جرى روح الأمويين عامة في الاستعانة بالشعراء ليكونوا في خدمة دولتهم يمدحون سياستهم ، ويذكرون مآثرهم . ويهجون أعداءهم . وأجزلوا عطاءهم ، وغضوا النظر عن عيوبهم ، وتجاوزوا لهم عن سيئاتهم ، وكان الأخطل أقرب هؤلاء إلى عبد الملك على نصرانيته ، وبعد نسبه من الخليفة .

والسبب في ذلك أن الشعر كان أشهر أنواع الأدب ، وأحبها إلى نفوس العرب ، وأسيرها في الآفاق ، وأسهلها في التعلق بأذهان الرواة ؛ فإذا جرى بمدح أو هجاء ، أو تحدث عن سياسة أو مذهب ، كان سريع الانتقال في البلاد ، سريع التأثير في النفوس . عظيم الفائدة في خدمة أنصاره ، شديد الضرر على أعدائه ؛ فحرص الأمويون عامة - كما حرص منافسوه وأعداؤهم - على تقريب الشعراء . واتخاذ الشعر لسانا يعبر عن آرائهم أو يحبب الناس في أخلاقهم ، أو ييغض أعداءهم إلى الجمهور . وكأنه الصحف الحزبية في زماننا هذا تتحدث عن مبادئ الحزب ، وتشيد برجاله وأعماله ، وتغض من قدر المنافسين له . وتعرض على الطاعنين فيه .

### نقده للشعر .

على أن عبد الملك كان يقدر الشعر لذاته . وينقده نقد الأديب ، ويحكم



له أو عليه بحسب موضوعه ، أو معانيه ، أو صورته الشكلية ، وإن لم يمت إلى السياسة بسبب .

فقد أوصى مؤدب ولده ، إذا رواهم شعرا ألا يرويهام الا مثل قول العجير السلولى : (١)

يبين الجار حين يبين غنى ولم تأنس إلى كلاب جارى  
وتظعن جارتى من جنب بيتى ولم تستر بستر من جدار  
وتأمن أن أطلع حين آتى عليها وهى واضعة الخمار (٢)  
كذلك هدى أبائى قديما توارثه النجار عن النجار (٣)  
فهدنى هديهم وهم افتلونى كما افتلى العتيق من المهارى (٤)  
وذلك لما فيه من رعاية لحقوق الجار . والعفة عن محارمه .

وقال يوما ، وعنده عدة من أهل بيته وولده ، ليقبل كل منكم أحسن شعر سمع به . فذكروا لامرى القيس وطرفة والأعشى ، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا ، فقال عبد الملك : أشعرهم والله الذى يقول : (٥)

وذى رحم قلبت أظفار ضعفه بحلى عنه وهو ليس له حلم  
يحاول رغمى ، لا يحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به الرغم  
إلى آخر القصيدة ، ويبدو واضحا أن موضوعها هو الذى أعجب عبد الملك لما فيها من إحسان الى ذوى الأرحام ، وعفو عن سيئاتهم ، وسعى دائم للخيرهم وعزهم ، حق لان جانبهم . وصفا ودهم .

وقال : مايسرنى أن أحدا من العرب ولدنى ممن لم يلدنى ، إلا عروة بن الورد (٦) ، لقوله :

وانى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى انائك واحد (٧)

(١) أغاني ج ١١ ص ١٥٢ (٢) بلا خمار وهو غطاء وجه المرأة

(٣) النجار : الأصل (٤) ابتلاه : جربه . المهارى . الأبل

(٥) أغاني ج ١٠ ص ١٥٨ (٦) أغاني ج ٣ ص ٧٤

(٧) عافى : الأول بمعنى : بقية الطعام فيه . والثانية بمعنى : طالب المعروف .



أتهزأ مني أن سمّنت وأن ترى بجسمي مس الحق ، والحق جاهد  
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد  
ولا يسره ألا يلبده غير عروة إذا لم يلبده آباؤه إلا لما في هذه الآيات من  
كرم وإيثار وتفريق للمال في الإخوان ولو كانت به خصاصة .

ومن الشعر ما يعجبه موضوعه ولا تعجبه معانيه ، فيعترض على المعنى  
ويشير حوله نقداً ، وقد يأتي بعد ذلك بالقول الصائب فيرضى الناس بحكمه :  
اعترض مرة على قول نصيب (١) :

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى  
ووافقه الجالسون عنده على أن البيت معيب . وظاهر من القصة أن  
الطعن كان منصباً على الشطر الثاني من البيت . فإن الحر الكريم يأبى أن  
يختار لصاحبه خليلاً بعده . وقال عبد الملك لجلسائه : لو كان اليكم كيف كنتم  
قائلين ؟ قال رجل منهم : كنت أقول :

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى !  
قال عبد الملك : وما قلت والله أسوأ مما قاله ، فقليل : كيف كنت قائلاً  
في ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال كنت أقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى .  
قالوا : انت والله أشعر الثلاثة يا أمير المؤمنين . وهذا صحيح إذا نظرنا  
إلى شرف المعنى وتمام الكرم والنخوة . ولكن المعاني الثلاثة منقودة .  
وأحسن منها جميعاً أن يسأل الله لها صلاح الحال وأن يرعاها من بعده . أما  
عبد الملك فقد دعا عليها ، لكنّه على كل حال أشرف الثلاثة . وإن كانت  
الرواية الثانية رقيقة .

ومدحه ابن قيس الرقيات فقال : (٢)



إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحجب  
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب  
فقال له عبد الملك : يابن قيس ، تمدحني بالتاج كأن من العجم وتقول  
في مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء  
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء  
أما الأمان فقد سبق لك ؛ ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا .  
إن ابن قيس الرقيات مدح آل الزبير وهجا بني أمية . وطلبه عبد الملك  
ليقتله ، وشفع فيه عبد الله بن جعفر فقبل شفاعته ، وروى عبد الملك هذا  
المدح ، فرأى في مدحه لمصعب بالتدين معنى أسى من مدحه له بنضارة الجبين  
واعتدال التاج ، الذي هو مظهر الملك والكبرياء ، وزينة الحياة الدنيا .

وأبى على الشعراء معانيهم المتداولة إذ قال لهم (١) : « يامعشر الشعراء ،  
تشبهوننا مرة بالأسد الأبحر ، ومرة بالجبل الأوعر ، ومرة بالبحر الأجاج .  
ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم .

نهاركم مكابدة وصوم وليكم صلاة واقترأ  
فقد أراد أن يمدحه الشعراء بأنه يقضى ليله ونهاره في طاعة الله كما يفعل بنو  
هاشم . وهنا نرى لعبد الملك حملة قوية على الشعراء في معانيهم القديمة ؛  
تضمنها حديثه التهكمي عن وجه الشبه ، وهو البخر في الأسد ، والوعورة في  
الجبل ، والملوحة وكرهه المذاق في البحر . وما أراد الشعراء إلا شجاعة  
الأسد ، ووقار الجبل ، وكرم البحر .

وروى له مثل هذا القول (٢) . يعيب على الشعراء أن يشبهوه بالأسد ،  
وبالبازي ، وبالصقر ؛ ويدعوهم أن يقولوا فيه كما قال كعب الأشقر في  
المهلب وولده ؛ إذ مدحهم بالشجاعة وعلو القدر ، والثبات ، وهداية الناس ،



ورأى في هذا المدح معاني أجمل من التشبيه المألوف بالأسد وبالبحر الخ .  
وحكم لشاعر اسمه شبيب بأنه أكرم وصفا لنفسه من الأخطل إذ أعجبه  
في شعره التمدح بالبشاشة للجليلس ، وبالجلود وبالشجاعة واللين لذوى  
القربى ، والشدة على الأعداء . وأعجب بالمدح الخالص <sup>(١)</sup> عندما غنته  
جارية بشعر الأقيشر في المدح وقال لها : هذا المدح لا على طمع ولا فرق .  
وأشعر الناس الأقيشر .

وأبى على جرير توجيه الخطاب إليه في شعره :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشيّة هم صحبك بالرواح  
فقال له : بل فؤادك ، لا أم لك ، . وأبى أن يكون خاضعا لمشيئته  
لما قال وهو يهاجى الأخطل :

هذا ابن عمى في دمشق خليفة لو شئت ساقكمو إلى قطينا  
فقال : ما زاد ابن اللخناء على أن جعلنى شرطيا . أما والله لو قال دلو شاء ،  
لسقتهم إليه . وأنشده ابن قيس الرقيات فقال :

أنت ابن معتلج البطاح كديها وكداها <sup>(٢)</sup>  
ولبطان عائشة التي فضلت أروم نساءها  
فلم يعجبه أن يذكر دبطان ، أمه عائشة ، في الشعر . وأنشد هذا الشاعر  
عبد الملك مرة أخرى : <sup>(٣)</sup>

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعنى وقرعن مروتيه  
وجببني جب السنام ولم يترك ريشا في مناكبيه  
فاعترض على الشاعر لأنه خنث في قوافيه . فقال الشاعر مدافعا :  
إنه يقتدى بكلام الله تعالى : « ما أغنى عنى ماله ، هلك عنى سلطانيه »

(١) أغاني ١٠ ص ٨٢ (٢) كدى : بضم الكاف . جبل بأسفل مكة . كداء بفتح  
الكاف . جبل بأعلى مكة . (٣) تاريخ الزند من ٣٧ للرحوم طه ابراهيم .



والفرق واضح بين القرآن في النغم وفي الروح ، وبين قوافي ابن قيس الرقيات .  
وكم لعبد الملك من مواقف في نقد الشعر من حيث الموضوعات والمعاني  
والألفاظ والتراكيب والقوافي . ولكنه كان نقداً مبنياً على الذوق ، لا يصل  
به إلى أن يكون صاحب مذهب فيه . وكفاه أنه أظهر في هذه المواقف  
ما عنده من ذوق سليم ، وتقدير صحيح للشعر . فمن أراد أن يقصده بشعره  
فليحرص على التجويد ، وليحذر هذا النقد .

### مجالس الشعر عند عبد الملك :

كانت لعبد الملك مجالس أدبية يعنى فيها بالشعر ، يرويه أو يسمعه وينقده ،  
أو يحكم بين الجالسين عنده إذا اختلفوا في مسألة من مسائله . من ذلك بيت  
نصيب السابق إذ أصلحه . ومنها حكمه على شبيب بأنه أشعر من الأخطل .  
وقد روى أن الشعراء اجتمعوا عنده فقال لهم : أبقى أحد أشعر  
منكم ؟ قالوا : لا . فقال الأخطل : كذبوا يا أمير المؤمنين ، قد بقي من هو  
أشعر منهم . قال من هو ؟ قال : عمران بن حطان . قال : وكيف صار أشعر  
منهم ؟ قال : لأنه قال وهو صادق ففاقهم ، فكيف لو كذب كما كذبوا (١) .  
والتقى الأخطل وجرير في مجلسه لأول مرة (٢) ، وكانا تهاجيا قبل هذا  
اللقاء ، وعرفه الأخطل وجلس ينظر إليه فظراً شديداً ، فقال له جرير من  
أنت ؟ فقال : أنا الذي منعت نومك ، وتهضمت (٣) قومك . فقال له جرير :  
ذلك أشقى لك كائناً من كنت . ثم سأل عبد الملك : من هذا يا أمير المؤمنين  
— جعلني الله فداك — فضحك وقال : هذا الأخطل يا أبا حذرة . فقال  
جرير للأخطل : لحيائك الله يابن النصرانية . أما منعك نومي فلو نمت عنك  
لكان خيراً لك ، وأما تهضمك قومي فكيف تهضمهم وأنت بمن ضربت  
عليهم الذلة والمسكنة وباء بغضب من الله ، وأدى الجزية عن يد وهو صاغراً  
وكيف تهضم — لا أم لك — قوما فيهم النبوة والخلافة ، وأنت عبد



مأمور ، ومحكوم عليه لا حاكم ! ثم أقبل على عبد الملك فقال : إئذن لي يا أمير المؤمنين في ابن النصرانية . فأبى عبد الملك أن يكون ذلك بحضرته . وخرج جرير مغضباً . فأمر عبد الملك الأخطل أن يخرج وراءه ، وأمر خادما له أن ينظر ما يصنعان إذا برز الأخطل لجرير . ودعا جرير بـغلام له ، فقدم إليه حصاناً أدهم ، فركبه وهدر والفرس يهتز من تحته ، وتوارى الأخطل بالباب حتى مضى جرير . وعاد الخادم إلى عبد الملك فأخبره . فضحك ، وقال : قاتل الله جريراً ، ما أخفله ! أما والله لو كان النصراني برز إليه لأكله !

واجتمع عنده ابن أبي ربيعة وكثير وجيل (١) . فقال : أنشدوني أرق ما قلتم في الغواني . فأنشدوه ففضل عليهم ابن أبي ربيعة في العطاء ، إذ أمر له بعشرة آلاف وأمر لكل من صاحبيه بألفين . وفي أخباره (٢) أيضاً أنه صنع طعاماً فأكثر وأطاب ، ودعا إليه الناس فأكلوا . وقال أحدهم . إنه لم ير أكثر منه ولا أطيب . فقال أعرابي كان بين الحاضرين : أما أكثر فلا ، وأما أطيب فقد - والله - أكلت أطيب منه . فطفقوا يضحكون من قوله . فسأله عبد الملك عن ذلك الطعام ، فأخبره - في خبر طويل - أنه صاد يوماً أتاناً وحشية وشواها ، وأكل جزءاً منها ممزوجاً بغيره . فقال عبد الملك : لقد أكلت طعاماً طيباً ، فمن أنت ؟ فقال : من أخوالك من عذرة . قال عبد الملك : أولئك فصحاء الناس ، فهل لك علم بالشعر ؟ قال سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين . قال : أي بيت قالته العرب أمدح ؟ قال : قول جرير

ألستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح  
وكان جرير في القوم فرفع رأسه وتناول لها . ثم سأله عبد الملك عن آخر بيت قالته العرب . فقال : قول جرير .



إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهمو غضابا  
فتحرك جرير . ثم سأله عبد الملك عن أهجى بيت فأخبره بقول جرير  
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا  
فاستشرف لها جرير . ثم سأله عبد الملك عن أغزل بيت . فأنشده  
بيت جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحمين قتلانا  
فاهتز جرير وطرب . ثم سأله عبد الملك : أى بيت قالته العرب أحسن  
تشبيهاً . قال : قول جرير :

سرى نحوهم ليل كان نجومه قناديل فيهن الذبال المقتل  
فقال جرير : جائزنى للعذرى يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك : وله  
مثلها من بيت المال . ولك جائزتك يا جرير لا تنتقص منها شيئاً . وكانت جائزة  
جرير أربعة آلاف درهم ، وتوابعها من الحملان والكسوة ، فخرج العذرى  
وفي يده ثمانية آلاف درهم ، وفي الأخرى رزمة ثياب .

ودخل عليه كثير وعنده الأخطل فأنشده . فقال للأخطل : كيف ترى .  
فقال : حجازى مجوع مقرور . دعنى أضغه (١) يا أمير المؤمنين . فقال  
كثير : من هـ ذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : هـ ذا الأخطل . فقال له كثير :  
مهلا ، فهلا ضغمت الذى يقول :

لا تطلبن خثولة فى التغلب فالزنج أكرم منهمو أخوالا  
فسكت الأخطل فما أجابه بحرف .

وما كان أكثر هذه المجالس وحديث الشعر فيها والعطاء عند عبد الملك !  
وكان للمناظرات والمحاورات والخطب مكانها فى مجالس عبد الملك أيضا  
نذكر منها ما كان بينه وبين الخوارج (٢) .

روى أن عبد الملك أتى برجل من الخوارج فبعثه ، فرأى منه ما شاء



فهما وعلماً ، ثم بحثه فرأى ما شاء إرباً ودهياً (١) ، فرغب فيه ، واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصراً محققاً ، فزاد في الاستدعاء . فقال له : «لنغتنك الأولى عن الثانية . وقد قلت فسمعت ، فاسمع أقل .» فسمع له عبد الملك ، فجعل يبسط له من قول الخوارج ، ويزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بيّنة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك : «لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبت الله على من الحجة ، وقرر في قلبي من الحق ، فقلت له : «لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطني الله في الدنيا ، ومكن لنا فيها ؛ وأراك لست تهجيب بالقول . والله لأقتلنك إن لم تطع .»

وبينا هما كذلك دخل على عبد الملك أحد أبنائه يبكي لضرب المؤدب إياه ، فشق ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجي فقال له : «دعه يبك ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها . فأعجب هذا القول عبد الملك فقال له متعجباً : «أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ فقال : ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء .» فأمر عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال يعتذر إليه : «لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ما حبستك .» ثم قال عبد الملك : «من شكسكني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله ، فغير بعيد أن يستهوى من بعدى .» ثم يقول أبو العباس : «وكان عبد الملك من الرأى والعلم بموضع .»

بينه وبين خالد بن يزيد :

ودخل عبد الله بن يزيد بن معاوية (٢) على أخيه خالد فقال : لقد هممت اليوم بقتل الوليد بن عبد الملك . فقال له خالد : «بئس ما هممت به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين !» قال : «لأنه لقي خيلي فنفرها وتلاعب

(١) العرب : اللها ، والعقل . الدهى : جودة الرأى والادب

(٢) ٢١٩ خطب صفوت



بها . فقال له خالد : أنا أكفيكم إن شاء الله ، ودخل على عبد الملك ، وعنده الوليد ، فأخبره بالذي كان . فنهكس عبد الملك رأسه ، وقرع الأرض بقضيب في يده ، ثم رفع رأسه إليه فقال : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » فقال له خالد : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » . فعيره عبد الملك بأن أخاه عبد الله يلحن ، فعيره خالد بأن ابنه الوليد لحان أيضاً . فقال عبد الملك : إن يكن الوليد لحانا فأخوه سليمان . فقال خالد : وإن يكن عبد الله لحانا فأخوه خالد . واشترك الوليد في الجدل فقال لخالد : أتكلمني ولست في العير ولا في النفير<sup>(١)</sup> فرد عليه : سيد العير جدى أبو سفيان ، وسيد النفير جدى عتبة بن ربيعة . ولكن لو قلت حبيلات وغنيمات<sup>(٢)</sup> والطائف لقلنا صدقت . ورحم الله عثمان .

### الوفادة الأدبية إلى عبد الملك :

كان الشعراء يفدون عليه لمدحه أو للاعتذار إليه . وهم يرجون الغنى والتقرب منه ، أو يوفدهم إليه ولاتيه في الأمصار تكريماً لهم ، وتقرباً إليه كما يتقربون بالهدايا النفيسة ، وإيثاراً له بهؤلاء الشعراء ، وخوفاً من غضبه إذا علم أن هؤلاء الولاة خصوا أنفسهم دونهم بالفحول منهم ، وأشهر هذه الوفادات عليه ، وفادة جرير من عند الحجاج . فقد أوفده مع ابنه محمد مع عشرة من أهل العراق ووصاه به . فلما وردوا ، استأذن له محمد بن الحجاج على عبد الملك فلم يأذن له . وكان لا يسمع من شعراء مضر ، ولا يأذن لهم ،

(١) العير : الابل : والإشارة إلى التجارة التي كان أبو سفيان حائداً بها من الشام ، فتصدى لها المسلمون فاستنفر أبو سفيان أهل مكة لحمايتها . ثم نجأ بها . لكن قريشا أبت إلا الخروج لحرب الرسول ، واستنفرهم لذلك عتبة ونشأت عنها غزوة بدر

(٢) الحبيلات : جمع حبيلة مثل بثينة . ومعناها الكرمة الصغيرة . والغنيمات : على وزنها الغنم القليلة : والاولى كان يأوى إليها الحكم وهو مطرود من المدينة إلى الطائف ، والثانية كان يرعاها وهو هناك . والمقصود التحقير من شأن آل الحكم



لأنهم كانوا زبيرية - فأعلمه أن الحجاج يسأله في أمره . ويقول : إنه لم يكن ممن وإلى ابن الزبير ، ولا نصره بيده ولا بلسانه . وظل محمد يشفع له حتى أذن له فدخل . فاستأذن في الإنشاد . فقال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك في الحجاج :

من سد مطلع النفاق عليكمو أم من يصول كصوله الحجاج  
وروى له شعره في الحجاج ، ولم يأذن له في الإنشاد وأخرجه بشر . فلما كان بعد ثلاث شفع محمد لجرير . فقال له عبد الملك : لا تنشدني إلا في الحجاج . فإنما أنت للحجاج خاصة . وأب أن يسمع منه غير ذلك . فلما أرف الرحيل قال جرير لمحمد : إن رحلت عن أمير المؤمنين ولم يسمع مني ، ولم آخذ له جائزة ، سقطت آخر الدهر . ولست بارحاً بابه أو يأذن لي في الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الإذن له ؛ فدخل محمد على عبد الملك فقبل يده ورجله ، فأذن لجرير أن يدخل ، ولم يأذن له في الإنشاد . ولكن جريراً اندفع فأنشده قصيدته الحائية في مدحه . فلما بدأ بقوله :

أتصحو أم فؤادك غير صاح

كره عبد الملك منه توجيه الخطاب إليه ، وقال له : بل فؤادك أنت لا أم لك ! . واستمر في الإنشاد حتى قال :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح  
فتبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن ، وما زلنا كذلك . ثم قال عن ابن الزبير :

دعوت الملحددين أبا خبيب جماحا ، هل شفيت من الجماح  
فلما قال عن زوجته :

تعزت أم حذرة ثم قالت رأيت الموردين ذوى لقاح<sup>(١)</sup>  
تعلل ، وهى ساغبة ، بنيتها بأنفاس من الشبم القراح<sup>(٢)</sup>

(١) اللقاح : الأبل العشار

(٢) الشبم : العذب البارد : القراح ، بفتح القاف : الصافي



قال عبد الملك : « هل ترويهما مائة لقحة ؟ فقال : إن لم يروها ذلك فلا أروها الله ! فهل إليها - جعلني الله فداء - أمير المؤمنين - من سبيل ؟ » فأمر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء . وكانت بين يديه جامات من ذهب . فقال له جرير : يا أمير المؤمنين ، تأذن لي بواحدة منهم تكون محلبا . فضحك ، وقذف إليه بواحدة منهم ، وقال : « خذها ، لا نفعك ! » فقال : « بلى . كل ما أخذته منك ينفعني إن شاء الله » . ويزيد صاحب ذيل الأمالى <sup>(١)</sup> على ذلك أن محمداً كتب إلى أبيه بالحديث كله ، فلما قدموا على الحجاج . قال لجرير : أما والله لولا أن يبلغ أمير المؤمنين فيجد على ، لأعطيتك مثلها . ولكن هذه خمسون راحلة وأحمالها حنطة ، تأتي بها أهلك فتميرهم <sup>(٢)</sup> . فقبضها جرير وانصرف .

وكان أعشى ربيعة ممن دافع عن أهل المصريين - البصرة والكوفة - بعد فتنة ابن الأشعث وانتصار الحجاج عليه في دير الجماجم <sup>(٣)</sup> . فقال يعتذر إليه : « قد والله اجتهدوا جميعا في قتالك ، فأبى الله إلا نصرك ، وذلك أنهم جزعوا وصبرت ، وكفروا وشكرت ، وغفرت إذ قدرت ، فوسعهم عفو الله وعفوك ، فنجوا ، فأولا ذلك لبادوا وهلكوا » . فسر الحجاج بكلامه وقال له جميلا . وقال : « تنهيا للوفادة إلى أمير المؤمنين حتى يسمع هذا منك » .

### استشهاده بالشعر :

لا تكاد تذكر حادثة في تاريخ عبد الملك إلا وله فيها استشهاد بالشعر ، أو إشارة إليه . وذلك أنه كان راوية للحديث والتقديم منه ، يعرف كيف يصيب موضع الاستشهاد ، ويختار منه ما يناسب المواقف المختلفة . ولو فرغ لرواية الشعر لما قصر عن واحد من أكابر الرواة .

أرسل إليه الحجاج يخبره بقتل عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، مع رجل



يقال له عرار بن عمرو بن شاس الأسدي ، وكان أسود دميماً (١) . فجعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الواقعة إلا أنبأه به عرار ، في أصح لفظ ، وأشبع قول ، وأجزأ اختصار ، فسقاه من الخبز ، وملاً أذنه صواباً ، وعبد الملك لا يعرفه ، وقد اقتحمته عينه حيث رآه ، فقال متمثلاً .

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد  
لعمرى عرارا بالهوان فقد ظلم  
وإن عرارا إن يكن غير واضح  
فإن أحب الجون ذا المنكب العمم  
فضحك عرار ضحكا غاظ عبد الملك . فقال له : « مم ضحكت ويحك ! »  
قال : « أتعرف عرارا يا أمير المؤمنين الذي قيل فيه هذا الشعر ! » قال :  
« لا » . قال : « أنا والله هو » . فضحك عبد الملك ثم قال : « حظ وافق كلمة ،  
وأحسن جائزته وسرحه » .

واستشهد أبا العباس الأعمى مديحه في مصعب فاستغفاه وقال : يا أمير المؤمنين  
إنما رثيته لأنه كان صديقي . وقد علمت أن هواي أموى . قال صدقت .  
ولكن أنشدني ماقلته ، فأنشده :

رحم الله مصعبا فلقد ما  
ت كريما ورام أمرا جسيما  
فقال عبد الملك : أجل . لقد مات كريما ، ثم تمثّل :  
ولكنه رام التي لا يرومها  
من الناس إلا كل حرمهم

واستشهد بأبيات قيس بن رفاعه في آخر خطبته بعد مقتل مصعب .  
وأرادت عائكة زوجته أن تثني همه وهو خارج لقتال عمرو بن سعيد .  
فروى بيت كثير . وأرسل إلى ابنه رسالة رسالة بيتا من الشعر ، فرد عليه  
كذلك . ورد على ابن الأشعث برسالة من الشعر . ولا غرابة في ذلك كله  
على مثل عبد الملك .

عطاء الشعراء :

كان عطاؤه للشعراء جزيلا ، ومن أمثلة ذلك أنه أعطى جريرا في أول وفادة



عليه ولم يكن راضياً عنه — مائة ناقة برعاتها وأعطاه جامة من ذهب .  
وأعطى كعباً الأشقرى عشرة آلاف درهم لما أوفده إليه الحجاج (١) .  
وما كان أكثر عطاءه للأخطال ! . ومدحه أعشى ربعة فأعطاه عشرة آلاف  
درهم ، وعشرة تحوت ثياب ، وعشر فرائض من الابل وأقطعه ألف  
جريب (٢) .

وجاءه شاعر من ضنة بمدحه : فأعطاه ألف دينار ، ومدحه في العام القابل  
فأعطاه مثلها . ومدحه في العام الثالث فأعطاه ثلاثة آلاف دينار (٣) وغير  
هذا كثير .

وكان يوصى أبناءه بإكرامهم : روى أنه حج ذات عام فلقى أبا العباس  
الاعمى ، شاعر بني أمية ، فأقسم على كل من حضر من بني أمية وأحلافهم  
ومواليهم إلا كسا أبا العباس ، ففعلوا حتى امتلأت داره ملابس . وأمر  
له عبد الملك بمائة ألف درهم .

### أثر الشعر في نفسه :

كان للشعر أثر كأثر السحر في نفس عبد الملك : يطربه ، ويذهب غيظ  
قلبه ، ويعيد إلى نفسه سكينتها بعد أن يشتد بها القلق ، وكان يهرب  
الشعر السائر ، ويحرص على أن يكون الشعر شريكاً له في أفراحه . وأن  
يكون هادياً له إلى مكارم الأخلاق .

### ذهب إليه الأخطال بقصيدته الرائية :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير  
وأخبره أنه قضى سنة في قولها فما بلغ ما أراد ، ثم أنشدها ، فجعل  
عبد الملك يتناولها ، ويطرب لمعان المدح فيها . فلما فرغ منها . قال له : يا أخطال ،  
أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ! . قال : أكتفى بقول  
أمير المؤمنين .



وطرب وذهب غيظه لما سمع قول جرير .

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقال : نعم ، كذلك نحن ، وما زلنا كذلك !

وكان عبد الله بن الحجاج شاعرا فاتكا شجاعا معدودا من فرسان مضر ذوى البأس والنجدة ، خرج عليه مع عمرو بن سعيد ، ثم مع نجدة بن عامر ثم مع ابن الزبير . ثم ذهب إلى عبد الملك متكررا وأنشده قصيدة عينية طويلة ، لطيفة في موضوعها . مرتبة في معانيها ، وكأنها قصة ، وفيها حوار بينه وبين عبد الملك ، فلما قال له :

أدنو لترحمي وتجبر فاقتي فأراك تدفعني ، فأين المدفع

تبسم عبد الملك وقال له : إلى النار . ثم أنشده :

ضاق ثياب الملبسين وفضلهم عني ، فألبسني ؛ فتوبك أوسع

قال ابن الحجاج : مازلت أتعرف منه كل ما أكره حتى أنشدته هذا البيت . فرمى إلى رداءه وقال : البسه ، لا لبست ! .

وكتب إلى الحجاج : أن ابعث إلى رجلا يصلح للدين والدنيا ، أتخذه سمير أو جليسا وخليا . فقال : ماله ؛ إلا عامر الشعبي ، فبعث به إليه ، فلما دخل عليه وجده قد كبا ، مهتما ، فقال ما بال أمير المؤمنين ! قال ذكرت قول زهير :

كأنى وقد جاوزت سبعين حجة خلعت بها عني عذار لجامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس براى

فلو أقتى أرمى بنبل رأيتها ولاكنى أرمى بغير سهام

على الراحتين تارة وعلى العصا أنوء ثلاثا ، بعدهن قيامي

فقال له الشعبي ليس كذلك يا أمير المؤمنين . ولاكن كما قال لبيد (١) ،

وقد بلغ سبعين حجة

(١) أدرك لبيد الاسلام ، وقالوا إنه لم يرو له إلا بحيث واحد في الاسلام ، واختلف في هذا البيت ، فمقي قال هذه الايات ؟



كأنى وقد جاوزت سبعين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا  
وأخبره بما قاله لبید لما بلغ سبعاً وسبعين . ثم تسعين ، ثم عشرين  
ومائة سنة : ثم ثلاثين ومائة . وحضرته الوفاة في هذه السن ، فقال :  
تمنى ابتئای أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر  
فقوما فقولا بالذى تعلمانه ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر  
وقولا : هو المرء الذى لا صديقه أضع ، ولا خان الخليل ولا غدر  
إلى سنة ، ثم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر  
قال الشعبي ، فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها .  
وأشده أرطاة بن سهية (١) :

رأيت المرء تأكله الليالى كالأرض ساقطة الحديد  
وأعلم أنها ستكر حتى توفى نذرهما بأبي الوليد  
فارتاع عبد الملك ، ثم قال : بل توفى نذرهما بك . مالى ولك ! فقال :  
لا تسرع يا أمير المؤمنين ؛ فإنما عنيت نفسى وكان أرطاة يكنى أبا الوليد —  
فسكن عبد الملك ، ثم استعبر باكيًا وقال : أما والله على ذلك لتلنننى !  
وكان يخاف الشعر السائر (٢) : قال لامية بن عبد الله بن خالد بن أسيد :  
مالك ولحرثان بن عمرو حيث يقول فيك :

إذا هتف العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد  
فقال : « يا أمير المؤمنين ، وجب عليه حذفاً قته » . فقال : « فهدأت  
عنه بالشبهات ! » . فقال : « كان الحد أبين ، وكان رغبة على أهون » . فقال  
عبد الملك : « يا بنى أمية ، أحسابكم أنسابكم ؛ لا تعرضوها للهجوم ، وإياكم  
وما سار به الشعر ، فإنه باق ما بقى الدهر » .

وتزوج حفيده عبد العزيز بن الوليد أم حكيم زينب بنت عبد الرحمن  
ابن الحارث بن هشام ، وكانت من أجمل نساء قريش ، فلما عقد النكاح بينهما



في مجلس عبد الملك ، أمر بإدخال الشعراء للتهنئة ، وأعطاهم عطاء جزيلا .  
وقال جرير :

جمع الأمير إليه أكرم حرة      في كل ما حال من الأحوال  
حكيمية علت الروابي كلها      بمفاخر الأعمام والأحوال  
وإذا النساء تفاخرت ببعولة      فخرتهمو بالسيد المفضال  
عبد العزيز ، ومن يكلف نفسه      أخلاقه ، يلبث بأكسف بال  
هناكم بمودة ونصيحة      وصدقت في نفسى لكم ومقال  
فلتهنك النعم التي خولتها      ياخير مأمول وأفضل وال  
فزاد ذلك من سرور عبد الملك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

### نفسيته من تاريخه الأدبي :

لعل أظهر صفة يدل عليها تاريخ عبد الملك الأدبي الانصاف لأولياته  
وأعدائه على السواء . فقد أنصف أنس بن مالك لما كتب إليه يستجير به  
من الحجاج ، وأنصف أهل الحجاز لما أحس بثقل وطأة الحجاج عليهم  
في حديث بينه وبين إبراهيم بن محمد بن طلحة (١) ، وأنصف مصعب بن الزبير  
ميتا لما اتهمه بعض الناس عنده بأنه كان يشرب الخمر ، فرد عليهم بقوله :  
إنه لو عرف أن شرب الماء يفسد مروءته ماشر به .

أنصف المهلب وآله من الحجاج ومن بشر بن مروان ، وحى عروة بن  
الزبير من الحجاج لما طالبه بإرساله إليه .

وكان يؤثر رضا العامة ولو بعزل الخاصة . فحاول أن يترضى أهل العراق  
بعزل الحجاج . كما كان حذرا فطنا لما أراد صاحب الروم أن يوغر صدره  
على الشعبي كي يقتله .

ولولا السياسة لما غدر بعمر بن سعيد بعد الأمان ، ولا حاول خلع  
عبد العزيز من ولاية العهد ، ولولاها لكان علما من أعلام التابعين لاخليفة  
من خلفاء الأمويين .



### ٣ - الوليد بن عبد الملك

لعل شهرته في التاريخ أعظم من شهرته في الأدب ، فكانت خلافته غرة في جبين الأمويين للأعمال العظيمة التي قام بها وللأخلاق الكريمة التي كان عليها ، وللفتوح الواسعة التي فتحها :

ورث عن أبيه مملكة هادئة ، فصرف جهده إلى الغزو الخارجي ، والإصلاح الداخلي . وأشهر ماضم إلى البلاد الإسلامية في أيامه بلاد الأندلس ، على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد . وتم في عهده فتح بلاد السند ، على يد محمد بن القاسم الثقفي . وسارت جيوش قتيبة بن مسلم إلى فتح بلاد الصين . وأصلح الطرق وحفر الآبار في البلدان .

وفي أيامه نقلت دواوين الخراج في الشام ومصر إلى العربية الأولى على يد سليمان بن سعد والثانية على يد ابن يربوع الفزاري ، بعد أن نقل ديوان العراق إلى العربية في عهد الحجاج على يد صالح بن عبد الرحمن .

وعد من حسناته أنه استعان بعمر بن عبد العزيز فولاه المدينة سنة ٨٧ هـ وكان في الخامسة والعشرين من عمره ، فأعاد في حكمها سيرة السلف الصالح . وأشهر أعمال الوليد بناء المسجدين العظيمين : المسجد النبوي في المدينة ، والمسجد الأموي في دمشق . ويروى عنه في احترام العلماء أنه لما ذهب إلى المدينة لزيارة المسجد النبوي بعد تمامه ، أخرج الحرس كل من في المسجد إلا سعيد بن المسيب ، فأبى أن يخرج قبل الوقت الذي تعود الخروج فيه ، أو أن يغير المكان الذي كان يجلس فيه ، وأبى أن يسلم على أمير المؤمنين لما أمره بذلك . فلما لم يجب لهم طلبا حاول عمر بن عبد العزيز ألا تقع عين الوليد عليه وهو يطوف بالمسجد ، لكن الوليد نظر إلى القبلة فرأى الشيخ سعيد بن المسيب ، فسأل عنه . فقال عمر بن عبد العزيز للوليد : يا أمير المؤمنين ، لو علم الشيخ مكانك لقام للتسليم عليك ، ولكنه ضعيف البصر ، فقال الوليد : قد علمت حاله ، ونحن نأتيه فنسلم عليه . ثم أقبل حتى وقف عليه وقال



له : « كيف أنت أيها الشيخ » ؟ فلم يتحرك سعيد ولم يقم <sup>(١)</sup> ، ورد عليه : « بخير والحمد لله ، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله » ؟ قال الوليد : خير والحمد لله ، ثم انصرف وهو يقول لعمر : هذا بقية الناس .

أما الخطابة فلم يكن الوليد من فرسانها . وقالوا إنه كان يخطب جالسا ، وعابه خالد بن يزيد بأنه كان يلحن ، وقال أبوه : أضربنا في الوليد حبنا له فلم نلزمه البادية <sup>(٢)</sup> . ولما سكن لحنه كان معدودا

ولم يكنه كان أديبا خطيبا راعيا للشعر ، راعيا للأدب . وأشهر من اتصل به ومدحه من الشعراء عدى بن الرقاع فحماه من جرير : كان ابن الرقاع في مجلسه يوما ودخل جرير فقال له : أتعرفه ؟ قال لا . فن هو ؟ قال : هذا ابن الرقاع . قال : فشر الثياب الرقاع . فمن هو ؟ قال من عاملة . فقال جرير : هي التي يقول الله فيها : « عاملة ناصبة ، تصلي نارا حامية » . وفي بعض روايات الأغاني أن الوليد غاظه ذلك من جرير . فقال والله ليركبك ! شاعرنا ومادحنا ، والرأي لأمواتنا ، تقول له هذه المقالة ! فقام إليه عمر بن الوليد فشفع له :

وغاظه من ابن الرقاع أنه مدح واليا عزله بقوله :

فما عزلك مسبوقا ولمكن إلى الخيرات سباقا جوادا

فجىء به إليه فقال له : أتمدح رجلا قد فعلت به ما فعلت ! فقال يا أمير المؤمنين : إنه كان إلى محسننا ، ولى مؤثرا ، وبى برآ ، ففى أى وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم ؟ فقال الوليد . صدقت وكرمت . وعفا عنهما .

واستدعى ابن سريج من الحجاز ليغنيه <sup>(٣)</sup> فلما دخل عليه قال له : ولقد بلغنى عنك ما حملنى على الوفادة بك : من كثرة أدبك ، وجودة اختيسارك مع ظرف لسانك ، وحلاوة مجلسك . فقال : جعلت فداءك يا أمير المؤمنين . تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . فقال الوليد : إني لأرجو ألا تكون أنت ذاك . ثم أذن له فغناه بشعر الأحوص فى مدحه . فلما فرغ قال له :



أجسنت والله وأحسن الأحوص . على بالأحوص . ثم غناه ابن سريج  
بشعر ابن الرقاع في مدحه ، ومنه :

هو الذي جمع الرحمن أمته على يديه وكانوا قبله شيعا  
عذنا بنى العرش أن نحيا ونفقده وأن نسكون لراع بعده تبعا  
إن الوليد أمير المؤمنين ، له ملك ، عليه أعان الله فارتفعنا  
ثم غناه بشعر آخر من القصيدة الدالية المشهورة لابن الرقاع وأولها :  
عرف الديار توها فاعتادها من بعد ما شمل البلي أبلادها  
وفيها يقول في مدحه :

أولا ترى أن البرية كلها ألفت خزائنها إليه فقادها  
ولقد أراد الله إذولا كها من أمة إصلاحها ورشادها  
فلما فرغ من غنائه أشار الوليد إلى بعض الخدم فغطوه بالخلع ، ووضعوا  
بين يديه كيسا من الدنانير ، وبدراً من الدراهم . ثم قال له الوليد : يا مولى  
بنى نوفل . لقد أوتيت أمراً جليلاً . فقال ابن سريج : « يا أمير المؤمنين : لقد  
أتاك الله أمراً عظيماً ، وشرفاً عالياً ، وعزاً بسط يدك فيه فلم يقبضه عنك ،  
ولا يفعل إن شاء الله . فأدام الله لك مالولاك ، وحفظك فيما استرعاك ،  
فإنك أهل لما أعطاك . ولا نزعه منك إذ رآك له موضعاً . قال : يا نوفل  
وخطيب أيضاً ! فقال : « عنك نطق ، وبلسانك تكلمت ، وبعزك بينت .  
ومدحه الأحوص وابن الرقاع بقصائد وأخذ الجميع جوائز سنية .  
وأراد أن يسير على سنة أبيه (١) فيستعين بالشعر على خلع أخيه سليمان ،  
والبيعة لابنه عبد العزيز ، ودس في ذلك إلى القواد والشعراء ، وقال جرير  
يخص الناس على بيعته (٢)

إلى عبد العزيز سمت عيون الرعية إذ تخيرت الرعاء  
إليه دعت دواعيه إذا ما عماد الملك خرت والسماء  
وقال أولو الحكومة من قریش علينا البيع إذ بلغ الغلاء



رأوا عبد العزيز ولى عهد وماظفوا بذلك ولا أساءوا  
تم قال :

فزحلفها بأزفلها إليه <sup>(١)</sup> أمير المؤمنين إذا تشاء  
فإن الناس قد مدوا إليه أكفهمو وقد برح الخفاء  
ولو قد بايعوك ولى عهد لقام الوزن واعتدل البناء  
وكانت منزلة الشعر في الأمة عندئذ عظيمة ، وكان يرجي من منزلة جرير  
وشيوع قوله في الناس ، أن يهيء الأذهان ، ويحول القلوب ، ويؤيد رأى الوليد  
ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن ، ومات الوليد قبل أن تتم البيعة .  
ولا يذكر الوليد بن عبد الملك إلا ذكرت زوجته « أم البنين » بنت عمه  
عبد العزيز أيضا لجمالها ، وتغزل ابن قيس الرقيات فيها ، وقصة وضاح  
البنين معها .

أما ابن قيس الرقيات فكان ناصرا لآل الزبير على قومها من بني أمية .  
فابتدع طريقة في العبث بهم هي الغزل بنسائهم غزلا يغضبهم ، ويثير غيرتهم .  
على ألا يؤذى هؤلاء النسوة ، ولا يعرض لهن بما يسوءهن . فلما تغزل بأم  
البنين حرص على أن يتلطف في غزله . فزعم أنه ما كان بينه وبينها إلا  
أحلام نائم . ومن ذلك أبياته فيها من قصيدة يمدح فيها مصعبا :

فدع هذا ولكن حاة قد كنت أطلبها  
إلى أم البنين متى يقر بها مقربها  
أتلتى في المنام فقلت هذا حين أعقبها  
ثم ذكر في هذه القصيدة المتخيلة شيئا عما كان بينه وبينها في المنام فقال :  
فكانت ليلة في النوم نسمرها ونلعبها  
فأيقظنا مناد في صلاة الصبح يرقبها  
فكان الطيف من جنية لم يدر مذهبها  
يؤرقنا إذا نمنا ويبعد عنك مسربها

(١) زحلفها - ادفعها . بأزفلها - بأجمعها



لكن عبد الملك أهدر دمه، ولم يشفع له إلا عبد الله بن جعفر عند أم البنين، فكانت شفيعا له عند عمها عبد الملك .

وقد يكون من العسير التوفيق بين هذه الأغراض المتباينة في قصيدة واحدة . وكيف ترضى أم البنين ويغضب أهلها ؟ لكن النساء كن حريصات على هذا الغزل يدعون إليه الشعراء ، ويحملن إليهم الجوائز من أجل ذلك . واستطاع ابن قيس الرقيات أن يوفق بين هذه الأغراض كلها . وسمى هذا النوع من الغزل « الغزل الهجائي » ،

أما وضاح اليمن فشخصية اختلف في وجودها واسمها ومدى صلتها بالخليفة . وفي تاريخه في الأغاني أنه تغزل في أم البنين ، وغضب الوليد عليه فقتله، وتحدثت القصة الموضوعة التي تدور حوله أنه كان يصل إليها في القصر على غير علم من الوليد ، فلما علم بذلك ذهب إليها يوما فوجدها قد أخفته في صندوق ، فاستوهبها هذا الصندوق فوهبته له ، فحمله مغلقا كما هو وأمر بحجب خفر ودعا بالصندوق وقال : كائن يخاطبه : إنه بلغنا شيء إن كان حقا فقد كفناك ودفناك ، ودفنا ذكرك ، وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر . وإن كان باطلا فإننا دفنا الخشب ، وما أهون ذلك ! ثم قذف به في البئر ، وهيل عليه التراب وسويت الأرض . وما رؤى بعد ذلك لوضاح اليمن أثر في الدنيا . ومارأت أم البنين لذلك أثرا في وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما .

وليس أدعى إلى الاستهزاء بهذه القصة ومخترعيها من روح الضعف والاستخذاء والتبذل التي تناسب من وضعوها ، فكيف يعقل من الوليد كل هذا الصبر والثبات والرزانة والحلم والوقار في ذهابه إليها ، وعدم ذكر كلمة تسوءها عندها، كأنه عدم النخوة والحمية والغيرة ! ، وكأن حب الاستطلاع - وهو غريزة - قد مات في نفسه ، فلم يفكر أن يفتح الصندوق ولا أن يعرف ما بداخله . وختم هذه السخافة والهذيان أن أم البنين لم تر أي أثر يدل على تغير الوليد ، حتى فرق الموت بينهما ! ويكفيينا أبو الفرج



الأصفهاني مثنو ذلك كله فيقول . إن رجلا من زنادقة الشعوبية وقع بينه وبين رجل من ذرية الوليد فخار في أيام بني العباس ، خرجا فيه إلى أغلظ المسابة ، فوضع الشعوبى هذه القصة . أما أصلها المحتمل فيشير إلى شدة الوليد ورغبته في الفتك بوضاح ، وأن ابنه عبد العزيز أراد منه أن يسلك طريق معاوية في موقفه مع أبي دهبيل الجمحي الذي شجب بابتته (١) ، فيحسن إليه ويكرمه ليستجى ويكف ويكذب نفسه . ولكنه أبى ، وأورد وضاحا موارد التلف والهلاك .

(١) في صفحة ٨٨ من هذا الكتاب أن عبد الرحمن بن حصان هو الذي تغزل في وملة



## ٤ - عبد العزيز بن مروان

أراد نصيب أن يمدح عبد العزيز بن مروان فعرض شعره على الناس فلما اعترفوا له بالجودة ، وأنه أهل لمدح الملوك ، خرج إلى مصر لمدح عبد العزيز وأراد الدحول عليه . فكان ينحى عن مجلس الوجوه ولا يؤذن له ، فاحتال حتى كلم أحد المقربين من عبد العزيز وأخبره أنه شاعر من أهل الحجاز جاء يمدح الأمير ويرجو معروفه . فقال له : أنشدنى . يقول نصيب « فأنشدته فأعجبه شعرى . فقال : ويحك ! أهذا شعرك . فإياك أن تنتحل . فإن الأمير راوية عالم بالشعر ، وعنده رواة . فلا تفضحنى ونفسك » . فلما كان من الغد نوه باسمى عند عبد العزيز فدخلت فسلمت . فصعد فى بصره وصبوب ، ثم قال : « أنت شاعر ! ويلك ! قلت : نعم ، أيها الأمير قال : فأنشدنى فأنشدته فأعجبه شعرى » ، واستأذن أيمن بن خريم فأذن له . ولما اطمأن قال له : « يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد ! فنظر إلى فقال : والله لنعم الغادى فى أثر المخاض ، هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار ، قال : فإن له شعرا وفصاحة . فقال أيمن لنصيب : أتقول الشعر ؟ قال : نعم . قال قيمته ثلاثون دينارا . قال : يا أيمن : أرفعه وتخفضه أنت ! قال لكونه أحق أيها الأمير ! مال هذا وللشعر ! أمثل هذا يقول الشعر ! أو يحسن شعرا ! فقال : « أنشده يا نصيب » ، فأنشدته . فقال له عبد العزيز : كيف تسمع يا أيمن ! قال شعر أسود . هو أشعر أهل جلده . قال : هو والله أشعر منك . قال : أمنى أيها الأمير ! قال لى والله ، منك ! . قال والله أيها الأمير إنك للمول طرف قال : كذبت والله ما أنا كذلك . ولو كنت كذلك ما صبرت عليك . تنازعى التحية ، وتواكلنى الطعام ، وتتمسكنى على وسائدى وفرشى ، وبك ما بك ! - يعنى وضحا كان بأيمن - قال : انذن لى أخرج إلى بشر بالعراق ، واحملنى على البريد . . ففعل .



هذه قصة من قصص الأغاني، اللطيفة الجيدة السياق، يروى فيها خبر نصيب في أول وفادة له على عبد العزيز بن مروان .

ونخرج من قصة الأغاني هذه بان الشعراء لم يكونوا يخرجون إلى المدح، ويتجشمون مشقة السفر أياما وليالي، إلا إذا وثقوا من شعرهم، وعرضوه على أهل البصرة والذوق. وكانوا يفعلون ذلك لما يعرفون عن أمرائهم من ذوق وتقدير للأدب الجيد، وأنهم يحجزون به من طيب الجزاء . وأنهم كانوا يستمتعون بالشعر الجديد يسمعون به، أو بالشعر القديم يروى لهم أو يروونه . وهذا عبد العزيز « راوية عالم بالشعر وعنده رواة ، يقصده كثير ونصيب من الحجاز ويقصده أيمن بن خريم من العراق، ويقدمه في مجالسه ، ويخصه بكثير من العطف والاحسان ، ولا يرضى أيمن، أن يكون له منافس في مجالس عبد العزيز ، ويغضبه أن يقدم عليه شاعرا آخر - ولو كان هذا الشاعر حرا لكان الخطب على أيمن . ولكنه عبد لا يصلح إلا لرعي المخاض - ثم يغضب ويفادر البلاد كلها، أما عبد العزيز فيقدر أدب هذا العبد قدرا ذاتيا، ويفضله على الأحرار لجودة أدبه . ولا يعبا بغضبهم ، ولا برحلتهم من عنده، بل يساعدهم على هذا الارتحال، اكتفاء بهذا الشاعر الجديد، وتقدير له . وربما رأى عبد العزيز في رقه سببا من أسباب تقديمه يحمله على الاخلاص وعدم التقلب في الولاء . وليس هذا العبد من الموالى الفرس الذين تطاولوا وتقلبوا في ولائهم . إنه حبشى . وليس لهذا النوع من الموالى عصبية أو سلطان يحملهم على التردد كموالى الفرس .

وقد كثرت وفادته بعد ذلك عليه . وأعطاه عبد العزيز فأكثر عطائه . واشتراه فأعتقه . وصحبه في كثير من حالاته . وهدحه نصيب فأحسن المدح فيه . وكان نصيب عند حسن ظنه فوفى له حيا ، ورثاه ميتا بما أبكى عبد الملك ، وأبكى عمر بن عبد العزيز .



ورأيت شاعراً آخر يمدح عبد العزيز بن مروان ، ويفد عليه بمصر  
ويطيل المقام عنده : هو أمية بن أبي عاثر (١) ، فيكرمه عبد العزيز ، ويأنس به  
ثم يتشوق أمية إلى أهله فيصليه عبد العزيز ويأذن له . كما وفد عليه جرير  
ومدحه وأخذ جوائزه .

ظل عبد العزيز والياً على مصر لآبيه ولأخيه عبد الملك إحدى وعشرين  
سنة ، وبني مدينة حلوان ، وكتب وخطب ، وجلس للشعراء ، وفاضت  
يدها بالعطاء ، ولا يمكن بعد الشقة بينه وبين منابع الرواية والشعر في العراق  
والحجاز ، حرماً كثيراً مما كان له من آثار . ونرى مما بقي من تاريخه أنه كان  
حسن الظن بموسى بن نصير فاتح الأندلس ، وأنه حمل أخاه عبد الملك على  
أن يوليه فحمد ولايته ، وكانت بينهما رسائل بشأنه .

وبقى والياً على مصر حتى مات سنة ٨٤ هـ فرثاه نصيب وأكثر من  
رثائه . ودخل يوماً على عبد الملك فقال له : أنشدني بعض ما رثيت به أخي .  
فأنشده قوله :

|                                 |                             |
|---------------------------------|-----------------------------|
| عرفت وجربت الأمور، فما أرى      | كأض تلاه الغابر المتأخر     |
| ولا يمكن أهل الفضل من أهل نعمتي | يمرون أسلاًفاً أمامى وأغبر  |
| فإن أبك أعذر، وإن أغلب الأسى    | بصبر فثلى عندما اشتد يصبر   |
| وكانت ركابي كلما شئت تنمى       | إليك ، فتقضى نحبها وهى ضمير |
| ترى الورد يسرا ، والثواء غنيمة  | لديك ، وتثنى بالراضحين تصدر |
| فلما سمع عبد الملك قوله :       |                             |

فإن أبك أعذر، وإن أغلب الأسى بصبر فثلى عندما اشتد يصبر  
قال له : ويلك ، أنا كنت أحق بهذه الصفة في أخى منك ! فهلا وصفتني  
بها ! وجعل يبكي .

فعبد العزيز خطيب راوية . يرعى الأدباء ويجزى المحسن منهم  
أحسن الجزاء .



## ٥ - بشر بن مروان

رغب أيمن بن خريم عن جوار عبد العزيز بن مروان لما فضل عليه نصيباً، فاستأذنه أن يحمله على البريد إلى بشر بالعراق، فأذن له. فقال:

ركبت من المقطم في جمادى  
ولو أعطاك بشر ألف ألف  
أمير المؤمنين أقم ببشر  
ودع بشراً يقومهم ويحدث  
كأن التاج تاج بني هرقل  
على ديباج خدّى وجه بشر  
فأعطاه بشر مائة ألف درهم.

إلى بشر بن مروان البريدا  
رأى حقاً عليه أن يزيدا  
عمود الحق إن له عمودا  
لاهل الزيغ إسلاما جديدا  
جلوه لأعظم الأيام عيدا،  
إذا الألوان خالفت الحدودا

### شعراء الشيعة ومدح بني أمية

قد ذهب أيمن إلى عبد العزيز غاضباً من عمه يحيى بن الحكم، ثم كره جوار عبد العزيز، فخرج إلى العراق واستقرت به النوى - ولو إلى حين - عند بشر بن مروان. وكثرت وفادته على عبد الملك وولاته ومدحهم، فكان شاعراً من شعراء بني أمية: يمدح يحيى هذا، ويمدح عبد العزيز وعبد الملك وبشراً أبناء مروان، ويأخذ جوائزهم جميعاً - وكان يتشيع - ونكاد نرى في قصته أنه فضل بشراً عليهم. والفرزدق يمدح بشراً، ويمدح عبد الملك، ويمدح سعيد بن العاص، ويمدح غيرهم من بني أمية، والكميت بن زيد الأسدي يرتجل خطبة عند هشام بن عبد الملك ماسمع بمثلها (١) قط، ويمتدحه بقصيدته الرائية

اليوم صرت إلى أمية والأمور لها مصاير

ويقال إنه قالها ارتجالاً. وكثير عزة كان يتشيع أيضاً، ولسكنه كان دائم الصلة بخلفاء بني أمية.



فما مبلغ إيمان هؤلاء الشعراء بمذهبهم ؟ . أما الكميت فلا شك في إيمانه بمذهبه ، ولكن هشاما سد عليه المسالك ، وطلبه في كل مكان ، فرأى أن يعتذر إلى هشام وأن يمدحه ، ليبقى على نفسه ، وأما هؤلاء الذين قدمنا فكان تشيعهم تشيعا قليلا فقط ، وكان شعرهم للتكسب ، أو كانوا يؤثرون السكوت لما كان يستطيعه بنو أمية من عطاء ومنع ، وإزهاق أرواح وقطع ألسن الخ . فلا عجب أن نجد من الشيعة ، ومداح آل الزبير كابن قيس الرقيات واسماعيل بن يسار ، ومن الخوارج كعبد الله بن الحجاج ، من يلجأ إليهم . ومن الخوارج من فر منهم كعمران بن حطان ، ولعله كان أصدقهم إيمانا بمذهبه ، فأثر الاستخفاء على أن يمدح بما لا يعتقد ، وهو القائل :

أيها الممدوح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد

كان بشر ممدحا . وكان جوادا

قدم عليه «أيمن» بالآيات السابقة فأعطاه مائة ألف ، ومدحه نصيب بالسكوفة ، فأمر له بعشرة آلاف درهم . وكان الحكم بن عبد الأسد منقطعاً إلى بشر بن مروان ، وكان يأنس به ويحبه ويستطيعه ، وأخرجه معه إلى السكوفة لما وليها . وعرض له ما شغله عنه ، ثم التقيا فقال : «يا بن عبد مالك تركتنا وقد كنت لنا زواراً؟ فقال ابن عبد شعرأ يعاتبه فيه ، فوصله وحمله وكساه .

وكان عبد الله بن الزبير الأسدي من أكثر الشعراء اتصالاً به ، ومدحه واستعطفه وأخذ جوائزه ، واعتذر إليه : ودخل عليه يوماً وعليه ثياب كان بشر قد خلعها عليه . وكان قد بلغ بشراً عنه شيء يكرهه ، فجفاه ، فلما وصل إليه وقف بين يديه ، وجعل يتأمل من حواليه من بني أمية ، ويجيل بصره فيهم كالمتعجب من جمالهم وهيئتهم . فقال له بشر ، إن نظرك يا بن الزبير ليدل أن وراثة قولا . فقال نعم . فقال قل : فقال :



كان بنى أمية حول بشر نجوم وسطها قمر منير  
هو الفرع المقدم من قریش إذا أخذت مأخذها الأمور  
لقد عمت نوافله فأضحى غنياً من نوافله الفقير  
جبرت مهيضنا وعدلت فينا فعاش البأس السكل الفقير  
فأنت الغيث قد علمت قریش لنا، والواكف (١) الجون المطير  
فأمر له بخمسة آلاف درهم ورضى عنه .

وتعرض يوماً لمدحه ، فقال له بشر : هل أبقى أسماء بن خارجة منك  
أو من شعرك أو من ودك شيئاً ! لقد نزلت فيه بحرك يابن الزبير ، فقال :  
أصلح الله الأمير : إن أسماء بن خارجة كان للهدح أهلاً ، وكانت له عندي  
أياد كثيرة ، وكنت لمعروفه شاكرآ ، وأيادي الأمير عندي أجل ، وأمل في  
أعظم ؛ وإن كان قولي لا يحيط بها ففي فضل الأمير على أوليائه ما قبل به  
ميسورهم ، وإن أذن لي في الإنشاد رجوت أن أوفق للصواب ، فقال هات :  
فأنشده شعراً مدحه فيه بالكرم والشجاعة والسيادة وغيرها من المعاني  
المتداولة في تلك الأيام ، ومدح معه آل مروان ، والشعر في صفاء ديباجته ،  
وحسن تركيبه ، ورقة أسلوبه شعر جيد حقاً : ومنه :

فلا زلت يا بشر بن مروان سيديا يهل علينا منك ظل ووايل  
فأنت المصطفى يابن مروان والذي توافت إليه بالعطاء القبائل  
يرجون فضل الله عند دعائكم إذا جمعتكم والحجيج المنازل  
ولولا بنو مروان طاشت حلومنا وكنا فراساً أحرقتها الشعائل  
فأمر له بجائزة ، وكساه خلعة ، وأراد أن يوفده على عبد الملك . وأمره  
أن يتبأ لذلك . وسأله عما سوف يقول عنده ، فارتجل قصيدة من وقته . فلما  
فرغ منها قال بشر لجلسائه : كيف تسمعون ! هذا والله الشعر ، وهذه القدرة  
عليه ! (٢)

(١) الواكف : النهر ، الجون : الاسود ، وذلك لامتلائه بالماء

(٢) ٤٥ — ٢ — ١٣ أغاني



لم ينته هذا المجلس عند تفضيل بشر لشعر ابن الزبير ، فإن حجارا العجلي من أشرف الكوفة عقب على بشر بقوله : — هذا أصلح الله الأمير — أشعر الناس وأحضرهم قولا إذا ، فرد عليه محمد بن عمير بن عطار د راد أو كان عدوا لحجار — : أيها الأمير ، إنه لشاعر ، وأشعر منه الذي يقول :

لبشر بن مروان على كل حالة من الدهر فضل في الرخاء وفي الجهد وأبياتا أخرى ، فقال بشر : من يقول هذا ؟ قال الفرزدق — وكان

بشر غاضبا عليه — فأبى أن يرضى عنه حتى يأتي إليه بالكوفة ، وكتب

إليه محمد بن عمير بن عطار بذلك ، وغضب ابن الزبير فهجا محمدا هذا ،

فدعاه بشر أن يكف عن هجائه ، وشتت به حجار بن أبجر ، ومشيت

بنو أسد إلى ابن الزبير ، وقالوا له : أو لست تعلم أن الفرزدق أشعر العرب !

قال : بلى ، ولكن محمدا ظلمني ، وتعرض لي ، ولم أكن لأحلم عنه إذ فعل .

فحملوه على هجاء حجار حتى يرضى محمد بن عمير ، فقال يهجو

سليح النصراني مدت عجلا ، ومن يكن كذلك أهل أن يسود بني عجل

ألا إنهم كانوا لثاماً فسدتهم ومثلك من ساد اللثام بلا عقل

الخ . وتهده بنو عجل بالقتل ، فسخر منهم بقوله .

وتوعدني بالقتل منهم عصابة وليس لهم في العز فرع ولا أصل

وعجل أسود في الرخاء ، ثعالب إذا التقت الأبطال واختاف النبل

هذه صورة من مجالس بشر وما كان يجري فيها حول الشعر . وصورة

من صلة الشعراء بالأمراء والولاة ، وصورة من أثر الولاة في الشعر

وتوجيههم له ، وصورة من فعل الشعر في نفوس القبائل ، وصورة من

تعصب الأعيان لشعرائهم . ومن تعصب الأمراء على الشعراء إذا أهملهم

أو مدحوا غيرهم . ومن غضب الشعراء إذا عرض لهم أحد بسوء .

« شعر المدح » :

وهذه كلمة أقولها عن هؤلاء الشعراء المادحين : فإن أكثر ما نراه في

مدائحهم معان عامة شائعة أباهها عبد الملك ، وأراد منهم أن ينوعوا ويبدعوا ،



وفي كثير من هذه المداخل صنعة قوية . لا إيمان وعاطفة وصدق ، وأرى أن الذين أخلصوا قليلون ، كالأخطل لبني أمية ، والكميت للشيعة ، وأن الذين مدحوا للرجاء أكثر ممن مدحوا للوفاء ، وأن شعر المدح هذا قد جنى على الشعر العربي جنائية كبرى ، إذ صرف همه الشعراء وفنهم ، إلى ناحية فردية ، ودار بهم في فلك واحد ، وقلد بعضهم بعضا في المعاني ، وربما زاد العباسيون قليلا ، لسكنهم أرادوا التجديد فلم يجدوا إلا المبالغة التي خرجت بهم إلى الغلو المرذول أو الكفر .

الإغراء بين الشعراء وأثره :

وأهم ما يذكر به بشر بن مروان في تاريخ الأدب مسألة لها صلة بالسياسة وبالأدب معا . وهي الإغراء بين الشعراء :

يقول ابن سلام الجهمي<sup>(١)</sup> : كان سراقه البارقي شاعرا ظريفا تحبه الملوك قدم العراق مع بشر بن مروان ، وكان بشر من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدحا ، يمدحه جرير والفرزدق والأخطل ، وكثير ، وأعشى بن شيبان . وكان يغري بين الشعراء - وهو أغرى بين جرير والأخطل - فحمل سراقه على جرير حتى هجاء .

وفي ترجمة جرير في الأغاني<sup>(٢)</sup> أن الحجاج قال لجرير : إيه ياعدو الله ! علام تسب الناس وتشتمهم ، فاعتذر إليه جرير بأنه يفعل ذلك دفاعا عن نفسه ، وأخبره خبره مع الشعراء ، حتى جاء إلى سراقه بن مرداس البارقي ، فقال له الحجاج مالك وله ؟ فأجاب جرير : لا شيء ، حملة بشر بن مروان وأكرهه على هجائي ، ثم بعث إلى رسولا وأمرني أن أجيبه . فسأله الحجاج عما هجاء به فقال :

إن الفرزدق برزت أعراقه عفوا ، وغودر في الغبار جرير  
ما كنت أول محمر قعدت به مسعاته ، إن اللئيم عشور<sup>(٣)</sup>

(١) ص ١٥٦ طبقات الشعراء (٢) ج ٧ ص ٢٤

(٣) محمر كعبر : اللئيم . المسعاة : السعي



هــذا قضاء البارقي وإنه بالميل في ميزانكم لبصير  
ثم سأله عن رده عليه ، فقال : قلت :

يا بشر حق لوجهك التبشير

بشر أبو مروان إن عاصرتك

قد كان حقلك أن تقول لبارق

يا آل بارق فيم سب جرير

واجتمع الفرزدق وجرير والأخطل عند بشر بن مروان<sup>(١)</sup> - وكان بشر

يغري بين الشعراء - فقال للأخطل : احكم بينهما . فاستغفاه بجده ، فأبى

إلا أن يقول . فقال : هذا حكم مشثوم ! ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر ،

وجرير يغرف من بحر . فلم يرض بذلك جرير ، وكان سبب الهجاء بينهما .

فقال جرير في حكومته :

يا ذا الغباوة إن بشرا قد قضى

فدعوا الحكومة لستموم أهلها

قتلوا كليبكمو بلقحة جارهم

يا خزر تغلب استمومهمجان<sup>(٢)</sup>

فقال الأخطل يرد على جرير :

ولقد تناسبتم إلى أحسابكم

فاذا كليب لا تساوى دارما

وإذا جعلت أباك في ميزانهم

وإذا وردت الماء كان لدارم

ثم استطارا في الهجاء ، ويقول ابن سلام في هذا الخبر :<sup>(٣)</sup>

« لما بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدر إلى

العراق حتى تسمع منهما ، وتأيتني بخبرهما . فلقيهما ، فاستمع ، ثم أتى أباه

فقال : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر . فقال الأخطل :

فجرير أشعرهما . »

(١) أغاني ج ٧ ص ٧٦ (٢) اللقحة : الناقة . الخزر : الذين عيونهم ضيقة . الهجان :

الكرام (٣) طبقات الشعراء ص ١٥٨



ثم قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان، فبعث إليه محمد بن عمير ابن عطار، بدراهم وحملان وكسوة وخمر. — وبلغني أن الذي بعث بهذا شبة بن عقال المجاشعي وقال للأخطل: فضل شاعرنا عليه وسببه، ففضله في قصيدة نونية طويلة فرد عليه جرير ينقض قصيدته بأخرى من وزنها ورويها. ودخل الأخطل في صف الشعراء الطويل الذي كان جرير يهاجيه.

ولهذا الإغراء فضله على الأدب، والرواية، وأخبار القبائل في الجاهلية. فقد أحدث ثورة عظيمة في نفس كل من هؤلاء الشعراء. وبذل كل منهم جهده في الطعن على صاحبه وتجريحه، وذكر معاييه ومعائب قومه في الجاهلية والإسلام. واقتضى ذلك أن يفخر كل منهم بفضائله، من الشجاعة والكرم، وحماية الجار، والعفة، وغير ذلك. وأن يشيد بقومه ويذكر تاريخهم وما كان فيه من أيام غر، ومكارم معدودة<sup>(١)</sup>. وكثر ذلك النوع من الشعر المسمى «النقائض». وقد حفظ هذا التهاجي كثيرا من تاريخ القبائل التي ينسب إليها هؤلاء الشعراء. فكان مصدرا من مصادر تاريخ الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها. وزاده شراح هذه النقائض تفصيلا. ولا كنه تاريخ متهم، فيه تحيز الشاعر لقبيلته، وتحامله على خصومه.

أما السياسة فكانت تقصد بهذا الإغراء أن تشغل الشعراء بعضهم ببعض، وأن تشغل قبائلهم معهم، وأن تفضل شاعرا على شاعر. وفي هذا تفضيل لقبيلته فيضمن رجال السياسة صرف القبائل عن سياستهم، وتحويل الشعراء عن نقدهم، وخلق جو من التنافس بينهم في الولاء للدولة ونصرتها، والطمع في العطاء والتقدم عند الخلفاء. وفي الآيات التي سقناها. وفي حرص محمد بن عمرو في رواية، أو شبة بن عقال في رواية أخرى - وهما من رهط

(١) أغنى ١٩ في ترجمة الفرزدق أنه قال لآخواله: لقد نرفكم من فخرى أكثر مما غضمكم من هجاء جرير. وقال لهم: والله لما ذكرت من شرفكم وأظهرت من أياكم أكثر.



الفرزدق - على أن يحكم الاخطل لصاحبهما ، تأييد لما نقول . فانظر إلى أى مدى حاولت السياسة أن تؤثر فى الأدب !

كان لبشر - على صغر سنه ، وقصر ولايته - حديث في الأدب أكثر من أخيه عبد العزيز ، ولا يرجع ذلك إلى ثقافة بشر الأدبية ، ولا سخائه ، ولا تقديره للأدب . فربما كان عبد العزيز أستاذه في كل هذا - وقد ربي بشرا في حجره بمصر بعد موت أبيه مروان - وطالت ولايته على مصر . ولم يكن خيرا أقل من خير العراق . لعل السبب متعلق بالبلد الذي كان يحكمه كل منهما . إذ كان بشر يحكم العراق ، وشعراؤه كثيرون ، وسكانه عرب ، والوفادة إلى الولاية هناك ميسورة . أما مصر فكانت الرحلة إليها شاقة ، وشعراؤها وافدون عليها ، وكانت الأمور فيها مستقرة ، فكانت الحاجة إلى الشعر السياسي فيها قليلة ، ولم يكن بالوالى حاجة إلى إغراء الشعراء بعضهم ببعض كما كانت الحاجة في العراق . ولا نكاد نذكر من الشعر في أيام عبد العزيز بمصر إلا شعر المدح وهو قليل .



## ٦ - الحجاج (١)

لعل الحجاج بن يوسف الثقفي أبرز شخصية في ولاية الدولة الأموية جميعا ، وذلك للعبقريّة الخطابية التي امتاز بها من بين الولاة ، ولتأثير الثورات التي تغلب عليها ، والشعراء الذين اتصل بهم ، والمواقف الأدبية التي وقفها مهاجما أو مدافعا ، والأسلوب الشعري الذي امتاز به في خطابه ، من كثرة الاستشهاد بالشعر ، وقوة الحجج الخطابية والمنطقية ، تبريرا لسياسته العنيفة في البلاد التي حكمها ، ومع الرجال الذين كانوا يعملون له ، ومع الأعيان واخص منهم الصحابة والتابعين ، ولاختلاف الناس في أمره بعد موته ، ولشخصيته المزدوجة التي يصورها تاريخ الأدب عنيفة قاسية في بعض المواقف ، طائعة منيعة إلى الله في مواقف أخرى .

وقد اعتمد عليه عبد الملك في تأديب جنود متخاذلين يعتمدون على صلة رئيسهم روح بن زنباع بالخليفة ، فكان الحجاج القائد الذي ألزمهم الطاعة وأخرجهم راغمين لحرب زفر بن الحارث في شمال العراق ، ولحرب الخوارج مع المهلب (٢) .

وكان ابن الزبير خليفة تخضع له أكثر البلاد الإسلامية ، ويتخذ من البلد الحرام مقرا لخلافته . فلم يجد عبد الملك إلا الحجاج يرمى به في هذا الموقف الحرج ، ويخرجه لمحاربة هذا الصحن الجليل ، والخليفة القوى ، العائد بالبلد الحرام . فذهب إلى أبعد حد في محاربته حتى انتصر عليه ، وأخضع الحجاز لعبد الملك . وكانت خطبته بعد قتله لابن الزبير من أقوى الخطب التي ظهرت فيها مقدرته البيانية مع ضعف مركزه . فقد خطب في الناس بعد أن هاجم مكة ، ورمى السكبة ، وقتل ابن الزبير وصلبه سنة ٧٣ هـ فقال :

« ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله ، ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته

(١) للدؤلف كتاب خاص استوفى فيه الحديث عن الحجاج : اسمه (سيف بن مردان)

(٢) سيف بن مروان ص ١٠



وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

لقد ظهر في أولها بمظهر المنصف ، كي يسترضى مكة الشائرة التي ارتجت بالبكاء لمقتل ابن الزبير ، فاعترف أنه كان من أحبار هذه الأمة ، فلها رغب في الخلافة تغيرت حالته ، فأصبحت رغبته هذه « منازعة » لأصحاب الحق ،

وهم الأمويون ، وخلعا لطاعة الله ، وفي هذا مافيه من تقييح هذا الخروج . ثم ذهب إلى أبعد من هذا في تصويب عمله . فسمى ابن الزبير عاصيا ، فلا حرج على من يعاقبه ولو كان عائدا بالبيت الحرام ، وله في قصة آدم عليه السلام خير أسوة . فأنه قد خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وجعل له الجنة سكنا . ولم تمنعه هذه المكانة العالية من أن يؤخذ بذنبه ، فلما عصى هو وحواء ، وذاقا الشجرة ، بدت لهما سوءاتهما ، وأخرجهما الله من جنته . والحجاج في خطبته هذه لبق إلى أبعد حدود اللباقة ، وعلى الأخص في اختيار هذه القصة الدينية ليبرر بها عمله ، ولتكون حجته مسلمة ، وموقفه من ابن الزبير لا حرج فيه .

ثم نقله عبد الملك إلى العراق سنة ٧٥ هـ ، والفتن قائمة فيها على قدم وساق فالخروج على الولاة مستمر ، والخواارج يهددون العراق ولا يجردون من يحمي بلاده منهم ، والناس متخاذلون عن الخروج لحرب هؤلاء الأعداء ، فتخيره عبد الملك ورماهم به ، فذهب وفي نفسه مافيه ، من شر يضمره لأولئك العصاة ، ومن حزم يقطع به دابر الفتنة . دخل العراق في عدد قليل ، ولكنه كان كبير القلب ، ثابت الجنان ، كأنه من عزمته وشجاعته في جيش . وسار من الحجاز إلى الكوفة في اثني عشر راكبا على النجائب ، فدخل مسجدها في منظر تمثيلي محير مخيف . فقد اعتم بعمامة غطى بها أكثر وجهه ، وتقلد سيفاً ، وتنكب قوساً ، وصعد المنبر ، ومكث ساعة لا يتكلم ، فظنه الناس هو ومن معه من الخوارج ، وعرف بعضهم أنه الحجاج الذي أُرهب الحجاز وأخضعها . فلما ثارت نفوسهم واشتدت حيرتهم وقلقهم ، وأرادوا أن يحصبوه



وهو على المنبر، وتطلعوا إلى ما وراء هذا الصمت حسر اللثام عن وجهه، ثم تكلم فقال .

« يا أهل العراق إن لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها . وإن لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء ترقق بين العائث والمحي ! »

بدأ الحجاج سياسته في العراق بهذا الوعيد ، وبمثل هذه الصور الشعرية أتم خطبته الغنيمة ، مركزا كل حديثه عن نفسه ، فعل الواثق من قدرته ، المعتر بشخصيته ، وألقى بعبارات التهديد والوعيد في هذا الأسلوب التصويري وكأنه يصور لهم جحما ينتظروهم ، وعذابا أليما يعده لهم ، وإنه على ذلك قدير ، وكان يقتبس أبياتا من الشعر كأنها هدير الابل ، أو صليل السيوف ، حتى إذا فرغ من وعيده وإنذاره كانوا جميعا رهن إشارته ، ولألا فالسيف من ورائهم .

ومكث في العراق بقية أيام عبد الملك وأكثر أيام الوليد حتى مات سنة ٩٥ هـ ، بعد أن أطلقت الأحداث لسانه بالخطب الخالدة وبعض الرسائل القوية .

ومما يتميز به أدبه كثرة حديثه عن نفسه ، وهو دليل الاعتزاز بها كما تقدم ، ثم روح الشعر الظاهرة في هذه الصور البيانية التي ملاها خطبه السياسية والدينية ، كقوله في خطبة يهدد أهل البصرة .

« إنى أنذر ثم لا أنظر ، وأحذر ثم لا أعذر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق (١) ولا تكم ، ومن استرخى لبيه (٢) ساء أدبه . إن الحزم والعزم سلبان سوطي ، وابدلان به سيفي . » وقوله في أهل الكوفة .

« يا أهل الكوفة . إن الفتنة تلقح بالنجوى ، وتنتج بالشكوى ، وتحصد بالسيف . أما والله إن أبغضتموني لا تضروني ، وإن أحببتموني لا تنفعوني ، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ولا المستريح إلى مودتكم . »

(١) الترنيق : الضعف . (٢) اللب حبل يشديه الرجل إلى صدر الدابة .



ثم هذه الجمل القصيرة الموسيقية الألفاظ التي تكاد تكون مطردة في رسائله وخطبه ، وحسن الاستشهاد بالقرآن الكريم أو تضمينه واقتباسه ، وبالشعر كأنه قائله ، ليؤدى معنى في ثنايا أقواله ، أو يرهب به سامعه ، أو يثنى عليه ؛ ثم تدفقه وإهمار عباراته بلا تكلف ولا ضعف ، ثم دلالة عباراته على صدق معانيه وقوة تأثيره .

ولا تكاد تجد له قولاً هادئاً متواضعاً إلا في حديثه إلى الخليفة ، أو خطبه الوعظية ، أو في جند الشام الذين كانوا يجيئونهم مدداً من الخليفة .

أما أثره في الأدب بعد هذه الخطب والرسائل فكان كثيراً . فقد أثار عليه كثيراً من الشعراء عابوه وذموا . وأرهب كثيراً منهم فخافوه واعتذروا إليه . وأحسن إلى كثير منهم فمدحوه وأثنوا عليه خيراً . وأثار بينهم غيرة وحسداً فهاجى بعضهم بعضاً . وسجن بعضهم فانطلقت ألسنتهم به الشكوى من سجنونه . وكانت سياسته العنيفة سبباً في خروج ابن الأشعث ، ومطارف ابن المغيرة ، وشبيب الحرورى . فأداروا خطبهم حول سياسته فوصفوها بما استطاعوا من ذم قوى . وظفر ببعض الخارجين عليه فجاء لهم ، وانطلقت ألسنتهم بكل جواب بليغ ، أو اعتذار مؤثر ، أو صراحة بديعة .

وما زال الحجاج مضرب المثل في الخطابة وسلباً من أتلامها على الرغم من قلة ما حفظه التاريخ من آثاره . وكانت هذه الخطب مثلاً لمن أراد حذوا يحذيه في الإيجاز والقوة ، والإبداع في التصوير وحسن الاستشهاد والاقتباس . وما زالت خطبته حين ولى العراق ، وخطبته بعد دير الجماجم ، من أقوى ما جرى به لسان خطيب على منبر في الإرهاب والوعيد .



## ٧ - سليمان بن عبد الملك

هذا الذى كان أبوه يباهى به خالد بن يزيد فى الفصاحة ، ولنا به عهد فى الكلام عن أخيه الوليد وعن الحجاج ، لما أراد أخوه خلعه من ولاية العهد ، وساعده الحجاج على ذلك ، وقال جرير شعراً يدعو فيه إلى البيعة لعبد العزيز ابن الوليد . وقد حفظ سليمان فى نفسه ضغينة على كل من ساعدوا الوليد ، وأضمر الشر لهم ، فلها مات أخوه أخذ الذين ماثوه أخذ عزيز مقتدر ، فأذى آل الحجاج ، وأخذ منهم محمد بن القاسم الثقفى ، الذى نشر الاسلام على جميع بلاد السند ، فقيده وحمله إلى العراق ، فقال محمد متمثلاً :  
أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر  
وبكى أهل السند على فراقه . ولما بلغ العراق حبس بمدينة واسط ، فقال  
محتسراً على ما أصابه :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً  
فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلاً

وأصاب قتيبة بن مسلم الباهلى مثل ما أصاب محمد بن القاسم من غضب سليمان ، ولا كنهه ثار بخراسان وخلع سليمان ثثار به بعض الكارهين له ، أو الطامعين فى مكانته ، فقتلوه هو وإخوته وأكثر بنيه . وقال رجل من عجم خراسان : « يامعشر العرب قتلتم قتيبة ! والله لو كان منافات فينا جعلناه فى تابوت فمكننا نستفتح به إذا غزونا » . وكانوا يسمونه هناك ملك العجم .  
وأصاب موسى بن نصير فاتح الأندلس من الحبس والارهاق ما لم يحتمله .  
وبما حمده الناس لسليمان أنه عزل كثيراً من عمال العسف والجور الذين عينهم الحجاج .

ولعل أكثر أدبه وأقواه ، ما كانت له صلة بحالات الغضب التى كانت



تعتريه قبل أن يلي الخلافة ، من ذلك غضبه بسبب إهمال الحجاج لرجائه وشفاعته ، فكتب إليه يوعدة ويتهده .

« وأيم الله إن أمكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك . ولا جعلنك شريداً في الجبال ، ولو ذباطراف الشمال ، ولا علقن الرومية الحمراء بشديها (١) . علم الله ذلك منى وقضى لى به على ، فقدمما غرتك العرافية ، وانتحيت أعراض الرجال ، فإنك قدرت فبذخت ، وظفرت فعديت ، فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك ، إن كانت بي وبك مدة أتعلق بها ، وإن تكن الأخرى فأرجو أن تتول إلى مذلة ذليلة ، وخزية طويلة ، ويجعل مصيرك في الآخرة شر مصير ، والسلام . »

وقد كانت « الأخرى » فوات الحجاج في عهد الوليد . أما رده على كتاب سليمان فقد امتلأ بدهاء الحجاج وعنفه ، وكاد يوقع بسليمان عند أخيه الوليد حينما أشار إلى رغبته في الخلافة وحرصه عليها . ويروى أنه كتب إليه :  
« إماماً أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لها ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت محوتك ، وإن شئت أثبتتكم . »

واصطفى يزيد بن المهلب ، من أجواد العرب وخير القواد ، بعدما أجاره من الحجاج في عهد أخيه في قصة طويلة لطيفة رواها الطبري وابن خلكان . وكان حريصاً على ما يعل عنه من الشعر . وقد روى أنه لما ولي الخلافة أرسل إلى عامله بالأردن أن يبعث إليه بعدى بن الرقاع مغلوله يدها إلى عنقه . فلما جاء إليه ألقى بين يديه إلقاء لاروح فيه ، فتركه حتى ارتد إليه روحه ، ثم قال له : أنت أهل لما نزل بك . ألسن القائل في الوليد :

معاذ ربى أن نبقى ونفقده وأن نكون لراع بعده تبعاً  
فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما هكذا قامت . وإنما قامت :

معاذ ربى أن نبقى ونفقدهم وأن نكون لراع بعدهم تبعاً



ومثل هذا الشعر الذى يتصل بالسياسة يثير سليمان وغير سليمان .  
فغاظه البيت على الرواية الأولى ، ولعل الرواية الثانية قد أعجبه  
فعفا عن ابن الرقاع إعجاباً بحسن تخلصه ، وأمر له بصلته .  
وكان الشعر يثيره أيضاً ويحمله على الشدة . فقد أغراه الفرزدق بخالد  
ابن عبد الله القسرى واليه على مكة لأنه ضرب رأس الحجة لما أبى أن يفتح  
له باب الكعبة قال الفرزدق :

سلوا خالدا - لا أكرم الله خالدا متى وليت قصر قريشاً تدينهم !  
أقبل رسول الله أم ذاك بعده فتلك قريش قد أغث سمينها  
رجونا هداها لاهدى الله خالدا - فما أمه بالأم يهدى جنينها

فمن سليمان من الشعر ، وأمر بقطع يد خالد ، وكان عنده يزيد بن المهلب  
فما زال به يفديه ويقبل يده ، حتى أمر بضربه مائة سوط ، وعفا عن قطع  
يمينه ،

وكان يرغب أن يمدحه الشعراء ويعطى على ذلك ، فمن أبى حرمه :  
اجتمع عنده نصيب والفرزدق<sup>(١)</sup> فاستنشد الفرزدق وهو يرى أنه  
سيمدحه ، فأنشده يفتخر :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب  
سروا يركبون الريح وهى تلفهم على شعب الأكوار من كل جانب  
إذا استوضحوا ناراً يقولون ليتها - وقد خصرت أيديهم - نار غالب  
فغاظ سليمان ، وكلح فى وجهه ، وقال لنصيب : قم فأنشد مولاك ويلك !  
فقام نصيب فأنشده قوله :

أقول لركب قافلين لقيتهم قفاذات أو شال ومولاك قارب<sup>(٢)</sup>  
قفوا خبرونى عن سليمان إننى لمعرفه من أهل ودان طالب  
فعاجوا فأنشوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق  
وقالوا عهدناه ، وكل عشية بأبوابه من طالبي العرف راكب

(١) أغاني ج ١ ص ٣٣٧ (٢) وراء ذات أو شال وهو اسم مكان ، قارب :  
طالب للمعروف .



هو البدر والناس السكواكب حوله ولا تشبه البدر المضيء السكواكب  
فقال : أعطوا النصيب ، وألحقوا الفرزدق بنـار أبيه ، فخرج الفرزدق  
مغضباً وهو يقول .

وخير الشعر أكرمه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيد

أما الأمر الجدير بالتفكير فهو موقف جرير منه في ولاية العهد فقد  
كان يدعو إلى خلعه ، وإقامة ابن أخيه . وقد رأيت في ديوانه قصيدة يمدحه  
فيها ويقول فيه :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدي ، قد وضع السيل  
أجرت من المظالم كل نفس وأديت الذي عهد الرسول  
صفت لك بيعة بثبات عهد فوزن العدل أصبح لا يميل

ثم يمدحه بعد ذلك بالكرم ، وأنه أراح الناس من مظالم الحجاج  
وعسف عماله الخ .

ولا أدري كيف عفا عن جرير واشتد على عدى بن الرقاع ، مع أن  
بيته في الدعاء للوليد ، لا يساوى شيئاً إذا قورن بأبيات جرير في البيعة  
لعبد العزيز بن الوليد وخلع سليمان . ربما كان هذا المدح استعطافاً أو  
تودداً لم يعبأ به سليمان .

وليس لسليمان ما يمتاز به على غيره من الخلفاء والولاة من حيث المركز  
الأدبي . لكن حسنة التي يضاعف الله أجره بها ، هي استخلافه الرجل العادل  
الصالح ، عمر بن عبد العزيز .



## ٨ - هشام بن عبد الملك

رابع الخلفاء من أولاد عبد الملك، ومن أشهر الخلفاء الأمويين وأبعدهم أثرا في السياسة والأدب .

ولا يزيد أن فطيل في صفات الخلفاء الأدبية، وهي التي طبعت مدرسة معاوية بطابعها، من فصاحة وعناية بالأدب، ورواية للقديم والحديث من الشعر والأخبار، ومن تقديم شعراء المدح، واستخدام الشعر في السياسة الخ، فقد كان هشام عظيم القدر في ذلك كله، وأخباره في هذا مشهورة، ولسكننا زيد أن نقف قليلا عند مسائل تميز بها هشام وعصره : أما أولى هذه المسائل فهي ما سجله الأدب من نزاع بينه وبين ولي العهد، الوليد بن أخيه يزيد، فقد كانا مختلفين في الأخلاق والدين . أما هشام فكان فيه حزم عبد الملك، كما كان حلما عفيفا، غير متهم في دينه، وأما الوليد فكان خليعا سكيما، يؤثر مجالس اللهو والشراب، فسكره هشام منه ذلك، وأراد أن يخلعه، ويجعل العهد لابنه مسلمة، وأراد على ذلك فأبى . فجعل يذكر تهتكه وإدما نه الشراب . وولاه الحج ليظهر ذلك منه بالحرمين، ويرى الناس هذا الفسوق فلا يغضبوا لخلعه، وكان ذلك سببا في الجفاء والقطيعة بينهما، وحرمه هشام عطاءه وبره، ودعا الناس إلى بيعه ابنه مسلمة، فأجابه عدد كثير منهم، وكتب إلى الوليد : « ما تدع شيئا من المنكر إلا أتيت به وارتسكته، غير متحاش ولا مستتر . فليت شعري ما دينك ! أعلى الإسلام أنت أم لا ؟ .

فكتب إليه الوليد .

يأيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر  
نشرها صرفا ومزوجة بالسخن أحيانا وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة — وكان يكنى أبا شاكر، وكان صديقا لابن عمه الوليد — وقال له : « يعيرني بك الوليد وأنا أشرحك للخلافة ! فالزم



الأدب، واحضر الصلوات . وولاه الموسم سنة ١١٧ هـ فأظهر النسك والوقار واللين ، وقسم بمكة والمدينة أموالا ، فقال رجل من موالى أهل المدينة :  
يأيها السائل عن ديننا نحن على دين أن شاعر  
الواهب البزل بأرسانها ليس بزندق ولا كافر  
ولكن مسلمة مات قبل أبيه ، وبقيت ولاية العهد للوليد بن يزيد . والرسائل  
بينهما من السهل الممتنع ، وسط بين الطول والايجاز ، يلوم فيها هشام ابن  
أخيه ويعيبه في جمل قصيرة ، وفقرات متساوية أو متقاربة ، وفيها تبرير لغضبه  
عليه .

أما الأمر الثاني فهو العصبية ، وما كان لتسامحه من أثر في قوتها واضطرابها  
وبخاصة في بلاد المشرق . وشغل الأدب بالنزاع القبلي أكثر من أى عهد  
مضى . فقد ولى خالدا القسرى زمنا طويلا على العراق ، وكان من اليمن ، فأساء  
إلى مضر كثيرا من الاساءات ، وولى على خراسان أخاه أسد بن عبد الله ،  
وكان شديد العصبية كأخيه خالد ، فساعدت هذه الظروف على أن يشغل  
العرب أدبهم وخطاباتهم وكتاباتهم بالحديث عن هذه العصبية وآثارها . ورأى  
دعاة العباسيين في هذا الخلاف فرصة لنشر دعوتهم في بلاد المشرق ، التي شغل  
فيها العرب بالمنازعات الخاصة . ومن خير ما يصور الخطر الناجم عن هذا  
النزاع أبيات مشهورة كتبها نصر بن سيار والى خراسان لهشام :

أرى خلل الرماد وميض جمر فيوشك أن يكون لها ضرام<sup>(١)</sup>  
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام  
فإن لم تطفئوها تجن حربا مشمّرة يشيب لها الغلام  
ولعل حلله على الشيعة قد ساعد السكينة على أن يسكن من التشيع  
ولا يخاف ، ولولا وقعة خالد القسرى (٢) والى العراق به ، لما غضب عليه  
هشام .



## التسامح مع الشيعة :

وحج هشام في سنة من السنين - وكان الفرزدق يحج في تلك السنة - فرأى علياً زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه في غمار الناس في الطواف (١)، فقال : من هذا الشاب الذي تبرق أسرّة وجهه كأنه مرآة صينية ، تتراءى فيها عذارى الحى وجوهرها ؟ فقالوا : هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم ، فقال الفرزدق القصيدة المشهورة .

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته      والبیت يعرفه والحل والحرم  
هذا ابن خير عباد الله كلهمو      هذا التقى النقى الطاهر العلم

فغضب على الفرزدق لما فى هذا الشعر من تفضيل صريح لبنى هاشم ، يمثلهم على زين العابدين ، وفى هذا الجمع العظيم الوافد من كل فج . وخاف أثر هذه القصيدة لو أنشدتها الحجاج قومهم إذا رجعوا إليهم ، فخبسه بين مكة والمدينة ، فقال الفرزدق :

أحبسنى بين المدينة والى      إليها قلوب الناس يهوى منيها  
يقلب رأساً له لم يكن رأس سيد      وعينا له حواء باد عيوبها

فلما بلغ شعره هشاماً أطلقه . جرياً على عادته فى الحلم والعفو .

وحج فلقية بعض ذرية عثمان بن عفان فقال له : « إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين (٢) ، وينصر خليفته المظلوم ، ولم يزلوا يلعنون فى المواطن الصالحة أبا تراب ، فأمر المؤمنين ينبغى له أن يلعنه » ، فشق على هشام ، وثقل عليه كلامه ، ثم قال : « ما قدمنا لستم أحد ولا للعنه ، إنما قدمنا حجاجاً ! »

ولعل هذا الحلم الذى جرأ عليه خالد القسرى ، ويسر على القبائل المتناحر والخصام ، هو الذى أخرج عليه زيد بن على بالكوفة فى ولاية يوسف بن عمر الثقفى . وقتل زيد سنة ١٢١ هـ ودفنه أصحابه سرّاً ، ولاكن



يوسف عرف قبره فنشبهه ، وأمر أن يصلب بالكنيسة ، وقطع رأسه وأرسله إلى هشام ، فصلب على باب دمشق . وخرج ابنه يحيى في أيامه فقتل سنة ١٢٥ هـ . وكان لهذا العمل أثر عظيم في نفوس أتباعه ، من الشيعة الزيدية ، فكثرت رثاؤهم له ، وحديثهم عن مذهبه السياسى ، وتطور هذا المذهب فشغل السياسة وتاريخ المذاهب كما شغل الأدب ، وما زال إلى الآن في بلاد اليمن دستوراً للحكم وأصلاً للعقيدة . وينبوعاً من ينابيع الأدب التي نهل منها كثير من الشعراء والكتاب في تلك البلاد .

أما حرصه على الأدب والأخبار فهذا مثال يدلنا على مبلغه : خطر له بيت من الشعر فلم يعرف قائله ، فأرسل إلى يوسف بن عمر وإلى علي العراق ، أن يرسل إليه حمادا الراوية مكرماً ، فجاء إلى هشام فأذن له ، ثم قال : أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قال لا : قال بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر من قاله ، فقال وما هو يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

فدعوا بالصَّبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق

فأخبره أن قائله عدى بن زيد ، وأنشده القصيدة ، فطرب ، وقضى حاجاته ، ووصله بمائة ألف درهم .

وهجاء الشعراء بالحوال كما رأينا في بيت الفرزدق ، وقيل إن ولى العهد كان يكثر ذكر هذا الحوال . وقد يخطئ بعض الناس فيذكر عنه ما يؤذى هشاماً ، فيغضب عليه : روى في ذلك أن الشعراء وفدوا عليه <sup>(١)</sup> ، وفيهم أبو النجم الراجز ، فطلب منهم أن يصفوا إبلا كأنه ينظر إليها ، فأنشدوه وأنشده أبو النجم :

الحمد لله الوهوب المجزل حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال :

« وهى على الأفق كعين . . . » وأراد أن يقول « الأحول » فتذكر الخليفة ، فأسقط في يده ، فأمره أن يتمه ، فأتمه وأتم القصيدة ، فأمر الخليفة أن يخرج من عنده مذموماً مدحوراً ، وألا يدخل عليه بعد ذلك ، وظل



بعيداً من عطفه وبره حتى استدعاه بعد زمن لما اشتاق إلى حديثه ، فجيء به ، فحدثه وأضحكه ، وأخذ جائزته .

### ١٠ الكتابة الإنشائية في عهده

وأهم حديث عن الأدب في عهد هشام هو حديث الكتابة في عصره :  
كان الخلفاء قبله يكتبون بداهة في لغة تشبه الحديث أحياناً ، والخطابة أحياناً ، ويميلون إلى الإيجاز ، ويرتجلون إذ يكتبون أو يملون . وكان لهم من ملاحظات البيان عندهم عون كبير على أن تكون رسائلهم فصيحة فنية .  
فلما كثرت أعمالهم ، وظهرت حضارتهم ، وظهر من المتعلمين من يستطيع حمل أعبائها عنهم ، عهدوا بها - أو بأكثرها - إلى طائفة من هؤلاء المتعلمين استخدموهم لهذا الغرض ، وأجروا عليهم الأرزاق .  
وبدأت تدخل دوراً جديداً من الناحية الفنية ، إذ أصبحت صناعة ، واشتغل بها قوم وقفوا أنفسهم عليها من العرب ومن غير العرب ، وأعدوا أنفسهم لذلك ، بدراسة الكتاب الكريم والحديث وأخبار العرب ، وبحفظ الخطب والأشعار ، والحكم والأمثال . واستعان الموالي منهم بخيال قومهم ، وفنون البيان عندهم ، فتنوعت الرسائل ، وحاول الكتاب أن يجعلوا لكل نوع منها أسلوباً ، وطريقة في البدء والختام ، وكثرت عبارات التفخيم والدعاء للخلفاء ، وكثر ما يسمى التحميدات : ويقصد بها الثناء على الله ، وشكر آلائه ، ووصفه بما هو أهله ، في كثير من الجمل . ونوعوا موضوعاتها ، وكتبوا في موضوعات عامة كتابة فنية . وكان من أثر الموالي في الكتابة أيضاً أن تجنبوا الغريب من الألفاظ ، وآثروا التأنق والزخرف ، وتخيروا الكلمات والعبارات ، فجاءت الكتابة واضحة الفكرة قوية العبارة . وكان لتفرغهم لهذا العمل ، ولتنوع ثقافتهم بين الفارسية والرومية والقبطية ، أثر في نهضة الكتابة نهضة عظيمة في عهد هشام وبعده .



وأشهر الكتاب جميعا في ذلك العهد رجلان من الموالي ، أولهما أبو العلاء سالم مولى هشام ، وكان يجيد العربية والرومية - ونسب إليه أنه نقل شيئا من رسائل أرسطو إلى الاسكندر - والثاني أستاذ الكتابة العربية ، عبد الحميد ابن يحيى ، صهر سالم هذا وتلميذه ، وأكثر من استفاد من الاتصال به في صناعته وفيما ترجمه ، وقد أضاف ما أخذ عن لغته الفارسية . وكان ذكاؤه وحفظه للقرآن واللغة ، وروايته للأدب ، أعوانا له أيضا على أن يصير إماما في الكتابة ، وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا . . . وهو أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات في فصول الكتب ، فاستعمل الناس ذلك بعده ، <sup>(١)</sup> .

وكان له ولأستاذه فضل في إيثار الأسلوب الواضح ، ذى الجمل التى ترتبط معانيها ، والأفكار الواضحة والحجج التى تؤيد هذه الأفكار . وظهر استخدام الشعر فى الكتابة من ذلك العهد ، استشهادا به ، واقتباسا منه ، وتضمينا لجمله وعباراته ، كما هو ، أو محورا قليلا . وربما ضربوا الأمثال ، أو ساقوا الحكم منه ، أو شبهوا كتشبيهاته ، أو تخيلوا مثل تخيلاته ، بلا تكلف ولا معاناة . وكانوا فى ذلك قدوة لمن جاء بعدهم ، حتى غلا الكتاب فى هذه الطريقة . بعد القرن الثالث الهجرى .

وأشهر آثار ذلك العهد فى الكتابة منسوب إلى عبد الحميد بن يحيى الكاتب ومنها رسالة كتبها على لسان مولاة مروان بن محمد إلى ولى العهد ، عبد الله ابن مروان حينما وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيبانى ، رأس الخوارج بالجزيرة ، سنة ١٢٧ هـ ، وتربو على ٥٠ صفحة من مثل صفحات هذا الكتاب . ورسالة عبد الحميد - أو وصيته - إلى الكتاب يرشدهم فيها إلى آداب الصناعة وصون أنفسهم عن النقائص ، ويدعوهم إلى أن يتعاطفوا . وأن يتعاونوا عند الحاجة . ثم رسالته على لسان الخليفة إلى أحد عمال الأمصار يأمره أن يزجر



أهل مصره عن لعبة الشطرنج ، وبين لهم معايبها ومضارها (١).

وكان ابن المقفع صديقه ، وتلميذه في صناعة الكتابة ، وشيها به في الأصل وفي الذكاء . وفي الوفاء ، وفي المقدرة البيانية ، ولكن عظمت في الكتابة ، واتصاله برجال الدولة ، وترجمته لـكـيلة ودمنة ، كانت في أيام العباسيين فنسب إلى عصرهم . وإليهما يرجع الفضل العظيم في رقي الكتابة ووضع أسسها الفنية في الأدب العربي .

### شعر العصبية الفارسية :

لعل خير الأماكن للحديث عن العصبية الفارسية في الأدب الأموي هو الكلام عن هشام ، وذلك أنه ظهر في عهده شعر صريح تتجلى فيه هذه العصبية ، ويفتخر قائله بفارسيته ، ويحاور بتفضيل قومه على العرب . ذلك هو اسماعيل بن يسار النِّسَّان .

« يقول أبو الفرج (٢) » وكان اسماعيل شعوبيا ، شديد التعصب للعجم ، وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم ، وله قصيدة بائية يقول فيها :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| رب خال متزوج لي وعم          | ماجد مجتدى كريم النصاب       |
| إنما سمى الفوارس بالفر       | س مضاهاة رفعة الانساب        |
| فاتركي الفخر يا أمام علينا   | واتركي الجور، وانطقي بالصواب |
| واسألي ، إن جهلت ، عنا وعنكم | كيف كنا في سالف الأحقاب      |
| إذ نرب نباتنا ، وتدسو        | ن سفاها بناقكم في التراب     |

فقال رجل من آل كثير بن الصلت : إن حاجتنا إلى نباتنا غير حاجتكم ، فأخمه . وهذا الذي يقوله ابن يسار لم يكن إلا ترديداً للعصبية الفارسية التي بدأت ترفع رأسها في أواخر عهد الدولة الأموية ، حتى عظم خطرهما في عهد العباسيين . وكان يؤلمهم أن يتعصب العرب عليهم في عهد بني أمية ، وأن

(١) نجدتها جميعا في جهرة الرسائل ج ٢ من ص ٤٧٣ إلى ص ٦٥٥

(٢) أغاني ج ٤ ص ١٢٠



يؤخروهم في الدولة . وكان يحط من قدر العربي أن تكون أمه أعجمية . وقالوا إن عبد الملك لم يعهد بالخلافة لابنه مسلمة مع فضله - لأن أمه أعجمية . فلما كان عهد هشام علا شأن الأعاجم : لحاجة العرب إليهم أن يشدوا أزرهم في حروبهم وخلافاتهم ، وبخاصة في بلاد فارس . ولاستعانة العلويين بهم في ذلك الوقت ، دعاة يضعون أسس دولتهم في خراسان كآبي مسلم ، وسليمان ابن كثير ، ولا رتقاء شأنهم بظهور أفاضل التابعين والعلماء منهم ، كالحسن البصري ، وابن سيرين ، ونافع مولى ابن عمر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وربيعة الرأي شيخ الإمام مالك ؛ ولا رتفاع شأن أبناء الجوارى في الدولة كمسلمة بن عبد الملك ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعلى زين العابدين بن الحسين ، وسالم بن عبد الله . فاجترأ عندئذ شاعر كابن يسار على هذا الفخر ، ودعا هشام يوماً أن ينشده ، وهو يظن أنه سيمدحه ، فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم . . . حتى انتهى إلى قوله :

|                                 |                               |
|---------------------------------|-------------------------------|
| إني ، وجدك ، ماعودى بذى خور     | عند الحفاظ ، ولا حوضى بمهدوم  |
| أصلى كريم ، ومجدى لا يقاس به    | ولى لسان كحد السيف مسموم      |
| أحمى به مجد أقوام ذوى حسب       | من كل قرم بتاج الملك معوم     |
| ججاجح سادة بلج مرازبة           | جُرد عتاق مساميح مطاعيم (١)   |
| من مثل كسرى وسابور الجنود معاً  | والهَرَمزان لفخر أو لتعظيم    |
| أسد السكتائب يوم الردع إن زحفوا | وهم أذلوا ملوك الترك والروم   |
| يمشون فى حلق الماذى سابعة       | مشى الضراغمة الأسد اللهمم (٢) |
| هناك إن تسألى تسبى بأن لنا      | جرثومة قهرت عز الجراثيم (٣)   |

فغضب هشام وسبه ، وأمر به فألقى فى بركة حتى كادت نفسه تخرج ،

(١) القرم : السيد ، الججاجح : السادة . الابلج : الطلق الوجه . المرزبان : الرئيس  
الاجرد : السباق . العتيق : الكريم الاصل . المسماح : الكريم . المطعام : كثير  
الاطعام (٢) الماذى : الدرع . اللهمم : الجواد السابق (٣) الجرثومة : الاصل



ونفاه إلى الحجاز : قال أبو الفرج : « وكان مبتلى بالعصية للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا . »

وأكبر الظن أنه كان لإسماعيل هذا شركاء في عصيته على العرب منهم ابنه إبراهيم (١) ، وزيد الأعجم ، وبشار الذي عاش أكثر حياته في عهد الأمويين .

وخشى عقلاء العرب شر هذه الفتنة على ملوكهم ، فقال نصر بن سيار يحذر العرب :

ما بالكم تلقحون الحرب بينكمو      كأن أهل الحجا عن رأيكم عَزُب  
وتتركون عدوا قد أضللكمو      ممن تأشب ، لادين ولا حسب (٢)  
قوم يقولون قولاً ما سمعت به      عن النى ، ولا جاءت به الكتب  
من كان يسألنى عن أصل دينهمو      فإن دينهمو أن تهلك العرب  
وامتدت هذه العصية وشغلت الأدب ، نثرا وشعرا زمنا طويلا في أيام العباسيين باسم التشعوبية.



## ٩ - خالد بن عبد الله القسري

أشهر ولاية الأمويين في القرن الثاني الهجري ، ولى بعض أمور الحجاز الوليد بن عبد الملك ، ثم لسليمان ، وولاه هشام العراقي ، وظل مقرباً عنده زمناً حتى غضب عليه ، فأرهبه من أمره عسراً ، وسلط عليه يوسف بن عمر الثقفي فألقاه في العذاب الشديد ، ولقى منيته في سجنه سنة ١٢٦ هـ في أول عهد الوليد بن يزيد ، وبأمر منه .

شغلته العصية لقومه من الين فولاهم وعزل غيرهم ، وأكرمهم وأساء إلى مضر ، كما أساء عماله إليهم ، فثارت ثورة هؤلاء ، وأكثروا من سبهه والوقعة به ، حتى بلغت أقوالهم هشاماً فغضب عليه ، وكتب إليه :

« يا بن أم خالد ، قد بلغني أنك تقول : ما ولاية العراق لي بشرف ، فيا بن اللخناء ، كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفاً وأنت من بحيلة القليلة الذليلة ! أما والله إنى لأظن أن أول من يأتيك صغير من قريش ، يشد يدك إلى عنقك ! »

ولعل خالداً أفرط في الدالة على الخلافة ، لما طالت ولايته على العراق ، وأخذ سهيل بن حسان النبطي ، مولى هشام ووكيله في ضياعه بالعراق ، فضربه ، فبعث سهيل بقميصه إلى أبيه وفيه آثار الدم ، فأدخله إلى هشام ، فكتب هشام إلى خالد رسالة <sup>(١)</sup> كأنها صحيفة سوداء لسيئاته ، تناول فيها خالداً بالاهانة والتحقير ، وذكر مساوئه ، وكفرانه للنعمة التي أنعمها عليه هشام بولاية العراق ، وأنه لم يكن أهلاً لذلك الاكرام من هشام . وأنا أشبهها برسالة عبد الملك إلى الحجاج لما سخط عليه . وأشبه خالداً بالحجاج في الظروف ، وإن اختلفت العاقبة .

نسب إليه أنه خطب بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة ، فكان في هذه الخطبة تليذاً لزياد أول الحجاج في الفصاحة والعنف ، والولاء للخليفة ، قال :



« يا أيها الناس إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهي التي اختار الله من البلدان فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حجه ، من استطاع إليه سبيلا . أيها الناس ، فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وإياكم والشبهات ، فاني والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم ، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها ، فسلموها وأطيعوها ، ولا تقولوا كيت وكيت ، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم ، ويقيمون في بلادكم ، فإياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة ، فاني لا أجد أحداً منهم في منزل أحد منكم إلا هدمت منزله . فانظروا من تنزلون في منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة ، فان الفرقة هو البلاء العظيم . »

كانت هذه الخطبة أول عهده بالولايات وفيها صورة واضحة لإيمانه بمبدأ «الحق المقدس» ، ولكنه اتهم من ذلك العهد بالعصبية ، وأنه بلغ منها حد الاحتقار لبئر زمزم ، فكان يسميها «أم الجعلان» . وأنه خطب بمكة فقال . « والله لو أمرني أمير المؤمنين أن أنقض هذه السكبة حجراً حجراً لنقضتها . فكيف يعصى الله في طاعة الخليفة ! واشتد على الشيعي رأس حجة السكبة بغير حق ، إذ أمره أن يفتح له الباب فأبى ، فضربه مائة سوط . وكانت أمه نصرانية فقالوا إنه بنى لها كنيسة بجوار المسجد ، وكان يضرب فيها بالناقوس إذا أذن المؤذن ، وكان من فيها يرفعون أصواتهم بالقراءة إذا قام الخطيب على منبر المسجد . »

وقد سجل الأدب كل هذا التاريخ ، والفرزدق أكثر من تعرض لخالد القسري بالهجاء ، وكأنه كان موكلاً به . فإنه لما ضرب رأس حجاب السكبة ذهب الرجل يشكوه إلى سليمان ، فصادف الفرزدق هناك ، فقال الفرزدق : سلوا خالداً — لا أكرم الله خالداً — متى وليت قسر قريشا تدينها أقبل رسول الله أم ذاك بعده فتلك قريش قد أغث سمينها رجونا هداه — لا هدى الله خالداً — فما أمه بالأم يهدي جنينها



فأراد سليمان أن يقطع يده ، لولا أن يزيد بن المهلب كان حاضرا — وهو من الين ، فما زال بسليمان يفديه ويقبل يده ، حتى أمر بضربه مائة سوط ، وعفا عن قطع يمينه . فقال الفرزدق شعرا يذكر فيه هذه السياط المائة، ويعير خالدا بأمة النصرانية . وحفر خالد نهرا بالعراق — كما فعل الحجاج — فعاب الفرزدق فعله هذا بقوله :

وأهلكت مال الله في غير حقه على النهر المشؤم غير المبارك  
خبسه خالد ، فقال وهو في سجنه يستعطف الخليفة :

فأبلغ أمير المؤمنين رسالة فعجل — هداك الله — نزاعك خالدا  
بنى بيعة فيها الصليب لأمة وهدم من بغض الإله المساجدا  
فأرسل هشام إلى خالد يأمره بإطلاقه . فلما خرج من سجنه قال فيه :

ألا لعن الرحمن ظهر مطية أتتنا تخطي من بعيد بخالد  
وكيف يؤم المسلمين وأمه تدين بأن الله ليس بواحد !

وتعصب شعراء الين مع خالد فهجوا مضر ، فرد عليهم الكميته بهجوم ، فغضب عليه خالد . وروى جارية حسناء قصائده الهاشميات ، وأعدّها ليهدّيها إلى هشام ، وكتب إليه بأخبار الكميته وهجائه في بني أمية ، وأرسل إليه قصيدته اللامية التي مطلعها :

ألا هل عم في رأيه متأمل وهل مدبر بعد الاساءة مقبل

وهو يمدح فيها بني هاشم ويرثي قتلاهم — وما كان هؤلاء القتلى إلا نائرين في رأى الخلافة — فلما قرأها هشام أكبرها وعظمت عليه ، فكتب إلى خالد يأمره بقطع لسان الكميته . فأخذه خالد ، ففر من سجنه إلى هشام بالشام ، فدحه ، واستجار بقبر ابنه معاوية ، فعفا عنه ، وأمر له بأربعين ألف درهم : وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته (١).

وروى أن سليمان بن عبد الملك كتب إليه وهو وال على مكة بشتن الحجاج



ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه . فصعد المنبر يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن إبليس كان ملكا من الملائكة ، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلا ، وكان الله قد علم من غشه وخبثه ما خفى على ملائكته ، فلما أراد الله فضيحتة أمره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه . وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين على ما خفى علينا من غشه وخبثه ، فلما أراد الله فضيحتة أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين فلعنوه ، فالعنوه ، لعنه الله ! »

وقد روى أنه خطب في الجمعة السابقة ، فذكر الحجاج فحمد طاعته وأثنى عليه خيرا ، وخطب هذه الخطبة في الجمعة اللاحقة لما جاءه كتاب سليمان بستم الحجاج . فانظر إلى مطاوعة البيان له في هذا الولاء المتغير ، وإلى الاعتذار عن هذا التغير بشيء من اللباقة ، المأخوذة من الحجاج نفسه ، في خطبته بمكة ، بعد مقتل ابن الزبير (٢) . وأظهر وجوه هذه اللباقة هو الاستعانة بالدين ، أو بقصة من قصصه ، لتأييد رأيه : وجد الحجاج قد أخذ قصة آدم ، وأجاد الاحتجاج بها على ابن الزبير ، فأخذ طرفا آخر من القصة ، وهو خبث طوية إبليس ، وانخداع الملائكة في أمره ، فشبه به الحجاج حتى فضحه الخليفة ، وجعل هذا الطرف اعتذارا إلى الناس عن شتمه الحجاج وتغييره في الولاء له . لكن الحجاج كان أبين بيانا ، وأقوى برهانا من خالد .

وإذا كان خالد قد أساء إلى تاريخه بهذه العصبية ، فأكبر الظن أنه لم يكن كما يصوره أعداؤه ، ولو كان كذلك ما احتمله هشام هذه السنين الطويلة في أكبر عمل عنده ، وهو ولاية العراق وما وراءها إلى بلاد الصين .

وما ذمه الفرزدق إلا لأنه أبى أن يعطيه ، وقال له : « اذنبني كيف شئت ، وما كان الكمية يريد أن يذمه بعد أن قال يمدحه :



لو قيل للجود من حليفك ، ما إن كان إلا إليك ينتسب  
 أنت أخوه ، وأنت صورته والرأس منه ، وغيرك الذنب  
 ولكنّه اضطر إلى هجاء خالد عرضا ، وهو يرد على شعراء اليمين الذين  
 كانوا يهجون مضر . ومدح جرير خالدا فنقض هجاء الفرزدق له -- وجرير  
 من شعراء مضر -- وروى التاريخ من صفاته ما يشرف به . فقال عنه ابن  
 خلد كان (١) « إنه جلس للشعراء مجالس يستمع فيها إلى مدحهم ويحازيهم عليه ،  
 وقال : « وكان خالد معدودا من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة  
 والبلاغة ، وكان جوادا كثير العطاء » . وخير ما نختتم به الحديث عنه خطبة  
 له حث فيها على مكارم الأخلاق . وخص الجود : (٢) « قام على المنبر بواسط  
 فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس ، نافسوا في المكارم . وسارعوا إلى المغانم ، واشتروا الحمد  
 بالجود . ولا تسكسبوا بالمطل ذما ، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه ،  
 ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسن له جزاء  
 وأجزل عليها عطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعمة من الله عليكم ،  
 فلا تملوا النعم فتحولوها نقما . واعلموا أن أفضل المال ما أكسب أجرا ،  
 وأورث ذكرا . ولورأيت المعروف رجلا رأيتموه حسنا جميلا ، يسر الناظرين .  
 ولو رأيت البخل رجلا رأيتموه مشوها قبيحا ، تنفر عنه القلوب وتغضى  
 عنه الأبصار ،

« أيها الناس ، إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه ، وأعظم الناس  
 عفوا من عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه . ومن لم يطب  
 حرثه لم يركُ نَبْتُهُ . والأصول عن مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول  
 قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

وهو جميل التصوير للمعروف في الجزء الأخير من الخطبة ، وبخاصة



عندما يشبهه برجل ، وكأنه معنى البيت المعروف .

ولم أركل المعروف ، أما مذاقه فخلو ، وأما وجهه فجميل

كان من خلفاء الأمويين في القرن الثاني خليفتان عرفا بالشراب واللهو وزادا فيه علي يزيد بن معاوية هما يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، وأثر الشراب واللهو في أدب عصرهما تأثيرا ظاهرا ، فحسن الكلام عنهما معا ، وعن الغناء والأدب بعدهما .



## ١ - يزيد بن عبد الملك

١٠١ - ١٠٥ هـ

ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فكتب إلى ولاته بالأمصار : « أما بعد . فإن عمر كان مغروراً ، غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة ، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا ، والسلام . »

بعد هذا الخطاب عمده يزيد إلى كل صالح فعله عمر فأفسده ولم يبال بالناس ، وأراد أن يقتص من يزيد بن المهلب بما فعل مع آل أبي عقيل « أسرة الحجاج » ، فثار عليه ابن المهلب بالعراق ، وخلع عامله عدى بن أرطاة وحبسه ، وسير إليه يزيد أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد ، فقتل ابن المهلب في معركة سنة ١٠٢ هـ . وولى مسلمة العراق .

وكرثت الخطابة في المعاني التي تقتضيها هذه الحرب ، بين التأييد ليزيد بن المهلب والتخذييل عنه . وكان الحسن البصري يخذل عنه ويقول :

« أيها الناس : الزموا رحالكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة ، وطمع فيها يسير ، ليس لأهلها بياق ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض ، إنه لم يكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التية والخيلاء . وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي والمعروف التقي ، فمن كان منكم خفياً فليزِم الحق ، وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه ، والله . بمعرفة الله إياه بالخير ، شرفاً ، وكفى له به من الدنيا خلفاً ، ومن كان منكم معروفاً شريفاً ، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا — إرادة الله بذلك — فوهاً لهذا ! ما أسعده وأرشدته ، وأعظم أجره ، وأهدى سبيله ! فهذا غداً — يعني يوم القيامة — القرير عينا ، الكريم عند الله مآباً . »



وكان الحسن يدرك مشاركة الخطباء والشعراء والسفهاء في كل فتنة ، كما كان يقدرها يزيد بن عبد الملك أيضاً ، ويدعو أهل البيان من الشعراء والخطباء إلى مشاركته في الحملة على آل المهلب بعد قتل يزيد : أما الفرزدق (١) فأبى أن يهجوهم وقال له : « لقد امتدحت بنى المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحداً ، وإنه لقبيح بمثل أن يكذب نفسه على كبر السن ، فليعفى أمير المؤمنين ، فأعفاه . وأما كثير فقال : « إنى أكره أن أعرض نفسى لشعراء أهل العراق إن هجوت بنى المهلب » . وأما الأحوص فإنه هجاهم ، لما كان للخليفة عنده من فضل قريب العهد ، إذ رده من منفاه الذى نفاه إليه سليمان بن عبد الملك بسبب تشيبيه بنساء الأنصار .

وفيما قاله الحسن البصرى ، ومقاله كثير ، بيان لاشتراك الأدب في هذه الثورات ، واهتمام الرؤساء بمناصرة البيان لهم ، واستجابة أهل البيان لأولئك الرؤساء ، ولاء لهم ، أو طمعاً في عطايتهم ، أو خوفاً من أذاهم . أما الرجل الذى لم يكن يخشى في الله لومة لائم ، وهو الحسن البصرى ، فقد عرض نفسه لخطر العقاب ، إذ قال عنه مروان بن المهلب بعد أن سمع بخطبته السابقة : « لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى - ولم يسمه - يثبط الناس . والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه . أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خيرنا ، وأن ننكر مظلتنا ! أما والله ليكفن عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا سقاط الابل ، وعلوج فرات البصرة . . . . . أو لأنحين عليه مبرداً خشناً . . . »

وعرف الحسن بذلك فلم يعبأ به ، ولم يدع كلامه وطعنه في آل المهلب . وأما جرير فكان منافقاً متكسباً يمدح اليوم ويذم غداً ، أو أنه كان مادحاً للأمويين . فقال في مدح يزيد عدداً من القصائد لا تخرج في معانيها عما مدح به غيره . وقال في إحدى هذه القصائد يذم آل المهلب ويشمت بهم ، ويمدح أهل الشام :



سُرِبلت سر بال ملك غير مبتدع قبل الثلاثين ، إن الخير مؤتسف  
تدعو فينصر أهل الشام ، إنهمو قوم أطاعوا ولاية الحق واثلفوا  
ثم قال :

آل المهلب جـذ الله دابرهم أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف

ولى يزيد فى هذه السن المبكرة ، قبل الثلاثين ، خلافة المسلمين ، ولعل  
شبابه وملكه أغرياه بالشراب واللهو ، وقضاء الوقت مع القيان . وعرف  
بحبه لسلامة وحبابة من مغنيات المدينة ، أهديتا إليه لما ولى الخلافة فأقامتا  
عنده وكلف بهما .

وقيل إنه أراد التوبة والرجوع إلى الله ، فأعاده شعر قاله الأحوص بن  
محمد إلى ما كان فيه ، وذهب به هذا الشعر إلى النار : روى <sup>(١)</sup> أن ضميره  
أو أخاه مسلمة - عاتبه على ما أسرف فى الشراب والغناء ، وما أهمل فى شئون  
الرعية ، فهم بترك الشراب ، وأعرض عن حبابة أياما ، فأرسلت إلى هذا  
الشاعر الشيطان ، الأحوص ، وقالت له : إن رددته عن رأيه فلك ألف  
دينار . فدخل الأحوص إلى يزيد فاستأذن فى الإنشاد فأذن له ، فقال :

ألا لاتله اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا  
بكيت الصبا جهدى فن شاء لامنى ومن شاء آسى فى البكاء وأسعدا  
وإنى وإن فُتنت فى طلب الغنى لأعلم أنى لست فى الحب أو حدا  
إذا أفت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكُن حجراً من يابس الصخر جلدا  
فما العيش إلا ماتلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا  
واعترضته حبابة فغنته بهذه الأبيات فى يوم جمعة ، فلما قالت :

وما العيش إلا ماتلذ وتشتهى ،

قال لها : صدقت والله ، وقبح الله من لامنى فيك ! يا غلام ، مر مسلمة أن  
يصلى بالناس . وأقام معها يشرب وتغنيه ، ووهب للأحوص ما لا كثير آ .  
فهذا يزيد وهذا توجيهه للأدب وتوجيهه الأدب له . وسوف نرى فى



تاريخ ابن عبد العزيز أنه أبى أن يسمع للشعراء أو يعطيهم بسبب أقوالهم غير  
العفيفة ، ومدحهم الكاذب ، فجاء بعده يزيد فأفسد دينه ، وعرف باللهو ،  
وحمل إليه المغنون حملاً من الحجاز ، وقضى خلافته يستمتع بالشراب والغناء .  
وليس عجباً أن يكون ابنه الوليد شبيهاً به في اللهو والفسوق ، ثم زاد عليه  
قول الشعر .



## ٢ — الوليد بن يزيد

عرفه الأدب شاعرا ، وعرفه الدين فاجرا ، وعرفه التاريخ خليفة لاهيا خليعا ، وعرفه أصحابه كريما ظريفا ، فكان له حديث في الشعر مرضى ، ولأهل الدين عنه حديث سخط وإنكار على ما فرط في جنب الله ، وللتاريخ عنه حديث اللوم على ما أهمل من شئون الرعية ، وكان لأصحابه حديث الإعجاب بظرفه وكرمه ، واسرافه في اللهو واللذات . وأما تاريخ الأدب فأظهر أحاديثه عنه حول شعره في الخمر ، وإجاداته في وصفه ، وابتداعه لكثير من المعاني ، ثم ضياع شعره ، وتفرق هذه المعاني في الشعراء ، حتى عد أستاذا لأنبي نواس .

يجمع صاحب الأغاني ذلك فيقول : (١)

« وكان الوليد بن يزيد من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم . وكان فاسقا خليعا ، متهما في دينه ، مرميا بالزندقة . وشاع ذلك من أمره وظهر ، حتى أنكره الناس فقتل . وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره . ومن الناس من ينفي ذلك عنه وينكره ، ويقول إنه نحل وألصق إليه ، والأغلب الا شهر غير ذلك ،

ثم يقول : (٢)

« وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم ، سلبخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه سلبخ معانيه كلها ، وجعلها في شعره ، فكررهما في عدة مواضع منه ،

عرف الوليد بأنه شاعر خمر ، وعرف أبوه من قبله بالشراب ولعله ورث حب اللهو عنه ، وعن يزيد بن معاوية جد أبيه ، لكنهما كانا أكثر منه حرصا واستتارا . وربما كان يشرب ليغرق همومه في الكأس ، وينسى في لهوه ما كان يلقاه من عمه هشام ، الذي حاول إبعاده عن الخلافة ، وقطع



عنه أرزاقه ، وشهر به ، وفرق بينه وبين أصحابه .  
ونستطيع أن نقسم أدبه وحياته الفنية قسمين : أحدهما في خلافة عمه  
هشام ، والثاني حياته في الخلافة . أما أدبه في القسم الأول فكان أدبا مكبوتا  
حزينا ، يتنفس شعره بغيظ نفسه ، وكامن أشجانه ، فيقول لعمه لما  
أراد خلعه :

كفرت يدا من منعم ، لو شكرتها جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن  
رأيتك تبني جاهدا في قطيعي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني  
أراك على الباقيين تجنى ضغينة فيا ويحهم ، إن مت ، من شر ما تجنى  
كأنى بهم يوما وأكثر قولهم : أياليت أنا ، حين « ياليت » لا تغنى

ولعلك تلح بجانب هذه النعمة الحزينة في البيتين الأولين النظرة الحكيمة  
التي تعلمها من التجارب في البيت الثالث والرابع ، والتحذير من الخطر على  
أبناء الخليفة المتوفى وأنصاره في عهد الخليفة الجديد ، بسبب سنتهم في ولاية  
العهد . وقد نلح مثل هذه الحكمة والرزانة في كثير من أقوال الوليد وأفع له  
في عهد عمه هشام .

وقد ضاق صدره بما كان يلقي من عمه فانطلق لساؤه بالفخر أحيانا وبهجماء  
عمه أحيانا ، وبالشكوى من عدم الوفاء أحيانا : خرج يوما من مجلس هشام  
مغيظا لما أصابه من أذاه ، فقال مفتخرا :

أنا ابن أبي العاصي ، وعثمان والدي ومروان جدى ذو الفعال ، وعامر  
أنا ابن عظيم القريتين ، وعزها ثقيف وفهر والعصاة الأكابر  
نبي الهدى خالي ، ومن يك خاله نبي الهدى يقهر به من يفاخر

وكتب إليه هشام أن يترك صديقه عبد الصمد بن عبد الأعلى ففعل ،  
وسأله أن يأذن لابن سهيل في الخروج إليه في معتزله ، فأبى ، وضرب ابن سهيل  
ونفاه ، وضرب عياض بن مسلم كاتب الوليد ضرباً مبرحا ، وألبسه المسوح  
وقيده ، وحبس به ، فغم ذلك الوليد ، فقال : « من يثق بالناس ومن يصنع



لمعروف ! هذا الاحول المشثوم قدمه أبى على ولده وأهل بيته ، وولاه ؛ وهو يصنع بنى ماترون ! ولا يعلم أن لى فى أحد هوى إلا أضربه ! كتب إلى بأن أخرج عبد الصمد فأخرجته ، وكتبت إليه فى أن يأذن لابن سهيل فى الخروج إلى ، فضربه وطرده ، وقد علم رأيى فيه . وعرف مكان عياض منى وانقطاعه إلى ، فضربه وحبسه ؛ يضارنى بذلك ، اللهم أجرنى منه ! ثم قال :

|                              |                                 |
|------------------------------|---------------------------------|
| أنا النذير لمسدى نعمة أبدا   | إلى المقاريف لما يخبر الدخلا    |
| إن أنت أكرمتهم ألفيتهم بطروا | وإن أهنتهم ألفيتهم ذللا         |
| أشتمخون ومنا رأس نعمتكم      | ستعلمون إذا أبصرتمو الدولا      |
| افظر فإن أنت لم تقدر على مثل | لهم سوى الكلب فاضربه لهم مثلا   |
| بيننا يسمنه للصيد صاحبه      | حتى إذا ما استوى من بعد ما هزلا |
| عدا عليه فلم تضره عدوته      | ولو أطاق له أكلا لقد أكلا       |

وفى هذا النثر والشعر مرارة الشكوى ، وألم الحسرة . ونار الغيظ من هشام ، واضحة فى كل جملة ، وبخاصة فى دعائه الأخير : « اللهم أجرنى منه ! » ثم هذه القسوة فى ضرب المثل ، لم يجد مثلا إلا كلب السوء يضربه لغدر هشام وبطشه ، مع أن يزيد أباه هو ولى نعمته . وقد قابل الإحسان بالإساءة إلى الوليد .

كان الوليد يجد فى هذا الفخر نوعا من النسلى عما أصابه على يد هشام ، وكان عنيدا . يدارى عمه إلى مدى ، ويحذر غضبه ، وقد يستعطفه ، ولكنه فى استعطفه أبى عزيز ، حتى ليشبه استعطفه أن يكون تهديدا ، ومن نادر شعره قوله لعمه هشام :

|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| فإن تك قد مللت القرب منى | فسوف ترى مجانبتى وبعدى    |
| وسوف تلوم نفسك إن بقينا  | وتبلى الناس والاحوال بعدى |
| فتندم فى الذى فرطت فيه   | إذا قايست فى ذمى وحمدى    |



وتبقى حياته كذلك طول خلافة عمه هشام ، ويظل وهو ولي العهد مطرودا من رحمة الخليفة ، مغضوبا عليه وعلى أصحابه ، ويظل هو مغاضبا للخليفة ، معترلا أمور الدولة ، مسرفا في هوه وشرابه ، فلم يعرف في أيام أبيه كيف يدبر أمرا من أمور الدولة ، لأنه كان صغيرا ، ولم يعرف مهام الخلافة ، ولم يضطلع بشيء من أمور المسلمين وهو ولي العهد ، لأن عمه كان غاضبا عليه ، وظل كذلك حتى مات عمه . فما استطاع أن يغير في نظام حياته شيئا ، ولا أن يقلع عن غوايته ، ظل يشرب ، ويضطرب ، ويأنس بالمغنين والجواري ، ويقضى حياته في اللهو والطرب ، ولم يتغير شيء من أمره إلا أنه أسرف في الشراب ، ولم يعد يخشى أحدا .

وكان ارتقاؤه العرش فرصة للشimate بهشام في شعره ، فقال في هجائه ميتا :

|                    |                  |
|--------------------|------------------|
| هلك الأحوال المشؤم | م فقد أرسل المطر |
| وملكننا من بعد ذا  | ك فقد أورد الشجر |
| فاشكر الله إنه     | زائد كل من شكر   |

وتحرر في معانيه وهو خليفة ، وأدى به ذلك إلى الإبداع فيما كان يعرض له من المعاني التي تدور حول الخمر ، وحسبه أن يكون - كما يرى صاحب الأغاني - أستاذا لأبي نواس وغير أبي نواس في وصف الخمر وما يتعلق بها . وكان إسرافه في الشراب ، واستدعاؤه للمغنين من الحجاز ، وإنشاده الشعر ليغنيه به ، مظهر الخلافة في أيامه ، ثم أضيف إلى ذلك سوء المعاملة لمن كانوا يناصرون عمه هشاما ، وله في النوع الأول أخبار كثيرة بعضها غريب عسير التصديق ، وقد قيل إن هذا المجون كان أثرا من آثار اختلاط المسلمين بالفرس والروم ، وسريان بعض عادات القوم وعقائدهم إلى المسلمين في أيامه ، ولاسكنى أثر التعليل الأول ، وهو اضطهاد عمه له ، مع استعداد



خاص للهو والمجون . وأشعر أن الظروف التي كان الوليد يصحو فيها ويفيق كانت تنطقه بالقول الرزين . والمنطق الصائب .

وكان في قلبه مواضع للحب ، فقد روى أنه أحب سلمى بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان<sup>(١)</sup> وقال فيها شعرا كثيرا ، وغناه ببعض هذا الشعر حكم وعمر الوادي وابن سريج ، وأبو كامل وابن جامع ومالك بن أبي السمح . وجاوز هذا الحب بشعره إلى وضع الأشعار على لسان سلمى كأنها ترأسله . فمن ذلك :

أقتر مني على الوليد السلام      عدد النجوم ، قل ذا للوليد  
حسدا ما حسدت أختي عليه      ربنا بيننا وبين سعيد !  
وقيل كانت له جارية يقال لها صدوف ، فغاضبها ، ثم لم يطعه قلبه ، فجعل يتسبب لصلحها ، فدخل عليه رجل قرشي من أهل المدينة ، فكلمه في حاجة وقد عرف خبره ، فبرم به فأنشده :

أعتبت أن عتبت عليك صدوف      وعتاب مثلك مثلها تشريف  
لا تقعدن تلوم نفسك دائما      فيها ، وأنت بحبها مشغوف  
إن القطيعة لا يقوم لمثلها      إلا القوى ، ومن يحب ضعيف  
الحب أملك بالفتى من نفسه      والذل فيه مسلك مألوف  
فضحك لما سمع الشعر ، وجعل ذلك سببا لصلحها ، وأمر بقضاء حوائج القرشي كلها<sup>(١)</sup> .

وما أشبه هذه القصة بأخرى تروى عن الرشيد<sup>(٢)</sup> مع إحدى جواريه - مارية - وقد جرى بينهما عتب ، فطلب يحيى البرمكي العباس بن الأحنف الشاعر العباسي الغزل ، فأخبره أن مارية تأتي - بعزة دالة المعشوق - أن تعتذر ، والرشيد بعز الخلافة وشرف الملك والبيت ، يأبى ذلك ، وأنه حاول إصلاح بينهما فلم ينجح ، وقال له قل شعرا تسهل به على الخليفة هذه القضية ، ودخل يحيى إلى الخليفة ، فكتب العباس :



العاشقان كلاهما متغضب وكلاهما متوجد متجنب  
صدت مغاضبة وصد مغاضبا وكلاهما مما يعالج متعب  
راجع أحببتك الذين هجرتهم إن المتيم قلبا يتجنب  
إن التجنب إن تطاول منكما دب السلو له فعز المطلب  
ثم أرسلها اليه . وتحتها هذان البيتان :

لا بد للعاشق من وقفة تكون بين الصرم والوصل  
حتى اذا الهجر تمادى به راجع من يهوى على رغم  
فدفع يحيى الرقعة إلى الرشيد ، فقال : والله مارأيت شعراً أشبه بما نحن  
فيه من هذا الشعر ! والله لكأني قصدت بهذا ! فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين  
وأنت المقصود به ، فقال الرشيد يا غلام هات نعل ، فإنني والله أراجعها على  
رغم ، وذهب إليها فأخبرها بقصة الأبيات ، فلما سمعتها سرت بها سروراً  
عظيماً ، وأخذ العباس جوائز الخليفة وجاريتيه ويحيى البرمكي ، وكانت  
سنية عظيمة .

وقد أصلح الشعر بين كل من الخليفتين وجاريتيه ، مع ما فيه من تكلف  
وثقل ألفاظ ، فالبيتان الثاني والثالث في شعر القرشي للوليد متكلفان ،  
والكلمات « تشریف ، القوى ، ومسلک مألوف ، مثلاً كلها نائية في أماكنها  
غريبة على الشعر وعلى الاستعمال في ذلك العهد .

وأبيات ابن الأحنف فيها ثقل في ألفاظها ، وتكرار « التجنب ، والغضب  
أكثر من مرة مملول ، وربما كان للارتجال أثر في هذا الاضطراب ،  
ولسكن المعنى قد حمل كلا من الوليد والرشيد على نسيان كبريائه ، والخضوع  
لسلطان الهوى .

وأخبار الوليد في الأغاني لا تترك له وقتاً يتحدث فيه بغير الشعر ، فكان  
يستطيعه ، ويقول في الرسائل والخطب . فقل إنه كتب إلى أهل المدينة بعد  
خلافته :

ألا أيها الركب المحبون أبلغوا سلامي سكان البلاد فاسمعوا



## الغناء والأدب

الغناء والموسيقى قديمان عند العرب في بواديهم وحواضرهم ، وكان الشعر عندهم - كما هو عند غيرهم - أكثر فنون الأدب اتصالا بالغناء والموسيقى ، وظلت هذه الصلة قوية بينهما الى الآن (١) . وحديث اللهو والغناء والشراب ، وما يتصل بذلك من أدب في عهد الأمويين ، يتبدى من معاوية ، وقد سبق (٢) أن تحدثنا عن سياسة بني أمية مع أهل الحجاز ، فقلنا انهم آخروهم عن مراكز الصدارة ، إذ كانوا يخشون منافستهم (٣) لهم في السلطان وأترفوهم في الحياة الدنيا ليرضوا عنهم ، وليشغلوهم بهذا الترف والتنعيم وما يتبعهما من لهو ومرح . وكان كثير من شباب الحجاز عند ظنهم ، فإن الفراغ والشباب والغنى وكثرة الجوارى والعبيد في مكة والمدينة وما يجاورهما دعت إلى شيوع الغناء واللهو والشراب ، وبجالسها العامة والخاصة في الحجاز وكان في طبيعة أهل الحجاز ظرف وميل الى الدعابة والفكاهة ، وكان أهل الصلاح والتقوى منهم يقابلون بعض هذا اللهو بالسكوت عليه ، أو بالرضا عنه . فقد روى أن عبيد الله بن عمر خرج يوما حاجا فرأى امرأة جميلة تتكلم بكلام رفقت فيه ، فأدنى ناقته منها ثم قال : يا أمة الله ، ألسنت حاجة ؟ أما تخافين الله ! فسفرت عن وجهه يبهر الشمس حسنا ثم قالت : تأمل يا عمي ، فإنني ممن عني العرجى بقوله :

من اللاء لم يحججن يبعين حسبة      ولكن ليقتلن البرىء المخفلا

فقال لها : فإنني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار - ولعل جمالها قد بهره أيضا فسأل الله هذا السؤال - وبلغ ذلك سعيد بن المسيب مفتي المدينة فقال : أما والله لو كان من بغضاء أهل العراق لقال لها : اغربي قبحك الله ، ولكن ظرف عباد الحجاز ! وروى (٤) أن عطاء بن رباح لقي ابن سريج

(١) ص ٢٠٥ في الادب المقارن للدواف . (٢) في ص ٩٩ .

(٣) من ٧٤ - ٨٤ من هذا الكتاب . (٤) أغاني - ١ ص ٢٥٧ .



بذى طوى ، عند مكة ، فعابه للهوه وغناؤه الذى يفتن به الناس ، فاستحلفه ابن سريج بحق الرسول والصحابه أن يسمع منه ، وقال له . ان سمعت منكرا أمرتنى بالإمساك عما أنا فيه . وأنا أقسم بالله ، وبحق هذه البنية ، لئن أمرتنى بعد استماعك منى ، بالإمساك عما أنا عليه لأفعلن ذلك . فأطمع ذلك عطاء فيه وغناه ابن سريج بشعر جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا      وشكلا بعينك لا يزال معينا (١)  
غِيَضَ من عبراتهم ، وقلن لى :      ماذا لقيت من الهوى ولقينا  
فلما سمعه عطاء اضطرب اضطراباً شديداً ، ودخلته أريحية ، خلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بهذا الشعر ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه سائلاً عن حلال أو حرام ، أو خبر من الأخبار ، لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر ، حتى صلى المغرب . ولم يعاود ابن سريج بعد هذا ولا تعرض له .

وروى فى أخبار حنين (٢) مغنى الحيرة ، أنه انتقل إلى الحجاز بدعوة من ابن سريج والغريض ومعبود ، وآثروا - وآثرت معهم سكرينة بنت الحسين - أن يكون أول غناء له فى منزلها . وأذنت للناس إذفاً عاماً لسماعه ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا .

بل إن بعض هؤلاء الصالحين كان يحكم بين المغنين حين يحتكمون إليه ، كما احتكم الغريض وابن سريج الى سكرينة ، وغناها كل منهما بشعر العرجى :  
« عوجى علينا ربة الهودج ،

فقلت ، والله ما أفرق بينكما ، وما مثلكما عندى إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان ، لا يدرى أى ذلك أحسن .

وكان هناك كثير من الحديث بين الصالحين من الفقهاء والتابعين ، وبين هؤلاء المغنين وشعرائهم ، فيه تسامح أحياناً . وانكار أحياناً ، ولكن هذا

(١) الوشل الكثير من الدفع . المعين : الجارى . غبض من دمه : قال منه

(٢) أغاني ٢ - ص ٣٥٦



الإنكار لم يمنع أولئك المغنين ، والشعراء العابثين كابن أبي ربيعة بمكة ،  
والأحوص بالمدينة ، أن يسيروا في لهُوهم وغنائهم ومجالس أنسهم ، كما شاء  
لهم الهوى والشباب ، وأن تكون هذه المجالس مجالس أدب ونقد أيضاً .  
ومن الصالحين الذين كان لهم ذكر في الغناء عبد الله بن جعفر وكان من  
الأجواد ، ومن الذين أكرمهم بنو أمية : روى أنه قدم على معاوية وافداً (١)  
فدخل عليه إنسان . ثم ذهب الى معاوية ، فقال : هذا ابن جعفر يشرب النبيذ  
ويسمع الغناء ، ويحرك رأسه عليه . فجاء معاوية متغيراً حتى دخل على ابن  
جعفر ، وعزة الميلاء بين يديه كالشمس طالعة ، يضيء بها البيت ، فغنته  
على عودها :

تَبَلَّمت فؤادك في المنام خريدة تشقى الضجيع ببارد بسام  
وبين يديه عُس . فقال : ما هذا يا ابن جعفر ؟ قال . أقسمت عليك  
يا أمير المؤمنين لتشربن منه ، فإذا غسل مزوج بمسك وكافور .  
قال : هذا طيب . فما هذا الغناء ؟ قال : شعر حسان بن ثابت في الحارث  
ابن هشام ، قال : فهل تغنى بغير هذا ؟ قال : نعم ، بالشعر الذي يأتيك به  
الأعرابي الجاني الأُدفر ، القبيح المنظر ، فيشافئك به فتعطيه عليه . وأخذه  
أنا فأختار بحاسنه ورقيق كلامه ، فأعطيه هذه الجارية الحسناء ، اللينة الملمس ،  
الطيبة الريح ، فترتل به هذا الصوت الحسن . قال : فما تحريك رأسك ؟ قال :  
أريحية أجدها إذا سمعت الغناء ، لو سئلت عندها لأعطيت ، ولو لقيت  
لأبليت .

فقال معاوية : قبح الله قوما عرضوني لك ! ثم خرج ، وأمر له بصلة .  
وقد تكون هذه الرواية من ألفاظ ابن جعفر ، وهذا بعيد ، وقد تكون  
المعاني له . وهذا السبك من عمل الرواة . وسواء أكان هذا أو ذاك ، فالذي  
ورد في هذه القصة هو :



(١) ارتحال ابن جعفر من الحجاز إلى الشام ، ومعه مغنيته ، وهذا دليل الترف أولا ، والشغف بالغناء ثانيا .

(١) أن أهل اللهو كانوا مظنة الشراب ، حتى شك معاوية في ابن جعفر .  
(٢) أن هؤلاء المغنين والمغنيات من الموالى كانوا يغنون بما يطيب للسادة أن يختاروه من شعر حديث أو قديم .

(٤) أن هذا الغناء كان يزيد الشعر جمالا ، لجمال الصوت ، وجمال الهيئة فيطرب به الكريم ، ويعطى إذا سئل ، وتزيد حماسته إذا خاض الغمرات .  
وروى عن ابن جعفر (١) أيضا أنه كان مريضا فدخل عليه معاوية ، فوجد عنده جارية في حجرها عود ، فقال : ما هذا يا ابن جعفر ! فقال : هذه جارية أروىها رقيق الشعر ، فتزیده حسنا بحسن نغمتها ، قال : فلتقل ، فحركت عودها وغنت - وكان معاوية قد خضب -

أليس عندك شكر للتي جعلت ما أبيض من قدمات الريش كالخمس  
وجددت منك ما قد كان أخلقه ريب الزمان وصرف الدهر والقدم  
فحرك معاوية رجله . فقال له ابن جعفر : لم حركت رجلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : كل كريم طروب .

أكانت هذه الزيارة بعد السابقة ، وكان ابن جعفر لا يزال يذكر إنكار معاوية عليه ؟ على كل فالنصر على أن معاوية « كان قد خضب » يدل على لباقة المغنين وحسن اختيارهم للأشعار الملائمة للواقف ، ولا يصلون إلى ذلك الحد إلا بعد مران وحفظ للأدب ، وحسن اختيار للناسب منه ، وكذلك كان المغنون في الحجاز في هذا العهد .

كان المغنون يعرفون فضلهم على الشعراء والشعراء ، وكان الشعراء يرسلون إليهم ليسمعوا هذا الغناء في أشعارهم ، كما ارتحل جرير (٢) من المدينة إلى مكة ليسمع غناء ابن سريج في شعره . روى أنه قدم المدينة ، فاحتشد له شباب يطلبون الشعر ومعهم أشعب ، وساءلوه ، وألح عليه أشعب يسأل ، فقال :



والله إنى لأراك أقبحهم وجهاً ، وأراك ألامهم حسبا ، فقد أبرمتنى منذ اليوم . قال : إن والله أنفعهم وخيرهم لك . فانتبه جرير وقال : قل ، ويحك ! فاندفع أشعب فنادى بلحن ابن سريج :

يا أخت ناجية السلام عليكمو  
 قبل الرحيل وقبل عذل العذل  
 لو كنت أعلم أن آخر عهدكم  
 يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل  
 فطرب جرير وجعل يزحف نحوه حتى ألصق ركبته بركبته ، وقال :  
 لعمري لقد صدقت ، إنك لأنفعهم لى ، وقد حسنته واجدته وزينته ،  
 أحسنت والله ! ثم وصله وكساه . فقال بعض الحاضرين لجرير : فكيف  
 لو سمعت واضع هذا الغناء ! قال : أو إن له لواضعا غير هذا ؟ فقالوا : نعم  
 ابن سريج بمكة . فمضى جرير إليه ومعه جماعة ممن يرغبون فى طلب الشعر ،  
 فلما أتوه وجدوه فى فنية من قریش كأنهم المها ومع ظرف كثير . فرحبوا  
 بهم ، وسألوهم حاجتهم ، فأخبروهم الخبر . فرحبوا بجرير وأذنوه ، وسروا  
 بمكانه ، وأعظم ابن سريج موضعه وقال : سل ماتريد ، جعلت فداءك . قال :  
 أريد أن تغنينى لحناً سمعته بالمدينة أزعجنى إليك . وأخبره به فغناه . فقال  
 جرير : لله دركم يا أهل مكة ، ماذا أعطيتم ! والله لو أن نازعا نزع إليكم ليقم  
 بين أظهركم ، فيسمع هذا صباح مساء ، لكان أعظم الناس حظا ونصيба ،  
 فكيف ومع هذا بيت الله الحرام ، ووجوهكم الحسان ، ورقة ألسنتكم ،  
 وحسن شارترك ، وكثرة فوائدكم !

وفى هذا الخبر أيضا ما يشير إلى تقدير المغنين لكبار الشعراء ، وإعجاب  
 الناس بظرف أهل الحجاز وورقة حديثهم ، وحسن ملابسهم وهيتهم .  
 وقد سار الركبان بهذا الشعر وألحانه ، كما غناها ابن سريج ، من مكة إلى  
 المدينة ، وإلى غير المدينة أيضا ، بسبب جمال الصوت وعذوبة الألحان .

وربما كانت رواية هذا الشعر فى الحجاز قليلة قبل أن يتغنى به ، فلما  
 غناه ابن سريج كان رواته أكثر ، والحديث به أعم . فإن أمدل ذلك المجلس فى  
 المدينة كانوا يعرفون الشعر ومغنيه وقائله .



وكان ابن سريج هذا ممن يزيدون الشعر جمالا إذا غنوا به ، وكان غيره مثله : يقول أبو نافع الأسود (١) — وكان آخر من بقى من غلمان ابن سريج — إذ أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك ترقصه .

وإذا كان المغنى من نوع ابن سريج ، كثير الأدب ، جيدا لاختيار ، ظريف اللسان ، حلو المجلس ساعد على إذاعة الشعر الجيد ، وساعده أدبه على الاختيار قبل أن يغنى ، وإذا عرف الشعراء ذلك حرصوا على الإجابة لينال شعرهم حظ الاختيار عند مغن أديب كان سريج .

وروى عنه أنه كان ناقدا (٢) أيضا . فقد احتكم إليه معبد ومالك بن أب السمع ، وقد غنيا في شعر لعبد الرحمن بن حسان ، فغنى معبد :

أب ليلى بهوم وفسكر من حبيب هاج حزنى ، والسهر  
يوم أبصرت غرابا واقعا شر مطار على شر الشجر  
وغنى مالك :

وجرت لي ظبية يتبعها لين الأظلاف من حور البقر  
كلا كفكفت منى عبرة فاضت العين بمنهل درر (٣)

فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أجود صنعة منك . فتنافرا إلى ابن سريج بمكة وغنياه ، فقال لمعبد : أحسنت والله على سوء اختيارك للشعر ! يا ويحك ما حملك على أن ضيعت هذه الصنعة الجيدة فى حزن وسهر ، وهموم وفسكر ! أربعة ألوان من الحزن فى بيت واحد ! وفى البيت الثانى شران فى مصراع واحد ! واستحسن غناء مالك وأثنى عليه .

وكان من هؤلاء المغنين قوم مجددون ، منهم ابن سريج هذا ، فقالوا إنه نقل العود من الفرس ، وإنه رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة فنقله عنهم . كما نسب إلى أستاذه سعيد بن مسجح أنه نقل غناء

(١) أغانى جزء ١ ص ٢٨٤ (٢) أ لى جزء ١ ص ٢٧٣

(٣) جم درة بكسر الدال وهى المطر المتتابع



الفرس في هذا العهد أيضا . وقيل في أخبار الغريض إنه سمع أصوات رهبان بالليل في دير لهم فاستحسنها ، فصاغ لحناً على مثالها في شعر سعيد بن عبد الرحمن بن حسان :

يا أم بكر حبك البادى لا تصرمىنى إننى غادى  
فما سمع بأحسن منه .

وكان هؤلاء المغنين شعراء كأنهم ينشدون الشعر من أجلهم . فكانت هناك صداقة بين ابن سريج وابن أبي ربيعة . ولما غنى ابن سريج قصيدة ابن أبي ربيعة التي مطلعها :

نظرت إليها بالمحبص من منى ولى نظراً لولا التخرج ، عارم

وكان ذلك في موسم الحج ، حبس الناس عن مناسكهم ، واستوقفهم حتى تراحموا . وأخذ بعض جوائز يزيد بن عبد الملك فاعطاها لابن أبي ربيعة قائل هذا الشعر .

وكانوا يتخيرون من الشعر القديم ما يصلح ويجود فيه الغناء ، مع مراعاة المناسبات . وكثر عددهم في الحجاز كثرة غريبة ، وكانوا أساتذة المغنين الذين جاءوا بعدهم في عهد العباسيين . وكان الخلفاء والامراء يرحلون اليهم من الشام فيسمعون منهم ويجزلون عطاءهم .

وإذا كان من الخلفاء والولاة من استمع لهم فقد كان هناك آخرون اشتدوا على بعضهم كالحجاج ، وخالد القسرى ، وعثمان بن حيان المرى ، كما اشتد بعض الولاة على الشعراء الغزليين . ومنع الحجاج عمر بن أبي ربيعة أن يقول شعراً في فاطمة بنت عبد الملك ، لكنه قال ولم يصرح باسمها خوفاً منه . غير أن ذلك المنع لم يكن كثيراً . وكثر في الحجاز ، وبخاصة في الحواضر ، شعر الغزل والغناء به . وكان بعضه صريحاً في العبث وبخاصة في أيام الحج . قال بعض الشعراء .



ياحبذا الموسم من موقف وحبذا السكبة من مسجد  
وحبذا اللان يزاحمتنا عند استلام الحجر الأسود

أما يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد فقد انصرفا إلى الشراب واللهو ،  
وأكثرنا من سماع الغناء ، واستقدما المغنين والمغنيات من الحجاز . فعرفت  
دمشق في أيامهما سلامة وحبابة . وغنى عمر الوادي ، ومالك بن أبي السمح  
وابن سريج ومعبد ، وابن عائشة ، وأبو كامل ، والغريص . وغيرهم ، للوليد بن  
يزيد ، في أشعاره العائشة اللاهية ، وفي أشعار غيره . وأخذوا جوائزهم ،  
ونعموا بالقرب من مجالسه . ولكن الحجاز لم ينزل عن تقدمه في الغناء  
وشعر الغزل إلا للعراق في أيام العباسيين .

وروى الأغانى (١) أن بعض القصص قد وضع وضعاً لحمل بعض  
المغنين على الغناء وذلك أن ابن عائشة المغنى كان عنيداً . إذا سئل أن يغنى أبى ،  
فكانوا يحتالون عليه فينشدون الأشعار التي يريدون سماعها منه . وقد  
يذكرون هذه الأشعار في ثيابا قصص مخترعة : روى أنه كان في مجلس ،  
وأراد بعض الحاضرين أن يسمع منه غناؤه في شعر جميل . فقص قصة ، ما إن  
سمعا ابن عائشة حتى اندفع يغنى .

وروى عن يونس الكاتب قال : (٢) كنا يوماً متزهين بالعقيق أنا وجماعة  
من قريش ، فبينما نحن على حالنا إذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام من  
بنى ليث . فلما رأى جماعتنا جلس إلينا ، وكانت الجماعة تعرف سوء خلقه  
وغضبه إذا سئل أن يغنى ، فأقبل بعضهم على بعض يتحدثون بأحاديث  
كثير وجميل وغيرهما من الشعراء . وجاء أن يطرب فيغنى ، فلم يجدوا عنده  
ما أرادوا . فقلت لهم أنا : لقد حدثني اليوم بعض الأعراب حديثاً يأكل  
كل الأحاديث ، فإن شئتم حدثتكم إياه . قالوا : هات ، قالت : حدثني هذا  
الرجل أنه مر بناحية الرَبْذة ، فاذا صبيان يتغاطسون في غدير ، وإذا شاب



جميل منهوك الجسم ، عليه أثر العلة ، والنحول في جسمه يبيّن ، وهو جالس ينظر إليهم . فسألت عليه فرد على السلام وقال : من أين وضع الراكب ؟ قالت من الحمى ؛ قال ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحا ، قال وأين كان مبيتك ؟ قلت ببني فلان ؛ فقال : أوه ! وألقى بنفسه على ظهره ، وتنفس الصعداء تنفسا قلت إنه قد خرق حجاب قلبه ؛ ثم قال :

سقى بلدا أمست سليمي تحله من المزن ما يروى به ويسم  
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه يحل به شخص على كريم  
ألا حبذا من ليس يعدل قربه لدى ، وإن شط المزار ، نعيم  
ومن لا مني فيه حميم وصاحب فرد بغيط صاحب وحميم  
ثم سكن كالمغشى عليه ، فصحت بالصبية ، فأتوا بماء فصبيتته على وجهه فأفاق ، وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعي وأنفاسي تزين بالخشوع  
ولى عين أضربها التفاني إلى الأجزاء مطلقة الدموع  
إلى الخلوات يأنس فيك قلبي كما أنس الغريب إلى الجميع  
فقلت له : ألا أنزل فأساعدك ، أو أكر ، عودي على بدئي ، إلى الحمى في حاجة إن كانت لك حاجة أو رسالة ؟ فقال : جزيت خيرا وصحبتك السلامة ! امض لسطيتك ، فلو أنى علمت أنك تغنى عنى شيئا لكنت موضعا للرغبة ، وحقيقا بأسعاف المسألة ، وإلكنك أدركتني في صباية من حياتي يسيرة . فأنصرفت وأنا لا أراه يمسي ليلته إلاميتا ، فقال القوم ما أعجب هذا الحديث ! واندفع ابن عائشة فتغنّى في الشعرين جميعا ، وطرب وشرب بقية يومه ، ولم يزل يغنيننا إلى أن انصرفنا :

وأقول مع الراوى : ما أعجب هذا الحديث وأظرفه ، وما دعا إلى روايته إلا خفته وطرافته ، ودلالته على ما كان للغناء من فضل في سرد مثل هذا القصص ، وامتلاء مجالسه بكثير من أخبار الأدب الصحيحة والموضوعة . ونحن في كلتا الحالتين نستمتع بمثل هذا الحديث وهذا الشعر



الذى أذهب شيطان ابن عائشة وهده ، فطرب به وغناه  
ونستطيع أن نبين تأثير الغناء في الشعر خاصة ، والأدب عامة فيما يأتي :  
(١) الغناء يوافق الشعر وما في حكمه ، ويؤثر من الشعر ما كان غزلا ،  
لأن الشباب أكثر من تهمهم مجالس الغناء ، والحديث عن الغزل يقع  
من نفوسهم موقعا حسنا ، بل إن من الشيوخ من يؤثر الغزل لأنه يعيد إليهم  
ذكريات الشباب .

على أن بعض المغنين يختار - لظروف ومناسبات خاصة - أشعارا غير  
الغزل ، وذلك كالحماسة ، والوصف ، والمدح ، والرثاء ، بل إنهم قد يختارون  
الهجاء أيضا .

(٢) الغناء يزيد الشعر جمالا ، واجتماع اللحن الجميل ، والصوت الحسن  
مع الموسيقى الشعرية يجعل الشعر أكثر قبولا ، وأيسر حفظا ، ويحمل على  
الترسم به فيكثر روايته ، ويشيع خبره وقد يكون بعض الشعر مجهولا  
أو قليل الشهرة ، فاذا غنى به المغنون شاع ، وعادت إليه جدته وشبابه

(٣) إذا كثرت الغناء بنوع من الشعر ، أو دعت الظروف إلى الاهتمام بفن  
من فنونه في الغناء ، كشعر الوطنية ، أو الشعر الديني ، انصرف الشعراء إلى  
هذا النوع . مدفوعين إلى ذلك بالروح الشائع ، وقدموا للمغنين مددا من هذه  
الأشعار يغنون به ، ويردده الناس بعدهم ما بقيت الظروف

(٤) من المغنين من يختار أشعارا ياباها الدين أو الفضيلة أو القانون  
فتصادره الدولة ، أو يشور عليه القائمون بأمر الأخلاق ، وكثيرا ما منع  
الرقب بعض الأغاني ، أو ثار العرف أو الأخلاق فكف المغنون ، وقد  
يكون المنع للبعث ، وقد يكون للتلحين . وكان من ذلك مطاردة بعض  
الأغاني في شعر الأحرص زمن سليمان بن عبد الملك .

(٥) للغناء وألحانه أثر في الشعراء . فتراهم يراعون أنغام الغناء في شعرهم  
ويختارون من البحر ما يسهل تلحينه . وينزلون عند حكم الغناء ، كما ينزلون



عند حكم الموضوعات - صناعة أو طبيعة - والذين يعرفون أصول الغناء والموسيقى من الشعراء أكثر حرصا على ذلك .

(٦) قد يستخدم الغناء وسيلة إلى الإيحاء للناس بمعاني الأدب ، لقربه من النفوس ، وسهولة وصوله إلى القلوب . فترى من يريد إصلاحا ، أو إفسادا ، أو بلوغ مأرب ، يوحى عن طريق الشعر الملحن بما يريد أن يوحى ، وسرعان ما يصادف هذا الشعر هوى في النفوس .

(٧) قد يكون في مجالس الغناء أو بعدها حديث عن الشعر المغنى ، نقدا له أو تفسيراً ، أو رواية خبر يتعلق به ، أو إشارة إلى حوادث أو شخصيات وردت فيه ، وتصبح مجالس الغناء باعثاً على الحديث في الأدب والأخبار والنقد وغير ذلك .



## عمر بن عبد العزيز

صفر ٩٩ رجب سنة ١٠١ هـ

رجل آتاه الله الملك والحكمة ، فأحسن كما أحسن الله إليه ، وأسبغ عليه العز والنعمة ، فأدى حقوق الله عليه ، وبلغ أعلى مراتب الدنيا فطلب بها رضوان الله في الآخرة ، وأحيا مدارس من أمور الدين ، حتى عد من الراشدين ، وأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، فكان من خيرة التابعين بإحسان . ووهب الله له حكمه وألحقه بالصالحين ، وجعل له لسان صدق في الآخرين .

كان عمر حاكما على المدينة في خلافة ابن عمه الوليد بن عبد الملك ، فأعاد سيرة السلف الصالح في ولايته . وولى خلافة المسلمين بعد سليمان بن عبد الملك ، فاتخذ القرآن إماما وهاديا ، فأحيا ما أحياه وأمات ما أماته ، وحمل نفسه والناس على الطريق القويم ، واستعان بالله ، وبالصالحين من عباد الله ، على إقامة العدل بين الرعية ، فأمن الناس على دماءهم وأموالهم ، بعد أن أبيضت قبله الأموال والدماء ، كما شاءت السياسة وشاءت الأهواء .

كان ابن عبد العزيز بعيدا عن كبرياء الملوك ، متخلقا بأخلاق الله ، شديدا في الحق ، عنيفا على الظالمين ، ولما سكنه كان بالمؤمنين رءوفا رحيفا .

روى أنه لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره ، سمع للأرض رجة ، فقال ماهذه ؟ فقيل : هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قربت إليك لتركبها . وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة . فقال : تنح عني . مالي ولك ! إنما أنا رجل من المسلمين ! فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فقال :

« أيها الناس : إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ، فاختروا لأنفسكم ، ؟ »



فصاح الناس صيحة واحدة : « قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعا ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ وقال (١) :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف . واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم ، يصلح الله السكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات . وإن من لا يذكر من آبائه ، فيما بينه وبين آدم عليه السلام ، أباً حيا لمعرق في الموت . وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها ﷺ . وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإن الله لا أعطى أحدا باطلا ، ولا أمتع أحدا حقاً . إني لست بخازن ، ولا سني أضع حيث أمرت .

أيها الناس : إنه قد كان قبلي ولاية تجترون مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظنهم عنكم . ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم .

هذا دستور الذي وضعه لنفسه يدل على أنه كان يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وأنه كان يذكر الموت وما بعده ، ويسير في الرعية سيرة الخائف من الله ، حتى عد فريداً في خلفاء بني أمية . وألحقه المؤرخون بجمدة الفاروق .

### آثاره في الأدب :

أما أدبه فهذا مثاله ، وهو طراز غير الذي ألفناه في السابقين واللاحقين من هؤلاء الخلفاء . كانت نفسه الطيبة مسيطرة على لسانه ، وكان دينه القيم

(١) هناك حوالي خمس روايات لأول جملة خطبها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وردت في كتب متفرقة وجمعها الاستاذ صفوت في جملة خطب العرب ٣ من ص ١٨٩ إلى ص ١٩٢ . وهذه من أطولها .



مسيطرًا عليهما ، فلم يكن يجري لسانه أو قلبه إلا بأمر معروف أو نهى عن منكر . ولم يؤثر عنه في أدبه أو صلته بالأدباء إلا ما كان متأثرا بـلـدـنـ . فكان أدبه الخاص - في خطبه ورسائله - حنى الديوانية - رجوعا بأمور الدولة إلى أصول الدين ، وتأثرا بتعاليمه وأساليبه .

وكانت له مواعظ دينية ، وأقوال في الزهد ، وجدل في الدين مع الخوارج ومع بعض المتكلمين في القدر وغيره من المسائل الدينية ، وكانت له دعوات إلى الدين ، ودعا ملوك السند فأسلموا . وكان معينه القرآن والحديث وأفعال الصحابة ، مع حسن استعمال العقل في اختيار الأمثلة والبراهين التي يسوقها تأييدا لدعوته ، أو تقوية لحجته .

كتب إليه عدى بن أرطاة وإلى البصرة يقول :

« أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين - فإن قبلى أناسا من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالا عظيما ، لست أرجو استخراجهم من أيديهم إلا أن أمسهم بشيء من العذاب . فإن رأى أمير المؤمنين أصلحه الله - أن يأذن لى فى ذلك أفعل »

فأجابه عمر :

« أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب بشر ، كأنى لك جنة من عذاب الله ، وكأن رضى عنك ينجيك من سخط الله عز وجل ! فانظر من قامت عليه بينة عدول نخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقر لك بشيء نخذه بما أقر به . ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سميله ، وإيم الله ، لأن يلقوا الله عز وجل بخياناتهم أحب إلى من أن ألقى الله بدمائهم ، والسلام »

فى هذه الرسالة ، كما فى غيرها من الرسائل ، يمزج عمر الدين بسياسة الدولة ، لا يكتب كتابة سياسية محضة ، ولا وعظا دينيا خالصا ، ولا رسائل ديوانية ، بل يجمع ذلك كله بعضه إلى بعض ، ويبغى الأغراض الثلاثة فى هذه الرسائل الموجزة ، فابتداء رده على ابن أرطاة خوف من الله ، وأنه لا تملك نفس



لنفس شيئاً ، ولا تغنى عنها من عذاب الله شيئاً ، ويتسع ذلك القاعدة القانونية الواردة في الأثر : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » .  
ولما كان الدين معينه الصافي الذي يأخذ منه آدابه وفضائله وأخلاقه ، كان طبيعياً أن يكثر من الاقتباس والاستشهاد والتضمن من القرآن والحديث وآثار الراشدين .

خطب يوماً فقال : « أيها الناس . لا تستصغروا الذنوب ، واتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها » إن الحسومات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » .

وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم عامله بخراسان :  
« أما بعد . فكن عبداً ناصحاً لله في عباده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استرعى ؛ وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهباً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه »  
أسلوب القرآن والحديث واضح في هذا ، وروح التعليل للأوامر واضحة أيضاً في هذه الجمل المسبوقة بالفاءات ، وما أشبه هذه الجمل بالحجج والبراهين على ما سبقها .

وقد كان سيدنا عمر بن عبد العزيز - مما نرى في أدبه - منطقي التفكير يذكركم بالحكم وسببه ؛ والرأى والبرهان عليه . وكان سريع القضاء فيما يعرض عليه من الأمور ، واضحاً قوياً فيما يصدره من الأوامر . كتب إليه أحد عماله يقول .

« إنا أتينا بساحرة فألقيناها في الماء ، فطفت على الماء ، فما ترى فيها ؟ »  
فرد عليه عمر ، ولعله كان يسخر منه في الجملة الأولى : « لسنا من الماء في شيء ! إن قامت عليها بيعة ، وإلا نخل سبيلها » .

وقد ساعد هذا الروح الديني على ظهور كثير من أهل الصلاح والتقوى على



مشرح السياسة ، فاشتركوا في إدارة الدولة اشتراكا فعليا إلا من أن ،  
واشترك بعضهم في وضع أسس سياسية مصدرها الدين . وعدت من الأدب  
الرفيع الجديد كذلك . وهذا الحسن البصرى في كتابه إلى عمر يذكرك كل  
ما يجب أن يتصف به الإمام العادل واليك الكتاب :

### وصف الإمام العادل : للحسن البصرى :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ،  
وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم  
ومفزع كل ملهوف - والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ،  
الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها  
من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر - والامام العدل يا أمير المؤمنين كالآب  
الخان على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ،  
ويدخر لهم بعد مماته - والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة  
الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ،  
وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم  
بشكايته - والامام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى ، وخازن المساكين ،  
يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم - والامام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين  
الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده - والامام العدل  
يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ،  
وينظر إلى الله ويرىهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين  
فيما ملكتك الله كعبد اتئمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ،  
وشرد الديال ، فأفقر أهله وفرق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل  
الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها !  
وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم !  
واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده . وقلة أشياحك عنده ، وأنصارك



عليه ، فتزود له ، ولما بعده من الفزع الأكبر - واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوائك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه . وصاحبه وبنيه - واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القبور ، وحُصِّلَ ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لاتحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلین ، ولاتسلك بهم سبيل الظالمين ، ولاتسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ - ولاذمة ، فتبوء بأوزارك . وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك . وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، وبأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لاتنظر إلى قدرتك اليوم ، راسك انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين ، وقد عَنَت الوجوه للحى القيوم . إن يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظي ما بلغه أولو النسي من قبلي ، فلم آ لك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابي إليك كمدأوى حبيبه . يسقيه الأدوية الكريمة . لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

هذه رسالة الحسن إليه . يبين له صفة الحاكم المثالي ، أو الامام العادل في الرعية ، وما يجب عليه من رعايتهم . وحذب عليهم ، وإخلاص لله في أمورهم . وخوف من يوم القيامة عند التصرف في أموالهم . الخ . ولو أن فيلسوفاً أخلاقياً تخير حاكماً لمدينة فاضلة ما اختار إلا ما وصفه الحسن البصري حاكماً ، يصلح حياتها ويجعلها نعيماً .

ونكتفي بقراءة هذا الوصف لنرى منه أدباً آخر ومدرسة أخرى لابن عبد العزيز والحسن البصري ، وطاوس ، وسالم ابن عبد الله بن عمر وابن سيرين . وغيرهم من رجال الورع والتقوى والزهد . عمادها في أدبها



القرآن والدين ، تقتبس منهما الأسلوب وتختار منهما الموضوعات ، وتبشر بهما وتنذر ، وتدعو إليهما . وتحاول أن تصرف الناس عما يخالفهما . ولو أردت أن ترجع أكثر ماورد للحسن البصرى عما بعد الموت فى هذه الرسالة ، إلى القرآن الكريم ، لما تخلف له إلا القليل . كما كانت طريقة أولئك الصالحين الذين تقدمت أسماؤهم

وتشير هذه الرسالة فى وصف الامام العادل ؛ إلى فكرة فى الخلافة لم نألفها منذ عهد الراشدين . فالخليفة فى هذه الرسالة ملجأ للناس ، وكأنه الراعى الشفيق ، أو الأب الحانى ، أو الأم الرفيقة ، وهو وصى اليتامى وخازن المساكين ، وكأنه فيهم بمنزلة القلب من الجسد يصلح بصلاحه ويفسد بفساده . وهو أولى الناس باتباع أوامر الله ، وحمل غيره عليها . فليكن أحرص الناس على الحدود ، وعلى تذكر الموت قبل حلول الأجل ، وليعمل عملا صالحا يرجو به ثواب الله فى الدار الآخرة

كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ، -ولا بفكرة الخلافة من معنى الحق المقدس (١) إلى فكرة أخرى ، هى أن الخليفة خادم الائمة ، عليه أعباء عظيمة ، ومسئوليات أعظم أمام الله . وعبر الأدب عن هذه النظرة تعبيراً جميلاً ، ونظر الشعر فى عهده هذه النظرة . واستمد الشعراء معاني مدحه من صلاحه وحسن سيرته ، فقال كثير : (٢)

وليت ، فلم تشتم عليا ، ولم تخيف  
وصدقت بالفعل المقال مع الذى  
وقال له جرير قولاً حقاً : (٣)

أنت المبارك والمهدى سيرته  
وتعصى الهوى وتقوم الليل بالسور  
وشبهه بجده الفاروق فى قوله :

أشبهت من عمر الفاروق سيرته  
وهذه نظرة إلى الخليفة تماها كثيراً عبد الملك ، وكان الشعراء يقعون على



هذه المعاني الدينية وهم يمدحون آل الزبر أو بني هاشم فيتمنى عبد الملك أن يمدح بمثلها . (١)

ولكن الشعراء كانوا ينظرون إلى الخلفاء الأمويين نظرهم إلى الملوك الذين لا سلطان لأحد عليهم ، ولا قول لأحد بعد قولهم . وهذا ابن قيس الرقيات يقول :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحملون إن غضبوا  
وأنتهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب  
ويقول ابن الرقاع في الوليد .

ولقد أراد الله إذ ولاها من أمة إصلاحها ورشادها  
الشعر عنده

وكان لسيدنا عمر بن عبد العزيز موقف من الشعراء أثر فيهم وفي شعرهم ، على رغم الزمن القصير الذي عاشه . ذلك أنه لم يكن في حاجة إلى الشعراء يستغلهم استغلالا سياسيا ، لأنه كان رجلا يخشى الله أشد خشية ، وكان لا يعبأ بمدح الناس ولا ذمهم ، وكان يستوحى الدين في سياسته ، ويسترشد بالصالحين من التابعين ، ويستعين بأهل العفاف والتقوى ، « فأمسى راضيا كل مسلم » كما قال عنه كثير ، اللهم إلا الشعراء الذين حرّمهم ، والظالمين الذين أخذ منهم ما استولوا عليه غصبا ، وردّه إلى أصحابه .

وبهمنا موقفه مع الشعراء الذين وفدوا عليه ، يرجون خيره وعطاءه فلم يعطهم على مدحه إلا من ماله . فاذا أعطاهم من بيت المال فلفقرهم لا لشعرهم ، وتلك حال لا تشجع الشعراء على الرحلة إليه ، وانفاق الليالي والشهور في تحبير المدائح فيه ، ولا بذل الجهد في صوغ المعاني التي تليق بمقام الخلافة . فالرجل لم يكن يريد هذا ، والشعراء لا خير لهم في هذا . بقي الذين أعجبوا بأعماله العظيمة فمدحوه مدحا خالصا لا يريدون منه جزاء ولا شكورا .



لما ولى الخلافة وفد عليه الشعراء كما كانوا يفدون على الخلفاء قبله .  
فأقاموا ببابه أياما لا يأذن لهم بالدخول ، وهذه مقدمة لاتبشر بخير ، حتى  
قدم عدى بن أرطاة عليه ، وكانت له عنده مكانة ، فقال جرير (١) .

يا أيها الرجل المزجى مطيته هذا زمانك ، إنى قد مضى زمنى  
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية أنى لدى الباب كالمصفود فى قرآن  
وحش المكانة من أهلى ومن ولدى نائى المحلة عن دارى وعن وطنى  
فلما دخل على عمر قال له : يا أمير المؤمنين ، إن الشعراء ببابك ، وأقوالهم  
باقية ، وسنانهم مستنونة . قال : يا عدى . مالى وللشعراء ! فأخبره أن النبى  
ﷺ سمع المدح وأعطى عليه ، وفيه أسوة لكل مسلم . قال : صدقت . فمن  
بالباب منهم ؟ قال ابن عمك عمر بن أبى ربيعة . قال : لا قرب الله قرابته  
ولا حيا وجهه ! أليس هو القائل .

ألا ليت أنى يوم حانت منيتى شمت الذى ما بين عينيك والقم  
وليت طهورى كان ريقك كله وليت حنوطى من مشاشك والدم  
ويا ليت سلى فى القبور ضجيعى هنالك أو فى جنة أو جهنم  
فليته والله تمنى لقاءها فى الدنيا ، ويعمل عملا صالحا . والله لادخل على  
أبدا (٢) . ثم سأله عن بالباب غيره ، فذكر له جميلا ، فروى له عمر أبياتا  
من الشعر ، وقال : اعزب به فوالله لادخل على أبدا . وكذلك كثير ،  
والأحوص ، والفرذف ، والأخطل ، حتى ذكر له جريرا . فقال : أليس  
هو القائل :

لولا مراقبة العيون أرينا مقل المها وسوالف الآرام  
هل ينهيك أن قتلن مرقشا أو ما فعلن بعروة بن حزام  
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

(١) العقد ١٠ عند ص ٢٠٥ (٢) عمه عبد الملك أعطى ابن ربيعة خمسة أضعاف الجائزة  
التي أخذها غيره من الوافدين معه بسبب البيت الأخير ص ١٥١ من هذا الكتاب .



طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام<sup>(١)</sup>  
فان كان ولا بد فهذا . فأذن له ، فدخل وهو يقول :

إن الذي بعث النبي محمدا جعل الخلافة في إمام عادل  
وسع الخلائق عدله ووفاءه حتى ارعوى وأقام ميل المائل  
والله أنزل في القرآن فريضة لابن السبيل وللفقير العائل  
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس موالعة بحب العاجل

فلما مثل بين يديه قال: اتق الله يا جرير ، ولا تقبل إلا حقاً فأنشأ يقول: (٢)

كم باليامة من شعشاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر  
من يبعدك تكفي فقد والده كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطير  
يدعوك دعوة ملهوف كأن به خبيلاً من الجن أو مساً من البشر  
خليفة الله ماذا تأمرن بنا لسنا إليك ، ولا في دار منتظر  
مازلت بعدك في هم يؤرقني قد طال في الحى إصعادي ومنحدرى  
لا ينفع الحاضر المجهود باديها ولا يعود لنا باد على حضر  
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر  
أتى الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر  
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر

فقال : يا جرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثائة ، فمائة  
أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله . يا غلام . أعطه المائة الباقية ،  
فقال : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلى . ثم خرج ، فقالوا  
له : ما وراءك ؟ قال : ما يسوءكم : خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ،  
ويمنع الشعراء وإني عنه لراض . ثم أنشأ يقول :

(١) سكينه بنت الحسين عابت البيت الأخير على جرير وقالت : أى وقت للزيارة خير  
من هذا ! .

(٢) أغاني ص ٥٤ : خبر هذه الزيارة مع اختلاف قليل في الحوادث ، وترتيب الايات  
في الديوان مخالف للعمد والاغاني .



رأيت رُقي الشيطان لا تستغفره وقد كان شيطاني من الجن راقيا  
ويروى أن جريرا لقي في عودته دكينا الراجز ذاهبا إليه . فقال له جرير :  
عول عليه في مال ابن السبيل . ويروى كذلك أن دكينا لم يجد سبيلا إلى عمر  
فدحه بأعلى صوته ، فأسر له عمر بشيء من ماله الخاص . وذهب إليه كثير  
والأحوص فلم يجد سبيلا إلى الوصول إليه حتى استأذن لهما مسلمة بن  
عبد الملك بعد أربعة أشهر . فأذن لهما مع العامة . فلما دخلا سبلا ، وقال  
كثير : يا أمير المؤمنين ، طال الثواء ، وقلت الفائدة ، وتحدث بجفائك إيانا  
وفود العرب . قال : يا كثير ، إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين  
عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ،  
وابن السبيل ، أفى واحد من هؤلاء أنت ؟ قلت : بلى ، ابن السبيل منقطع به  
وأنا صاحبك . ثم استأذنه في الانشاد فقال له : لا تقل إلا حقا فدحه  
بأنه أبطال سنة الأمويين في سب علي - وكان كثير يتشيع - وأنه قد أمن  
الناس فرهي عنه المسلمون وأنه أعرض عن الدنيا وزينتها ثم قال له :

ومالك ، إذ كنت الخليفة ، مانع سوى الله من مال رعيت ودرهم  
تركت الذي يفنى وإن كان رونقا وآثرت ما يبقى برأى مصمم  
وأضررت بالفاني ، وشمرت الذي أمامك في يوم من الشر مظلم  
سمالك هم في الفؤاد مؤرق بلغت به أعلى المعالي بسلم  
فما بين شرق الأرض والغرب كلها مناد ينادى من فصيح وأعجم  
يقول أمير المؤمنين ظلمتني لأخذ دينار ولا أخذ درهم

وأذن للأحوص فأنشده قصيدة فيها كلام عن الشعر والجزاء عليه عند  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهى تقدم نصيب ، فلم يأذن له في  
الانشاد ، وأمره بالغزو ، وأعطى كثيرا ثلثائه . والأحوص مثلها  
والنصيب نصفها .

وفي هذا الحديث الطويل عن موقف عمر بن العزيز من الشعراء بيان  
لتأثر الشعر بخلافته كما يلي :



أنه لم يأذن لهم في مطلع خلافته كما كان يفعل غيره من الخلفاء ، وتبع ذلك أنه حرمهم ما كان لهم من حق ثابت في بيت المال ، لا يقره الدين ، وإن أقرته السياسة .

وأنه لم يعبأ بمدح الشعراء ولا هجائهم . فلما ذكروه بسماع النبي صلى الله عليه وسلم للمدح سمع منهم ، وكافأهم من ماله الخاص ، وما كان أقل هذا المال . وأن الشعر الذي كان يعجب الخلفاء من قبله لم يعجبه . وحرّم ابن أبي ربيعة العطاء على شعر كافأه عليه عبد الملك خمسة أضعاف الجائزة التي أخذها غيره .

وقد ترك شعر المدح والهجاء والغزل ، يترنخ إذ صدم هذه الأنواع صدمة قوية . بإنكاره لها ، وحرّم الشعراء بسبب المعاني التي كذبوا فيها أوفسقوا ، وتقرب إليه بعضهم - كالنصيب - بأنه ترك النسيب . وترك الشعراء لضماؤهم فأثنى عليه بعضهم إعجاباً ببطل أخلاقه وأعماله ، مثل جرير .

كان عمر راوية للشعر ، حافظاً للكثير من محتاره ، عارفاً وكان باتجاهات الأدب في أيامه ، وبأثر السياسة في توجيهه ، فنفر من ذلك . وكثر في أيامه أدب شديد الصلة بالدين ، يدعو إليه ، ويبدى محاسنه ، ويظهر أحكامه ، ويبين حدوده ، ويستمد منه المعاني والمبادئ والأساليب والألفاظ والموضوعات . وكثر الحديث عن الوعظ والزهد ووصف الدنيا ومقارنتها بالآخرة . وعلا شأن أهل الفقه والعبادة من أمثال سالم بن عبد الله بن عمر والحسن البصري ، وعدى بن أرطاة ، ورجاء بن حيوة .

ومات عمر بن عبد العزيز بعد أن ترك له في الصالحين ذكراً ، ورثاه الشعراء فقال رجل من أهل الشام يرثيه :

قد غيب الدافنون اللحد إذ دفنوا      « بدير سمعان ، قسطاس الموازين  
ولم يكن همه عيناً يفجرها      ولا النخيل ولا ركض البراذين  
أقول لما أتاني نعي مهلكه      لا يبعدن قوام الملك والدين



وقال جرير يرثيه :

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ياخير من حج بيت الله واعتمرا !  
 حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له وقت فيه بأمر الله ياعمرا !  
 فالشمس كاسفة ليست بطالعة تبكى عليك نجوم الليل والقمر

كان الخطباء يسبون علياً رضى الله عنه حتى فى الخطب الدينية ، مرضاة  
 لبنى أمية ، فأبطل عمر هذه السنة السيئة . وأمر أن يكون ختام هذه الخطب  
 قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتا ذى القربى ، وينهى  
 عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم الله لئلا تكونوا من الخاسرين » .

تم طبع هذا الكتاب بحمد الله تعالى  
 بمطبعة المعلوم بالقاهرة

فى ١٢ رجب سنة ١٣٦٨ — ١٠ مايو سنة ١٩٤٩



## الفهرس

صفحة

- ٩ - ٣٨ دراسة الأدب : دراسة النصوص لذاتها (٩). النص المستقل (١٢) حاجة النص إلى علم بظرفه وإشاراته (١٤). التحقيق الأدبي (١٦) شبه النص بعصره وبيئته (١٧). اعتماد التحقيق على الناحية الشكلية (١٧). الجمع بين النقد والتحقيق (٢٠). دراسة الفنون الأدبية (٣١) طريقة التراجم أو السير (٣٢) المدارس الأدبية (٢٩) الطريقة التاريخية : ١ - نسبة العصر إلى دولة أو أسرة (٣١). ٢ - نسبته إلى ملك عظيم (٣٢). ٣ - نسبته إلى أديب مشهور (٣٢). ٤ - نسبته إلى حركة تاريخية كبيرة (٣٣). ما يبرر التقسيم التاريخي (٣٣) تأثير الأدب في التاريخ (٣٦) الجمع بين هذه الطرق (٣٨)
- ٢٩ - ٥٤ في سبيل الملكية الوراثية : النزاع بين علي ومعاوية (٣٩) مخالفة معاوية (٤١). وقعة الجمل (٤١). أثر النزاع في النشر : - أ - في الرسائل (٤٣) ب ، في الخطب (٤٦) . أثر النزاع في الشعر (٥٠). نتائج معركة صفين (٥٣)
- ٥٥ - ٥٩ أثر العظماء في الناس : سيادة وتقليد (٥٥). مصدر نبوغ الأدباء (٥٦) قيادة الأمويين للأدب (٥٧)
- ٦٠ - ١٠٥ معاوية بن أبي سفيان شرف أسرته : أبوه . (٦٠) أمه (٦١) بيئته (٦٤) . في إسلامه (٦٠). قيادته للحركة الأدبية (٦٦). رسائله (٦٧). الوفادة الأدبية (٧٠). الأدب في البيعة ليزيد (٧٤) البيعة ليزيد بالحجاز (٧٥). الوفادة لتأييد البيعة (٨١). الشعر في هذه البيعة (٣). اتفاق الوالد والولد (٨٤). معاوية يسن



سنة لمن بعده (٨٥). معاوية والآنصار (٨٥). موقفه من التهاجي  
بين ابن حسان وابن الحكم (٨٨). معاوية والعصيات (٨٩)  
بعض نتائج هذه السياسة (٩١). معاوية والشعر (٩١). التشهير  
بعلی وحنّة أشياعه (٩٤). أثر هذه الفتنة في الأدب (٩٦).  
المجالس الأدبية عند معاوية (٩٦). معاوية والغزل في الحجاز (٩٩)  
معاوية ورواية الأخبار (٩٩). معاوية والقصص (١٠١). حرية  
الأدب في زمنه (١٠١). خاتمة آثاره الأدبية (١٠٣). الخلاصة  
(١٠٤). معاوية زعيم مدرسة ملكية أدبية (١٠٥).

١٠٨ - ١٢٦ يزيد (١٠٨). مقتل الحسين (١٠٨). أثرها في الأدب (١٠٨)  
وقعة الحرة (١٠٩). أثرها في الأدب (١١٠). حصار مكة  
(١١١). أثرها في الأدب (١١١). عتبة بن أبي سفيان (١١٤).  
وصيته لمؤدب أبنائه (١١٥). زياد (١١٨). أدبه صورة من نفسه  
(١١٩). أثر الدين في أسلوبه (١٢١).

## بنو مروان

١٢٧ - ٢٠١ - ١ - مروان (١٢٧). - ٢ - عبد الملك (١٣١). خطبه  
(١٣٢). خطبته بعد مقتل عمرو بن سعيد (١٣٢). الظرف  
الذي قيلت فيه (١٣٣). خطبته بعد قتل مصعب (١٣٦).  
رسائله (١٣٨). الموجز منها (١٤٠). سبب الإيجاز (١٤١).  
الشعر في الرسائل (١٤٢). الاقتباس من القرآن والحديث  
(١٤٤). عبد الملك والشعر السياسي (١٤٥). نقده للشعر (١٤٥).  
مجالس الشعر عنده (١٥٠). مناظرة بينه وبين خالد بن يزيد  
(١٥٣). الوفادة الأدبية عليه (١٥٤). استشهاده بالشعر (١٥٦).



عطاؤه للشعراء (١٥٧). أثر الشعر في نفسه (١٥٨). نفسيته من تاريخ الأدب (١٦١).

٣ - الوليد بن عبد الملك (١٦٢). ابن الرقاع وجريير عنده (١٩٣).

ابن سريج المغني يفد عليه (١٩٣). جريير في البيعة لابنه (١٦٤).

ابن قيس الرقيات وغزله بأمر البنين (٦٥)، وضاح اليم (١٦١).

٤ - عبد العزيز بن مروان.

٥ - بشر بن مروان (١٧٨). شعراء الشيعة ومدح بني أمية

(١٧١). شعراء المدح (١٧٤). الإغراء بين الشعراء وأثره (١٧٥)

٦ - الحجاج (١٧٩).

٧ - سليمان بن عبد الملك (١٨٣).

٨ - هشام بن عبد الملك (١٨٧). النزاع بينه وبين ولي العهد

(١٨٧). العصبيات (١٨٨). التسامح مع الشيعة (١٨٩).

الكتابة الإنشائية في عهده (١٩١). شعر العصبية الفارسية (١٩٣)،

٩ - خالد بن عبد الله القسري (١٩٦).

٢٠٢ - ٢١٣ - ١ - يزيد بن عبد الملك (٢٠٢).

٢ - الوليد بن يزيد (٢٠٦) حياته الفنية (٢٠٧). صلته بهشام

وأثرها فيه (٢٠٧). لما ولي الخلافة. شراب وغناء (٢٠٩).

٢١٤ - ٢٢٤ الغناء والأدب: موقف الخلفاء والصالحين (٢١٥). الشعراء

والمغنون (٢١٨). المجددون في الغناء (٢١٩). أثر الغناء في

الأدب (٢٢٣).

٢٢٥ - ٢٣٧ عمر بن عبد العزيز: آثاره في الأدب (٢٢٦). وصف الامام

العادل للحسن البصري (٢٢٩). الشعر عنده (٢٣٢). تأثير

الشعر به (٢٣٦).











AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033409

# American University of Beirut



892.709

F212A

General Library



